



صَدَى الْقُرْآنِ

مجلة قرآنية . ثقافية . اجتماعية . فصلية

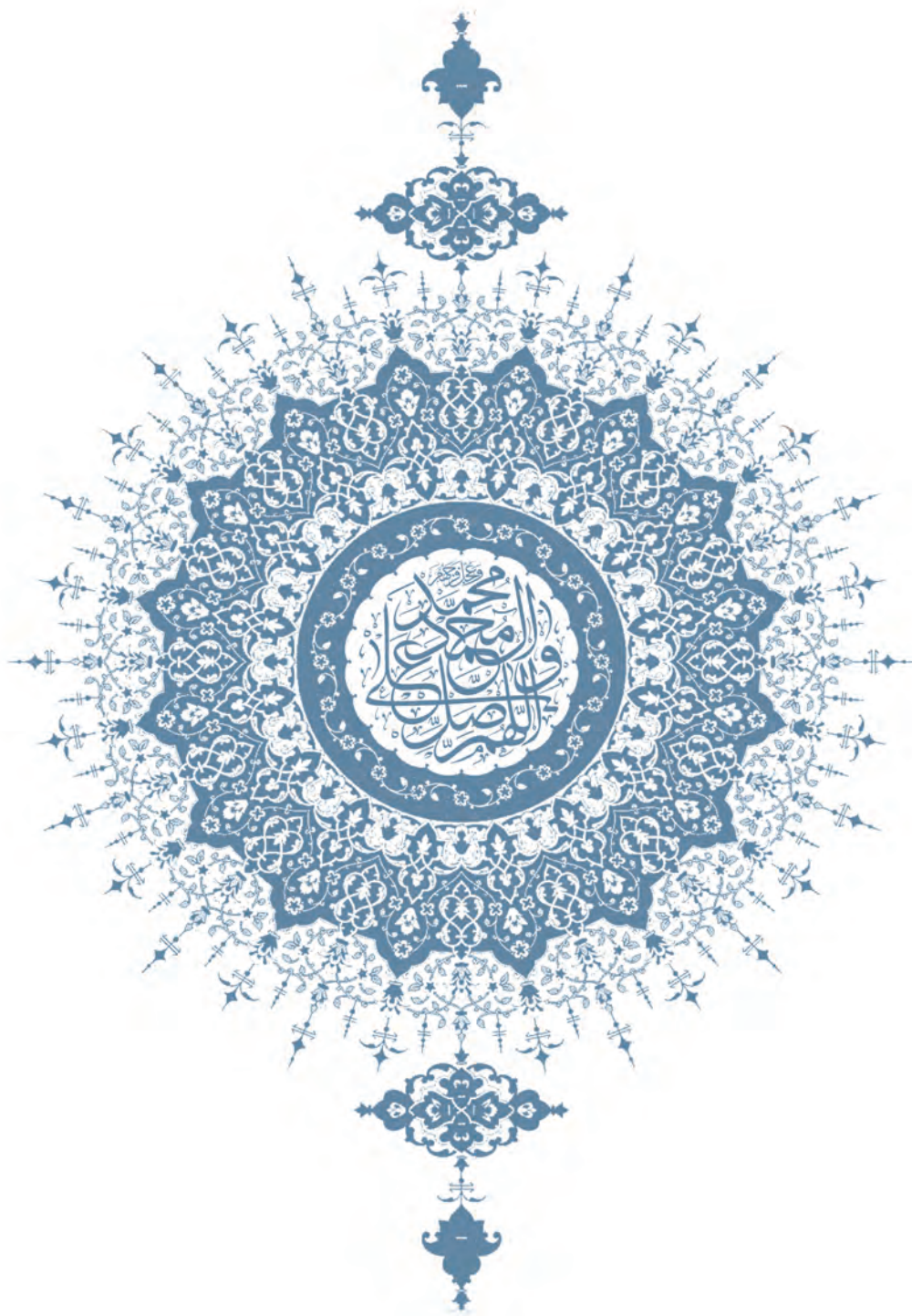
تَصَدَّرُ عَنْ

دَارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي الْعَتَبَةِ الْحُسَيْنِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ



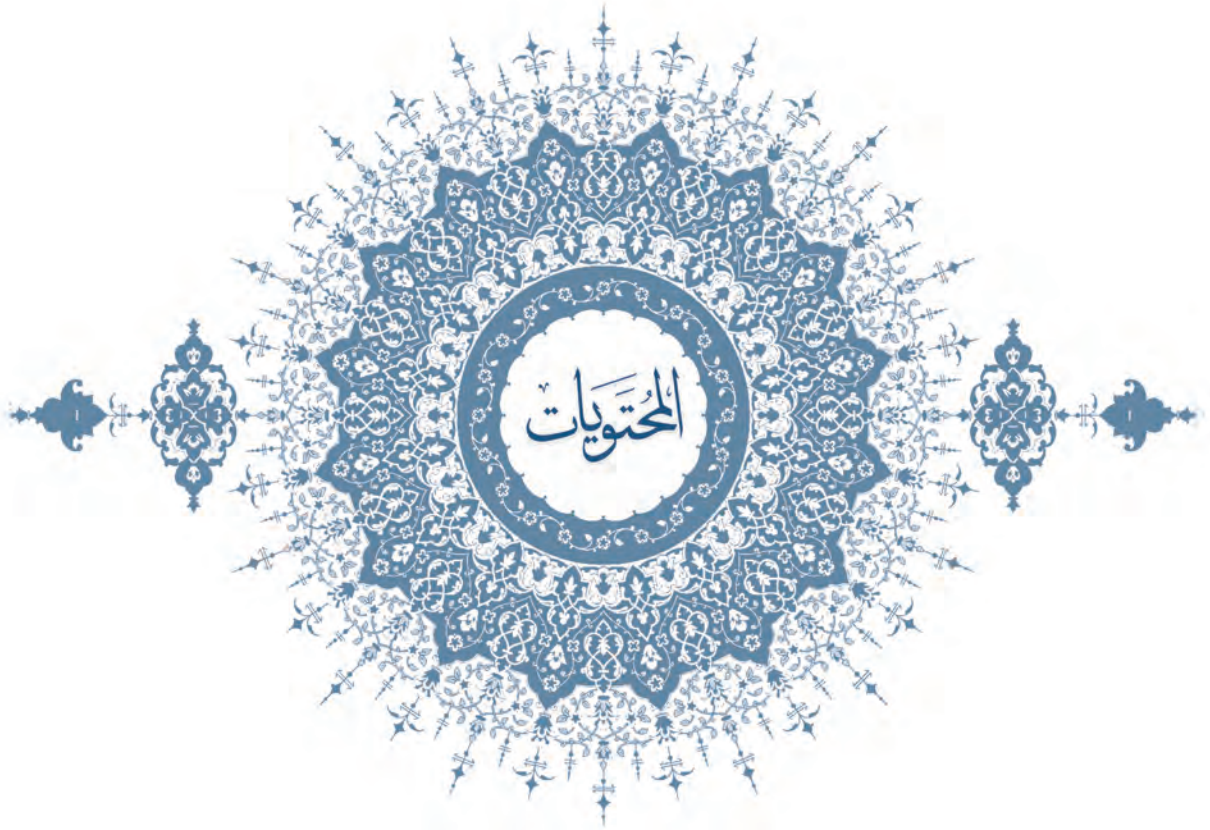
التصميم والايخراج الفني
أسامة جبار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



شروط النشر

- ١- تنشر المجلة الأبحاث العلمية التي تعنى بالشأن القرآني، والملتزمة بمنهجية البحث العلمي وخطواته المتعارف عليها علمياً.
- ٢- يقدم البحث على ورق A4 بنسخة واحدة مع قرص مدمج CD.
- ٣- أن لا يزيد عدد صفحات البحث على (٢٠) صفحة، وأن لا يقل عن (١٥) صفحة.
- ٤- تقديم ملخص للبحث باللغة العربية، وفي صفحة مستقلة، على أن يحتوي كل ملخص على عنوان البحث واسم الباحث.
- ٥- أن تحتوي الصفحة الأولى للبحث على (عنوان البحث، اسم الباحث أو الباحثين، عنوان الباحث أو الباحثين، جهة العمل، رقم الهاتف، والبريد الإلكتروني).
- ٦- تكون هوامش البحث في أسفل كل صفحة.
- ٧- يزود البحث بقائمة المصادر منفصلة عن الهوامش، وفي حال وجود مصادر أجنبية تكتب في ورقة خاصة.
- ٨- أن لا يكون البحث قد نشر في أي كتاب أو مجلة أو موقع إلكتروني.
- ٩- الأفكار التي ترد في الأبحاث تعبر عن رأي كاتبها.
- ١٠- لا تعاد الأبحاث إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
- ١١- ترسل الأبحاث على البريد الإلكتروني: (im.hu.qu@gmail.com) أو تسلم إلى سكرتير التحرير.



١ الافتتاحية

٢ تقديم الشخصية في القصة القرآنية

د. رياض الناصري جامعة بغداد - كلية الآداب

٣ التطرّف وأنواعه (قراءة تاريخية قرآنية)

سلام عبد الحسن / باحث إسلامي

٤ الإمام علي عليه السلام وعلاقته بالقرآن الكريم

أم مصطفى محمد / حافظة للقرآن وباحثة إسلامية (صنعاء - اليمن)

مقومات الإعلام الإسلامي (نظرة قرآنية (ق ٢))

الشيخ ضياء بلاسم المنصوري / باحث إسلامي

٧١

دلالة الإعجاز البياني على خلود القرآن الكريم

الشيخ حيدر ناصر الحلفي / باحث إسلامي

١٠٧

ما لا يمكن ترجمته من القرآن الكريم

أ.د. حسن منديل حسن العكيلي / كلية التربية للبنات - جامعة بغداد

١٣٧

أدب المبلغ في القرآن الكريم

د. الشيخ نعمة الحبيب / جامعة المصطفى العالمية

١٥٣

موقف الذكر الحكيم من عقيدة رؤية الله تعالى (ق ١)

الشيخ أحمد المحمداوي / باحث إسلامي

١٧٥

الإسرائيليات في التفسير (بدايتها، أسبابها، آثارها السلبية على التفسير)

د. فارس علي العامر / جامعة المصطفى العالمية

٢١٣

الرد على المستشرق (غيرد بوبن)

الشيخ أركان الخزعلي / ماجستير تفسير وعلوم القرآن

٢٣٧

علاقات الأمة بالقيادة الربانية داخل الكيان الإسلامي

د. منى عبد الأمير الخفاجي

٢٦٥



الافتتاحية

الحمد لله الذي أنزل القرآن نوراً وهدايةً والصلاة والسلام على رسوله ونبيه محمدٍ وعلى آله الطاهرين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾
يمثل القرآن الكريم قيمةً سماويةً للهيةً لهداية البشرية جمعاء، فهو يحمل في آياته مفاهيم غضةً تحاكي المجتمعات، وتواكب التطورات، وتتماشى مع المتغيرات.

ومن خصائصه المرونة والشمولية والواقعية والهداية لكل الناس، يبصرهم ويرشدهم للتي هي أقوم، ويقيم أود حياتهم دون أن نجد تغييراً في نصوصه، أو تبديلاً في مفرداته، أو اختلافاً في نظمه.

ورغم تراحم الدراسات البحثية وتعدد المدارس والاتجاهات النقدية، التي حاولت النيل من وحيانية النص القرآني وأحكامه وتعاليمه، إلا أنه واجه تلك الأعاصير ببيانٍ ساحرٍ وبمنطقٍ حكيمٍ، وبتعاليمٍ عصيةٍ على التغيير والاندراس، بل كان ولا زال يمثل لغزاً محيراً لجهاذة العلماء، وبحراً لا تنتهي معانيه، وجديداً لا يخلق عبر الزمان، لذا أمد القرآن الباحثين عبر القرون بمادةٍ بحثيةٍ غنيةٍ رغم المعتركات الفكرية والثقافية المتنوعة؛ فكانت الدراسات القرآنية المعمقة دليل صدق قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مِدَاداً﴾ الكهف: ١٠٩.





فكان القرآن معيناً علمياً وراعياً روحياً ومؤنساً ودواءً لداء القلوب، يتسابق العلماء إلى التنقيب عن معارفه والتأمل ببيئاته، وتدارس آياته، ففاز منهم من أوتي بعض علومه، وخاب من أعرض عنه وجعله خلف ظهره.

وإذا تصفّحنا التاريخ لا نجد كتاباً حظي بالبحث والتدريس والتحقيق مثل القرآن الكريم، ورغم ذلك لم تسجّل أيّ ملاحظة علميّة أو فنيّة عليه رغم وجود الدواعي لإضعافه.

وقد شمّر العلماء سواعد الجدّ والمثابرة في استثارة كنوزه واستنطاق ألفاظه وتدبّر آياته بما يساير مقتضيات الحياة المعاصرة، وقد تمثّلت هذه المساعي الحثيثة في الموسوعات التفسيرية والأبحاث والدراسات ذات الاتجاهات والمناهج المختلفة، وبشتّى المستويات العلمية.

ومن هنا يسرّ أسرة مجلة (صدى القرآن) أن تقدم للقراء الأعزّاء عددها الحادي عشر في حزمةٍ من الأبحاث القرآنيّة التي حاول الباحثون فيها تقديم فهم لكتاب الله يواكب متطلبات العصر ومستجدّاته، ورشد مسيرة الوعي القرآنيّ، ومعالجة التحديات التي تعصف بالأمة في المرحلة الراهنة، ودفع شبّهات المستشرقين في أبحاثٍ متنوّعةٍ تحاكي الدرجات الاجتماعية المختلفة وفق أصول علميّة ومنهجية، آملين أن يجد المتابعين للأبحاث القرآنيّة بغيتهم في العدد الماثل؛ ونسأله تعالى أن يوفّقنا لخدمة كتابه والسير على نهج النبي ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليه السلام إنه وليّ التوفيق.

مدير التحرير



تقديم الشخصية في القصة القرآنية

د. رياض الناصري
جامعة بغداد - كلية الآداب

المقدمة

الشخصية في القصة عنصر رئيس من عناصر بنائها، فهي التي تجترح الحدث الذي يؤثر هو بدوره فيها، فتتفاعل به أو تؤثر في مساره، في جدلية لا انفكاك لكليهما منها، بيد أن المقاربات النقدية لم تسعنا بتفصيل كامل بحيث يمكن لنا أن ندرس الشخصية في القصة أو الرواية عبره؛ إذ وقفت القراءات النقدية عند ظاهرة الشخصية الرئيسة والثانوية، والشخصية المسطحة، والشخصية المدوّرة أو الثابتة والنامية، وهي مقاربات عامة في أغلبها.

وتطمح هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الشخصية في القصة القرآنية، عبر النظر إلى طرق تقديم الشخصية فيها، فنقف عند تقديمها بوساطة الراوي، وتقديمها بوساطة الشخصيات الأخرى، وكذلك تقديم الشخصية لنفسها «التقديم غير المباشر»، وأخيراً نقف عند تقديم الشخصية بوساطة الراوي، ونفسها، والشخصيات الأخرى. الشخصية: وهي «أحد الأفراد الخياليين أو الواقعيين الذين تدور حولهم أحداث القصة»^(١)، لا تخلو منها رواية أو مسرحية أو قصة على الأغلب؛ فحتى الروايات التي تخلو من الشخصيات الإنسانية كروايات البراكين، أو الجبال، أو الزلزال، أو أي عنصر طبيعي عدت هذه الأشياء هي الشخصيات؛ فهي عنصر فاعل في تشكيل النص السردى، بوصفها «القوة المولدة للأحداث تؤثر فيها وتتأثر بها»^(٢)، فنجدها محوراً أساسياً لتوليد الأحداث وتحريكها، بغية تطويرها ونموها في النص السردى بفاعلية التأثير والتأثر، وقد تتغير مسيرة الأحداث تماشياً مع تحوّل أو تغيير

(١) معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، عدة مؤلفين: ٥١.

(٢) الكون الروائي، د. محمد صابر: ١٣٥.

مفاجئاً للشخصية كونها تمثل «جزءاً مكوناً وضرورياً لتلاحم السرد القصصي»^(٣).

وفي مفهوم علم النفس تعدّ الشخصية «تكاملاً الصفات الجسدية والخلقية المميّزة لفرد ما، بما في ذلك بناؤه الجسدي وسلوكه واهتماماته ومواقفه وقدراته وكفاءته»^(٤).

ولعلّ توظيف الشخصية في منحى قصصي يعدّ مهماً جداً، نظراً لما تتمتع به من دور في السرد من خلال مسميات ذات أبعاد دلالية قد لا توحى إلى ظاهرها فقط، بل تفضي إلى دلالات أعمق غوراً حين تسبغ عليها سمات رمزية أو ترسم ملامحها وتكشف هويتها، كما هي الحال مع النمل والهدهد، وغيرها من الحيوانات والطيور في القصص القرآني.

إن الغاية الرئيسة من سرد القصص القرآني هو فهم الأبعاد العميقة للحدث وللشخصية، اللذان يقفان على مسافة واحدة في تجسيد الموضوع المراد التعبير عنه بطريقة فنية قصصية، فأفضل ما نخرج به من قراءتنا إحدى القصص القرآنية هو فهم أبعاد الشخصية النبوية، وأبعاد الرسالة المنوطة بها وتعميقها، وعبر هذين الممرّين الرسول «الشخصية»، والرسالة «الحدث»؛ نقف على أبعاد الجانب الآخر المعارض بالشكل النقيض أو السليبي من كل ما يدعو إليه الأنبياء، وحتى مجيء شخصيات رمزية وعلامات دلالية مثل النبات والحيوان وحتى الجماد عند تشخيصه يصب في المجرى ذاته، من كشف أبعاد الشخصية النبوية وأبعاد الرسالة؛ ذلك لأن السرد «يحرك ما لا يتحرك

(٣) بنية الشكل الروائي،

د. محمد صابر ٢٠٩.

(٤) معجم علم النفس،

فاخر عاقل، مادة

(شخصية).

ويخلق عالمه من أشياء قد لا يكون لها صلة بالواقع»^(٥).

إن سرد القصص بغية تثبيت فؤاد الرسول على رسالته، ومده بأمثلة من معاناة الرسل والأنبياء ممن سبقه، جعل حضور الشخصية كمثال طاغية على العناصر الأخرى؛ ففي قصة بقرة بني إسرائيل ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَّانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شَيْءَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٦).

تبدأ القصة بأمر غريب وحدث عجيب، لم يدر بخلد بني إسرائيل: ذبح بقرة لأجل معرفة القاتل، هذا الحدث وما تبعه من ملاحظة بني إسرائيل في الكشف عن البقرة المطلوبة لذبحها، أმაط اللثام عن مستواهم الفكري والنفسي، ومدى تصوّرهم للحياة والكون وما بعد الحياة، وآليات اشتغال الأفكار عندهم ومدى تمسكهم بأعرافهم وتقاليدهم؛ بعيداً عن أي رؤية أو طروحات أخرى تتقاطع مع تصوراتهم عن الحياة والمصير.

(٥) ثلاثية الراووق،

الرؤية والبناء: قيس

كاظم الجناحي ١٠١.

(٦) البقرة: ٦٧-٧٣.

إن أفضل ما نخرج به من قراءتنا هذه القصة هو فهمنا شخصياتهم وأبعادها وما تتميز به من سمات، تقابلها شخصية موسى بما تكشف عنه القصة وربما الوحيدة في بابها من كياسة موسى وصبره وأناته.

ما يعني به سياق القصة هو الكشف عن أبعاد الشخصيات للطرفين، وهذا ما تحقق في هذه القصة بكل قوة ووضوح؛ عبر رمز مهم للشخصية هو البقرة.

الملاحظ على القصص القرآني في عرضه شخصيات سرده، أنه برغم هدف الشخصيات الواحد، وموقف المعارضين الواحد، فإننا نجد أن لكل شخصية حضورها المتفرد، وعلاقتنا نحن بها أيضاً علاقة متفردة؛ فاستجابتنا لدعوة إبراهيم هي غير استجابتنا لدعوة موسى، أو عيسى، أو يوسف، أو هود، أو لقمان، أو شعيب؛ فالبعد المكاني والأجواء الزمانية أو الفكرية أو الثقافية، تكاد تكون واحدة، إلا أن شخصيات هؤلاء الأنبياء متفردة.

فكان للأجواء المتفردة التي ترسمها لكل شخصية أثرها في خلق تفرد لها، عند من يعيش في مناخ ومحيط اجتماعي وثقافي يقدر -ربما قبل كل شيء- تفرد الذات والتعويل عليها في مواجهة صعاب الحياة والحروب والصحارى أو معطيات الحياة بعمومها. إن الشخصية في القصة القرآنية من الغنى ما يجعلنا عاجزين عن وضع صورة حقيقية لها، ولولا القدرة التعبيرية للجملة والآية السردية على رسم ملامح الشخصيات وأبعادها، لضاع منا وأغفل عنا الشيء الكثير من مقومات بنائها.

ولا يسعنا اكتشاف هذا الغنى والثراء إلا عبر مقارنة أولية؛ إذ أن للبعد الشخصي ومدى العمق الذي تجسده إحدى الشخصيات مراميها البعيدة في توصيل ما تريد أن تقوله القصة. إن الشخصية الرئيسة في القصة ترسم تميزها وتمنحه عبر العناصر الآتية:

١. تقديم الشخصية: الذي يتم عبر الراوي، أو الشخصية نفسها، أو شخصية أخرى، أو بالطرق الثلاث السابقة كلها.
٢. العناية التي تستأثر بها بعض الشخصيات «رئيسة أو ثانوية».
٣. العمق الشخصي الذي تجسده إحدى الشخصيات «الكثافة السيكولوجية».

إن أول ما يلفت انتباهنا لغنى الشخصية؛ هو تلك البدايات أو الاستهلال الذي يقدم به السرد أو الراوي «الشخصية»:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٧).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٨).

﴿وَإِلَى عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٩).

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ إِلِيمٍ﴾^(١٠).

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾^(١١).

(٧) الأنعام: ٧٤

(٨) الأعراف: ٥٩

(٩) الأعراف: ٦٥

(١٠) الأعراف: ٧٣

(١١) الأعراف: ٨٠

إن هذا التقديم / الاستهلال؛ يجعلنا شغوفين بمعرفة ما يجعلهم
مثيرين للإلتفات أو مميزين ممن سواهم، وهذا الشغف سيكون
البادرة الأولى للتعامل المتميز الذي يحيطه القارئ بالنص، ومن
ثم بالشخصية أو العكس.

إن إحدى مميزات القصة القرآنية وشخصياتها، هي قدرتها
على التفوق على الحياة الحقيقية، وذلك عبر قدرتها على اجتذابنا
إلى أعماق الناس ووعيهم المتحدث عنه، أو المنقولة صورته إلى
درجة أن بإمكان المتلقي أن يفهم إبراهيم أو نوحاً أو هوداً أو
صالحاً فهماً كاملاً، وكأنه على تماس معهم أو يعرفهم منذ أزمان
بعيدة ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ
إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا
تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا
ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ
تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ
وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ
يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مَلَّتَنَا قَالَ
أُولَئِكَ كَانُوا مِنْكُمْ أَغْثًا قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ
إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ
رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ

وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١٢﴾.

فهنا شعيب يحدث المتلقي لا قومه، فهو يخاطبه ويضع إصبع المداواة على جروحه وآفاته، ينقل لنا صورتنا؛ وكأنها ريشة فنّان تلتقط ما يشير انتباهنا فتبرز الصورة واضحة جليّة/الأدواء والدواء، الهدى والضلال، الإيمان والكفر، فخطابه ما زال طريقاً حياً حيويّاً فعلاً، يهتك بطرق الاعوجاج والزيغ، ويدل على المنهج والطريق الصحيح؛ يكشف عن ذات ملؤها:

«الإيمان» - ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾.

«والعدل» - ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

«الإصلاح» - ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

«الذوق» - ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ «طريق».

«الشكر» - ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكُثِرْكُمْ﴾.

«التخويف، وتخوفه على قومه» - ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُفْسِدِينَ﴾.

«الصبر» - ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾.

فهنا صورتان متقابلتان لشخصيتين نقيضتين في الرؤيا والاتجاه، صورة شعيب ومن معه في كل نقائهما، صلاحها، وصلابتها في موقفها، وصورة الذين كفروا من قومه، وكأنهم في

تساويهم في الرفض والكفر والمعتقد شيء واحد، فلم تبرز منهم شخصية تمثلهم، فكانوا كالبنيان المرصوص في موقفهم وكفرهم، وكأنهم كتلة واحدة؛ يشملهم الخطاب وكأنهم فرد واحد.

إن مشهد أهل الإيمان في قصة شعيب وقومه، ومشهد أهل الكفر، يُرسمان وكأنهما شريط سينمائي، نستمتع فيه ونرى ما يقال وما يفعل من كلا الطرفين؛ ذلك الرسم المقتدر هو الذي يجعل أخت موسى عالقة في أذهاننا؛ على الرغم من قصر المشهد الذي تظهر فيه، على طول قصة موسى وعرضها في أكثر من سورة وأكثر من موضوع وعبرة.

إن وجودها في المشهد له حضوره المستقل، كما لها شخصيتها المستقلة التي أثارت اهتمامنا، وأنبأت عن حصافة وعقل كبيرين، وحكمة في التعامل مع سلطان كادت أم موسى من فرقها منه أن تؤدي بوليدها خوفاً منه، فتهلك حياته لولا إحياء الرب لها، فكانت أخت موسى الصورة النقيض للأم؛ فغنى شخصيتها جعل المشهد كله شديد الغنى والعمق، يرسم صورة شخصية المجتمع بكليتها، بتقاليده، وأعرافه، وصور الخوف التي تحيط به؛ والذي تعيشه الأسرة ومن حولها، من فرعون وأعوانه:

(١٣) القصص: ١١١.

﴿وَقَالَتْ لِأَخِيهِ قِصِّهِ قِصْرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ﴾^(١٣) فجاءت تعبيرات مثل:

«قِصِّهِ» ← الترقب الحكيم والإصرار على التقصي.

«قِصْرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ» ← الحكمة في التخفي والحرص

على عدم معرفة أمرها.

«وهم لا يشعرون» ← يظهر قدرتها على تقدير الموقف، والابتعاد عما يثير الشبهات.

إن وجود شخصية أخت موسى في وسط هذا العنف والقسوة والجبروت أملى علينا الإحساس بأهمية الشخصية وعمق دورها في رسم المشهد السردي. فالذي يعلق بأذهاننا بعد القراءة «ليس تطور الحوادث وتعقدها بل الشخصية الإنسانية النابضة»^(١٤).

يشبه هذا الحضور للشخصية الثانوية الذي يكاد يوازي حضور الشخصية الرئيسة في القصة، فيرتفع بها أهمية الدور، وغنى الرسم المشهدي للشخصية وما حولها، دور الشخصية التي يلتقي بها البطل / موسى عرضاً وهو هارب من فرعون وأقرانه، التي ستكون زوجاً له مستقبلاً؛ فبرغم قصر ظهور هذه الشخصية وحضورها؛ لا تكاد تفارق الذاكرة، فما أن يذكر موسى / البطل حتى يُستحضر إلى الذهن ذكرى هذه الشخصية بحياتها، وصلابتها، وتوسمها الصادق في هذا الفتى / الشخصية؛ إنه القوي الأمين حينما تصفه لوالدها؛ الذي سيكون هو الآخر له حضوره الطاعني والمؤثر في حياة الشخصية / البطل، على الرغم من محدودية دوره في السرد القصصي، فيطمئن الشخصية / المغتربة ﴿قَالَ لَا نَخْفُفُ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١٥)، وما لذلك من أثر في نجاة موسى؛ إذ زوجته ابنته، وهياً له عملاً لمدة ثماني سنوات؛ وهنا يحضر الجدل النقدي حول مقولة الشخصية الرئيسة والبطل في المقاربات النقدية، التي لم تعد مقتنعة بتعميم المصطلح أو قصره على الشخصية الأكثر حضوراً في السرد؛ على وفق الفهم القائل: إن الشخصية الرئيسة في

(١٤) فن القصة، د. محمد

يوسف نجم: ٥٢.

(١٥) القصص: ٢٥.

القصة ليس من اللازم اللازب أن تكون هي البطل؛ ذلك أن كثيراً من الشخصيات الرئيسية وخاصة في رواية ما بعد الحداثة لم يكن لها ما يؤهلها لأن تكون بطلاً في الوقت الذي تكون فيه شخصية رئيسية؛ فقد تأتي الشخصية الرئيسية دون البطولة بكثير، فتأتي مشوّهة لا صورة لها ولا ملامح.

وهذا ما تؤكد حضور شخصية فرعون في قصة موسى؛ إذ تقدّم مثلاً شائعاً لفعالية عناصر التشخيص؛ ذلك أن شخصية فرعون/البطل المضاد لموسى، لا تكاد تظهر في قصة موسى إلا نادراً، بالرغم من أنها الشخصية المهيمنة على كل أطراف النزاع.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (١٦).

(١٦) القصص: ٣٨.

يبنى السرد شخصية فرعون بناءً ذاتياً؛ عبر تأطير موقفها وما تفوّت به، فيظهر محتواها الذهني وكأنها تتعامل مع وضع دستوري خلق لها فحسب، فلا يكاد يفقه شيئاً مما يدعو إليه موسى. فإذا يدعوهم وقومه إلى الإيمان؛ يأمر هامان ببناء برج في السماء لعله يطلع إلى إله موسى، مع اليقين التام عنده بأن موسى «كاذب»، وإن كان التعبير جاء بسياق الظن «أظنه كاذباً».

يمثل فرعون شخصية «رمزاً» لكل تسلط مبني على القوة، والنظر إلى الذات بقدسية بعيداً عن رؤية الآخر.

فهو لا يرى إلا نفسه ولا يحلم إلا بعظمتها، ولا ينفك ينظر بازدراء لمن حوله حتى أولئك الذين يبنون مجده، ويبنون قوته،

فيرا هم أشياء سهلة المنال، لا تمثل شيئاً ذا بال أو أهمية.

إن الغموض الذي اكتنف حياة فرعون، جاء بالمستوى نفسه على مستوى النص القصصي؛ فجاءت أبعاده القصصية تلمح لا تُصرّح، وتوحي أكثر مما تقول، فقدم لنا بوجه السلطة والقوة ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَتَقْتُلُنَ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (١٧).

هذه الصورة المقدمة للقوة والسلطة ستهافت بلحظة واحدة: ﴿فَاتَّقِمْنَا مِنْهُمُ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٨).

وكانهم حجر واحد أغرق أو رمي في البحر. وهكذا تكون الشخصيات المقدمة في القصة القرآنية مستحوذة على اهتمامنا بمستوى واحد، سواء الرئيسة فيها أم الثانوية، وكأن هذه تلك. هذه الشخصيات الرئيسة والثانوية، قدّمت بأدوات فنية قصصية، حرصنا على التوقف عندها، لنصل إلى ما يمكن الوصول إليه من بناها الفنية، عبر طرائق تقديم الشخصية التي تنحصر في طريقتين: الأولى: الإخبار: وفيها ترسم ملامح الشخصية من الخارج بصفاتها الجسمانية؛ كالمظهر الخارجي، والملابس، وعلاقاتها الاجتماعية، وتسمى هذه الطريقة بالمباشرة (١٩).

الثانية: الكشف: وفيها نجد الشخصية تكشف عن نفسها كأن يكون من خلال الحوار الخارجي، أو الحوار الداخلي الذي يأتي الخطاب فيه بدون سامع على شكل تيار من المشاعر ينثال من داخل

(١٧) الأعراف: ١٢٧.

(١٨) الأعراف: ١٣٦.

(١٩) ينظر: فن القصة،

د. محمد يوسف نجم: ٩٨.

الذات فـ «تبدو الشخصية كأنها في حوار صامت مع ذاتها: أو مع شخصية غير مرئية»^(٢٠)، ويطلق على هذه الطريقة تعبير «غير المباشرة».

وقد تشترك الطريقتان في تقديم الشخصية، من خلال رسم ملامحها الخارجية والداخلية؛ كأن نجد وصفاً لملابس الشخصية، وبنيتها الجسمانية، وتصرفاتها؛ كما نجد وصفاً لما يعمل في داخلها من مشاعر وأفكار.

أولاً: تقديم الشخصية

١. تقديم الشخصية بوساطة الراوي

تبدأ قصة يوسف بسرد الراوي «الشخصية» لأبيه ما رآه في منامه، ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(٢١).

هذه الرؤيا التي سُبِنى عليها أحداث القصة وسيكون لها أكبر الأثر في تقديم الأحداث والشخصيات؛ بدأت بالنداء في الآية مع كون المنادى حاضراً «قصداً للاهتمام بالخبر الذي سيلقى إلى المخاطب «المروي له» فينزل المخاطب منزلة الغائب المطلوب حضوره، وهو كناية عن الاهتمام أو استعاره له»^(٢٢)، ونلاحظ فيها دهشة السارد وتعجبه من هذه الرؤيا التي يبحث عن حلٍ لمضمونها لتحل الطمأنينة محل الإدهاش والذي سيؤكده الراوي العليم بأن يوسف هو آية للسائلين مثلما هو حال إخوته ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ﴾^(٢٣).

وهو ما ينبئ عن نباهة الشخصية المتحدث عنها وعلو شأنها،

(٢٠) ثلاثية الراوي،

الرؤية والبناء: قيس كاظم
الجنابي ١٠٦.

(٢١) يوسف: ٤.

(٢٢) بنية النص السردى

من منظور النقد

الأدبي: د. حميد

الحمداني ٥٠.

(٢٣) يوسف: ٧.

والتي سيجري الكشف عنها عبر مستويات عدة؛ فتتساقق إرهابات نهايتها بحدثٍ بعد حدثٍ، بتقديم فنيٍّ يمتاز بقدرته على إدراج الشخصية في سياقها الاجتماعي، والتاريخي، والديني؛ إذ يمنحها خصوصيتها النفسية، والفكرية، والسلوكية، والجسدية؛ عبر الرؤيا والوحي ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٤).

فهذا الوحي لا يكون إلا لمن خُصَّ بالمكانة الرفيعة والمهمة الكبرى؛ وهو وحي قد يكون إلهاماً ربانياً أُلقي في نفس يوسف حين كاده إخوته، بحثاً عن تسليته من كربته الذي أحاطوه به، أو وحيٍّ بوساطة ملك على ما جاء في الآية الكريمة ﴿وَمَا كَانَ لَبِشْرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ (٢٥).

وهو في تلك الآيات يبرز لنا شخصية فيها من البساطة والعجز عن الدفع عن الذات الكثير، تقابلها صورة الرعاية الإلهية وتمكين الأسباب للنجاة والنجاح، بإمداد روعي، وكأنَّ هذا الوحي هو تشجيع ذاتي على احتمال المصائب، وعدم الإصابة باليأس، وتوطين الذات على المصاعب واحتمال الآلام، ودفع السيئات بالحسنات، فخط العذاب والنجاة يسير باتجاه واحد:

كيد الأخوة «جعله في غيابة الجُبِّ» ← إنقاذ السَّيارة له ← بيعه بثمن بخس ← إكرام المشتري له إلى درجة «اتخاذه ولداً».

(٢٤) يوسف: ١٥.

(٢٥) الشورى: ٥١.

هذا التقلب بين المحن، والنجاة منها، يعلِّله الراوي / الإله بـ
﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ
وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦).

بعد رحلة الكيد والنجاة، نلتقي بشخصية يوسف وهو فتى؛ فقد
قدّمه لنا الراوي بما يفاجئنا ويجعلنا نستشعر ما ستكون عليه شخصيته
من اختلاف، بعد رحلة الضعف والقهر، فها هو ذا قويٌّ عليمٌ حكيمٌ:
﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٧).
فالأشدُّ أو القوة، تردفها الحكمة، أو النبوة المبنية على العلم، الذي
جاء نكرة «علماً»، وكأنه علم مفتوح المصدر، أو أنه علم الرؤيا، كما
سنلتقي مع تفسير رؤياه في نهاية القصة؛ فهو جزء من «العلوم».

يظل الراوي يتحرى الكشف الآن عن أبعاد شخصية «يوسف»،
القوي، الحكيم، العليم؛ بشكل مقنع ومعتمق؛ فبعد أن تراوده
المرأة التي هو في بيتها عن نفسه، يهم بأن يضربها ردعاً لها، غير
أنه وكعادة الأذكياء يبصرون الأمر بلمح البصر، فيكف عن ذلك،
حتى لا يكون دليلاً على محاولة إجبارها لاقتراف السوء ﴿كَذَلِكَ
لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٨).

سوء الذكر وفحشاء القول فيه، وهو ما لا يرتضيه نبي، تساق
سيرته وشخصيته لتضرب مثلاً في الصبر والعفة؛ فالراوي لا يخفي
وقوفه مع الشخصية، ولا نسبتها إليه ﴿إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.
فبعد أن تستمر المرأة ونسوة المدينة بمكرهن، ويُخير بين
الإقدام على اقتراف الفاحشة أو السجن؛ ويحبذ السجن على أن
يفعل ما يدعونه إليه، يخبرنا الراوي أنه صرف عنه كيدهن، وهنا

(٢٦) يوسف: ٢١.

(٢٧) يوسف: ٢٢.

(٢٨) يوسف: ٢٤.

يظهر الراوي مرة أخرى هو حبل النجاة في كل ما تمرُّ به الشخصية من أزمات.

يسجن يوسف ويكون تفسير «رؤيا» الملك هو باب الحياة، وتكشف أوراق النسوة والمرأة، ويُبرأ يوسف، ويستخلصه الملك لنفسه، ويجعله على خزائن الأرض، وهنا نلتقي مع الراوي «الإله» وهو يقدم لنا صورة جديدة ليوسف ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ (٢٩).

وهي صورة جديدة بعد الضعف والقهر، حيث العزة والمنعة، لا يقهر ولا يمنع من أن يكون في أي مكان من أرض مصر.

ينتقل بنا الراوي لكشف شخصية يوسف عبر خصائص، وسلوكيات، ومظاهر سردية جديدة: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (٣٠).

هنا تتجلى مقدرة يوسف، وقوة ملاحظته، فالسنين الطويلة من الألم والمصاعب والشدائد، وبرغم أنه فارق إخوته وهو صبي، فما أن يراهم حتى عرفهم وهم له منكرون، وهذا من الفطنة والذكاء وقوة الحدس. وفي الآية «٥٩» نلتقي مع صورة جديدة لشخصية يوسف، يقدمها لنا الراوي عبر رسم ذاكرة يوسف التي لا تنسى الآخرين ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ﴾ (٣١).

ويحرص على أن يأتيه به ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ (٣٢).

يعقب الراوي بتقديم جوانب أخرى مهمّة من شخصية يوسف، تكشف طباعها، وأهواءها، وإخلاصها، وحنوها ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى

(٢٩) يوسف: ٥٦.

(٣٠) يوسف: ٥٨.

(٣١) يوسف: ٥٩.

(٣٢) يوسف: ٦٠.

يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبَشِّرْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

فما أن يرى أخاه حتى يقربه إليه، ويخبره الخبر الذي يسره،
ويطمئنه على حياته؛ ويكشف هذا عن عمق مشاعر يوسف ونبل
أحاسيسه وحفظه للمودة والإخاء رغم قهر السنين الطويلة.

وعلى المنوال نفسه سيقدم لنا الراوي شخصية يوسف بمواقف عدة:

- ١- مواجهة السارق بقوانين غير قوانين الملك: «الآية ٧٦».
- ٢- إضمار الغضب؛ بعد أن نسب له إخوته السرقة: «الآية ٧٧».
- ٣- تحقيق العدل في معاقبة الجاني؛ ولا يجوز وقوع العقاب
على غيره: «الآية ٧٩».

٤- لهجة اللين التي تعقبها المسامحة: «الآية ٨٩».

٥- الشكر لله على ما منّ عليه وعلى أخيه: «الآية ٩٠».

٦- العفو النهائي وطلب المغفرة لإخوته: «الآية ٩٢».

٧- العلم بأسباب شفاء الأب: «الآية ٩٣».

٨- إغداق الأمن على أهله حين دخلوا عليه: «الآية ٩٩».

٩- جمع العظمة، والعلم، والشكر، والمسامحة، والإيمان بلطف

الله: «الآية ١٠٠-١٠١».

(٣٣) يوسف: ٦٩.

إن ما يميّز تقديم شخصية يوسف في هذه الصورة، هو التدرّج
بها من محطة إلى أخرى، فرسم لنا الأجواء النفسية التي تحيط
بطفولة يوسف؛ من حقد إخوته، وحسدهم، وكراهيتهم له، إلى
المؤامرة ورميه في الجب، إلى حالة الرّق والبيع بسوق العبيد، إلى
أن وصل إلى المكان الذي يقدّم له الرعاية والحنان من جهة،

ويحاول أن يغويه إلى ما لا يتوافق مع طبيعته من جهة أخرى، إلى الرمي في السجن ثانية ثم الخروج منه، والوصول إلى أماكن العز، والغنى، والاستقرار، إلى أن التقى بأهله وجُمع الشمل، فتحققت أسباب السعادة بقاء أبويه وإخوته؛ ورسوخ الإيمان في نفسه بعد تأويل الرؤيا، والعيش بنفس ملؤها السماح والغفران.

وهكذا لم تقدّم لنا شخصية يوسف ببضعة أسطر بتسلسل تقريرى وحسب، بل تنقلنا معها من محطة إلى أخرى، ولم تكن معرفة الراوي «الإله» معرفة جامدة، بل مليئة بالحيوية، وتعرف ما تلتقط من القصة، لتعرضها وكأنها لوحة واقعية رسمت بالكلمات. قدّمت شخصية يوسف بما يقترب من حالة التفرد في جميع خصائصها، وصفاتها، أو ربما يمكننا القول أن ليس كمثلها إنسان.

٢. تقديم الشخصية بوساطة الشخصيات الأخرى

تقديم شخصية يوسف في سورة يوسف تشكّل لحمة القصة، وموضوعها الأساس، فبناء الحدث، وبناء الشخصية، يطمح كله إلى تقديم هذه الشخصية، وهي الشخصية المركزية في القصة في محاولة للكشف عن جوانبها المختلفة؛ فالتقديم بكل أشكاله ينصب هنا على شخصية يوسف، كما لاحظنا في تقديم الراوي لها؛ وما سنراه هنا من تقديم الشخصيات الأخرى لها؛ إذ نلتقي في أول وصف من الآخر ليوسف، عبر تحذير يعقوب له من قص رؤياه على إخوته، فنجدّه يبدأ بالتحذير الذي ينبئ عن فرط الرقة والحنان اللذين يحيط بهما يوسف، فيبدأ خطابه له بـ «يا بني».

وتشفُّ الآية عن سلامة نية يوسف، وصغره، وقلة خبرته وتجربته في الحياة.

وتنم على إحساس والد يوسف بحسد إخوته له، وخوفه عليه من كيدهم؛ وبحنان الأب وفطنته، يحيل هذا الكيد على الشيطان، كي لا يوغر صدر يوسف على إخوته.

ويقدِّم أخوة يوسف في الآية الثامنة؛ صورة يوسف عند أبيه وعندهم ﴿إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى آبَانَا مِنْهُمَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٤).

فهنا تتنافس صورتا الحب والكراهة، في تصوير محيط يوسف وتنشئته الأولى، هي صورة ترسم يوسف وتقدِّمه في مشهد هو غائب عنه، إذ يتناجى الإخوة فيما بينهم ليخرجوا من محنتهم النفسية التي سببها لهم يوسف، بخُلُقِه وأخلاقه وحب أبيه له.

(٣٤) يوسف: ٨.

(٣٥) يوسف: ٢٠.

وكانت وسيلة تقديم هذا المحيط الذي يعيشه يوسف، هو حوار الإخوة الذي نسب لهم هذا القول بصورة جماعية؛ فلم يتناقل الحديث من واحد إلى آخر، وإنما خرج صوت الجماعة وكأنه صوت فرد واحد، وهذا دليل على توافقهم النفسي جميعاً وإحساسهم بخطورة موقفهم إزاءه؛ فأقدموا على فعلتهم.

وقدِّمت السيارة هذا الحدث، فيوسف في الحب، وواردهم يبشِّرهم بالعثور على غلام، سيكون بضاعة تباع بأرخص الأثمان ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (٣٥).
تقدِّم النسوة في المدينة حضوراً جديداً ليوسف، حين يذكرن امرأة العزيز بتعجبٍ من فعلتها، وسلوكها، وشغفها بفتاها؛ فإذا هو

فتى، بلغ هيام امرأة العزيز به حدّ شقّ شغاف القلب، وهو ما ينكرنه عليها ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٣٦)، وما لبثت حتى كادتهن، وقدّمت لنا يوسف بكيدها بصورة جديدة، ترسمها النسوة اللاتي خطأنها بسلوكها؛ وقد أضفى موقفهن النظري هذا، وما سيقمن به من تقطيع أيديهن حين يرين يوسف، إحساساً عميقاً بجمال يوسف وهيبته وأنه بمواصفات دهشن لها حتى حسبه ملكاً وليس بشراً؛ نستمع لقولهن ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾^(٣٧)، وكأنهن جوقة إنشاد يرددن بصوت واحد هذا القول، أو كأنه حوار داخلي «مونولوج» قالته كل منهن لنفسها وبزمن واحد.

وهنا في هذا المشهد سواء أكان حواراً بينهما أم قولاً صدر عن دهش، أم حواراً داخلياً حضر في أنفسهن، فإن يوسف لم يشترك بهذا الموضوع؛ وكأنه لا يحس أو لا يشعر بهن.

لم ترعو امرأة العزيز وشجّعها فعل النسوة على المغالاة في ملاحظته، فيقدّمن لنا منه صورة «جديدة قديمة» هي عفته وصلابته في موقفه، وحفظه للأمانة التي خولها إياه عزيز مصر؛ فلما عرضن عليه ما يردن منه، وخيّرته بين فعل الفاحشة أو السجن، «اختار السجن»، وهنا رسم لنا الراوي مؤطر النص موقفاً، ورسم لنفسه إكباراً لا نكاد نعثر عليه في قصة أو رواية؛ وهو تقديم سجّل جزءاً من صورته الرئيسة التي ستلاحق مشاهدنا لوحة بعد لوحة.

في رؤيا الفتيين اللذين دخلا السجن مع يوسف، سيكون لنا تقديم آخر يقدمانه ليوسف، فبعد أن يروي كل منهما رؤياه ليوسف، ثم يطلبان منه تأويل الرؤيا، ينصّان بكلمة تقدّم لنا

(٣٦) يوسف: ٣٠.

(٣٧) يوسف: ٣١.

يوسف برؤيا جديدة ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ فهذا الحكم لا بد له من مقدمات، سلكها يوسف في السجن مع هذين الفتيين أو مع سواهما، ولكنه يدل على حسن السلوك، ومفارقه لما هو متعارف عليه من أوضاع الناس في السجن، فكان سلوكه خارج المألوف، حتى دخل في نظرهما في سلك «المحسنين».

لم يكتف هذان الفتيان بتقديم صورة المحسن ليوسف، بل سيقدمانه لنا بصورة أخرى، فحين يرسل الملك أحدهما لتفسير رؤياه يخاطبه بـ ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾، والصديق التي أصلها صفة مبالغة مشتقة من الصدق، لقب جامع لمعاني الكمال والاستقامة، وهي لا تطلق إلا على من قوي صدقه في الوفاء لقضايا الناس والدين.

يكشف لنا ما تقدّم من وصف صاحبي السجن إحسان يوسف وصدقه، فضلاً عن علمه بتفسير الرؤيا، ومقدرته على البصر بالأمور عبر إرهاصات الإنسان، وعمق تحسسه لقضاياها الخاصة والعامة.

صفات قدّمها لنا الآخرون ليوسف، توجت بحصوله على منصب إدارة أمور الدولة المالية، وشؤونها الاقتصادية ونجاحه بها، وهي صورة أخرى له، تنمّ على علو كعبه في فن الإدارة القائمة على «الإحسان والصدق والعلم».

وهي صورة بالعكس من صور التقديم السابقة، جاءت بحضور يوسف، وتحت سمعه وبصره؛ فالثناء المرفق معه الإجلال، لا يتأتى إلا لمن اكتملت به الصفات وكان لا غبار ولا شائبة عليها أبداً، لشخصية هي مودعة في السجن وليست في السلطة كي يتملقها الناس، بغية الحصول على مردود آني أو في المستقبل.

لا ينفك إخوة يوسف يقدمون لنا صورة من صور يوسف،
تصب في الاتجاه ذاته من سلوكيات وأخلاقيات، ترسمها لنا
شخصيته القصصية، المتكئة على سبق تاريخي وواقعي، ففي الآية
﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ
وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ...﴾^(٣٨).

هنا تظهر لنا هذه الواقعة كياسة يوسف، وحلمه، وتأنيه في
تأويل الأحداث وانكشاف الحقائق. فلم تحمله صورتهم في
داخله أن يبيدي لهم ما يسوؤهم، وإنما أسر في نفسه تلك الصورة
﴿...قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾^(٣٩)؛ برغم أن له من
السلطان ما يمكنه من القول، وتنفيذ العقوبة والردع والرد.

هذه الأخلاقيات التي ستوصلهم إلى الإقرار والكشف عن
صورة يوسف النهائية معهم ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ
كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾^(٤٠)، هذا الإيثار له ظلاله الروحية والتصويرية، في
رسم صورة يوسف من قبل شخصيات أخرى كانت معادية
ومناوئة، أكثر منها مصاحبة أو معاونة.

قدّمت شخصية «إبراهيم»، وهو فتى مليء بالحيوية، والنشاط،
والإيمان، يحاور ويصول، يستنكر على قومه عبادتهم للتماثيل،
ويرميهم وأهاليهم بالضلال، ويقسم على أن يكيد هذه الأصنام
التي يعبدونها بعد أن يؤلّوا عنها، ويحقق ما أوعد، فجعلها جذاذاً
إلا كبيراً لهم؛ لعلهم إليه يرجعون ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ
لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾^(٤١).

قدّم لنا شعيب أمام قومه، وكأنهم أكثر قوة منه وأمضى في

(٣٨) يوسف: ٧٧.

(٣٩) يوسف: ٧٧.

(٤٠) يوسف: ٩١.

(٤١) الأنبياء: ٥٩-٦٠.

التحقيق لما يريدون، وأنهم أكثر تحكماً في مجريات الأمور ﴿قَالَ
الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَارِهِينَ﴾ (٤٢).

لا يستجيب لهم شعيب ويرفض ما عرضه عليه، ولكن لا ينجيه
منهم سوى الدعاء إلى ربه أن ينجيه منهم ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ
قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (٤٣).

جاءت صورة نوح من قومه رجلاً على ضلال كبير ﴿قَالَ الْمَلَأُ
مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٤٤).

ولا يوقف هذه الصورة إلا بالدفاع عن نفسه؛ حيث قال لهم:
﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٥) فوصفوا
أتباعه بـ«بادي الرأي» أي: ما اتبعوك إلا لضعف عقولهم، وانحطاط
رأيهم؛ فدفعوا عنهم كل شرف وكمال، وكأنهم بذلك يرفعون
أنفسهم بتصغير شأن من يقابلهم.

ومن مثل هذه المدافعات بالحوار والمرافعات، تُقدّم لنا صورة
نوح عبر تصوير موقفه، وموقف قومه، فيقدم أحدهم الآخر في
بنائه الاجتماعي، والشخصي، والعائدي.

٣. تقديم الشخصية لنفسها «التقديم غير المباشر»

يقدم يوسف لنا نفسه كشخصية متفردة بطريقة عجابية؛ في
بدء رحلة سرد حكايته، فنلقاه يقص رؤياه لأبيه ﴿...يَا أَبَتِ إِنِّي
رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (٤٦)،
فكانه بذلك يقدم لنا تمهيداً لصياغة أحداث حياته بنفسه عبر سرد
رؤيا فيها من الغموض والإدهاش، ما يحفز مخيلة المتلقي

(٤٢) الأعراف: ٨٨.

(٤٣) الأعراف: ٨٩.

(٤٤) الأعراف: ٦٠.

(٤٥) الأعراف: ٦١.

(٤٦) يوسف: ٤.

صوب التكهّن بمواجهة أحداث في حياة الشخصية غير مألوفة،
ولا تكاد تتكرر.

وتتلاحق تلك الأحداث على ما قدمه لنا الراوي في المبحث
السابق؛ ونلتقي مع الحدث الأبرز في حياته وهو مراودة امرأة
العزیز له؛ ويقدم لنا يوسف هنا نفسه، ذلك الفتى المتماسك نفسياً،
القوي، والأمين، والخائف من ربه:

«وراودته التي هو في بيتها عن نفسه»



«وغلقت الأبواب وقالت هيت لك»



«قال معاذ الله» ← «التحصن بالذكر»



«إنه ربي أحسن مثواي» ← «الإخلاص لسيد الدار والعمل»



«إنه لا يفلح الظالمون» ← «وضوح الرؤيا» ← «فعل الفاحشة

ظلم».

إن اقتصر هذا الحدث على الكشف عن هذا الجانب من
شخصية «يوسف»، وهو في موقف الثنائية المتضادة «الضعف -
القوة»؛ الضعف الاجتماعي فهو تابع للعزیز وامراته؛ والقوي ذاتاً
فهو ابن نبي وذو إيمان قوي؛ فإن صورة أخرى سوف يرسمها
لنفسه في موقف آخر مع إخوته، تكون الصورة معكوسة فيها هو
القوي والآخر ضعيفاً؛ بيد أن يوسف يبقى هو هو؛ على صلابته،

وحلمه، ووفائه، وصدقه؛ يدخل عليه إخوته يستعطفونه، ويشرحون له حالهم وما هم عليه من الضر، ويسألونه وفاء الكيل والتصدق عليهم؛ فما كان منه إلا أن يفرغ عن نفسه بلغة سمحة، تظهر العفو والحنان ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفُ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾^(٤٧) وربما كانت هذه اللهجة التي تنم عن لين وتسامح، هي التي حملت إخوته على الاعتراف أخيراً بإيثار الله له عليهم، وإنهم كانوا خاطئين بحقه. وبعد أن لمسوا منه عمق الإيمان، وبالإحساس العميق بالفضل الإلهي عليه:

﴿قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ، قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾:

﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ← «ذكر الفضل».

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤٨)

← «عمق الإيمان».

وهنا ترسم الصورة الإيجابية للنفس، مقابل الصورة السلبية لإخوته.

ظهرت صورة يوسف لنا باشتغال الآخر بها، وتقديمه لها أكثر من تقديمها هي نفسها، ف«الراوي - الآخر - فعلها - علاقاتها بالآخرين»، كانت هي الأكثر حضوراً في تقديم شخصية يوسف. فيوسف بثقله الشخصي يمثل حركة سردية متدفقة؛ ينفعل بها الآخرون ويتأثرون، ويُقدِّمون على أفعال أو كلام يقدم يوسف شخصية متماسكة، تقود السرد بتقنياته باتجاه بنائها ﴿قَالَ هِيَ رَأَوْدَتْنِي عَنْ نَفْسِي...﴾^(٤٩).

﴿قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ...﴾^(٥٠).

(٤٧) يوسف: ٨٩.

(٤٨) يوسف: ١٩.

(٤٩) يوسف: ٢٦.

(٥٠) يوسف: ٣٣.

فهذا الكشف عن شخصية يوسف تم عبر العلاقة مع الآخر؛ وفي حوار آخر مع صاحبي السجن، قال:

١. ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾.
٢. ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾.
٣. ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٥١).

فالآخر في حياة يوسف وبناء شخصيته دائم الحضور، بدأ من طفولته وإحساس إخوته بخطر وجوده بين ظهراينهم، ومع السيارة وحياة البئر، ومع العزيز وأهله، وفي السجن، ومع الملك، ومع إخوته وهو في السلطة، ومع أبويه إذ يلتقيان به ويخرون له سُجْدًا؛ فالآخر ملازم حتى لذاكرته وليس لحياته فحسب ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، وفي علاقته العبادية مع الإله ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٥٢).

وتتلخص أهمية هذا الأسلوب، فيما تكشفه الشخصية المقدّمة عن نفسها من معلومات مهمة عنها، وعن المحيط الاجتماعي والفكري الذي تعيش وسطه؛ فقد عرفنا العمق الفكري الذي عليه الشخصية، وضحالة وبساطة أفكار من حوله من أعداء؛ وهو بذلك رسم الجو العقائدي العام الذي يسود هذه الفترة.

وكان لتناسق البدء مع الخاتمة أثره في تعميق وجود الشخصية الفكري، فقد ابتدأت الحكاية بـ: «الإنذار» الذي كان ارهاصاً لتحقيق خاتمة تتوافق مع هذه المقدمة، لتنتهي الحكاية بدعاء نوح لربه: ﴿وَلَا تَرِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ (٥٣).

(٥١) يوسف: ٣٧.

(٥٢) يوسف: ٣٨.

(٥٣) نوح: ٢٨.

وهو دعاء لم يتم إلا بعد أن استنفد كل سبل الإصلاح، وبعد أن استيأس منهم، فكان دعاءً متوافقاً مع شخصية نوح المؤمنة بالصلاح والتقوى، فلا بد من الدعاء على من لا يريد هما، فكان الدعاء من جنس العمل، ومتوافقاً مع الإنذار الذي ابتدأهم به؛ فكان خط سير إبانة شخصيته يتمثل بـ: الإنذار ← علل الإنذار ← كفر المدعويين ← التلخيص لمسيرة الدعوة ← توثيق عدم الإجابة ← الدعوة بالهلاك.

فابتدأت الدعوة بالإنذار وانتهت بالهلاك.

٤. تقديم الشخصية بالراوي ونفسها والشخصيات الأخرى
يقدم لنا الراوي أغلب الشخصيات القصصية، عن طريق الإخبار عنها بفعل أو قول؛ ولا يكاد يخلو تقديم للشخصية من «قال» الدالة على تأطير محتوى تعبيرى، يعرض أفكار الشخصية وسلوكها ومعتقداتها؛ بعدها يترك الشخصية لتقدم نفسها، خاصة في أسلوب العرض.

(٥٤) الأنعام: ٧٤.

يعود بعدها الراوي ليلقي ملامح أو إضاءات، ربما لا يمكن تلمسها مما هو معروض سهلاً؛ فتأتي الإضاءة أو التعليق نبراً دلالياً يكشف المعنى المستخلص من المشهد، أو يلوح برؤى جديدة ولكنها متساوقة مع المطروح؛ ففي قصة إبراهيم مع أبيه، يبدأ الراوي بسرد الحكاية بـ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٥٤).

قدم الراوي الشخصية هنا بـ: «قال» وبعدها نقل حوار إبراهيم مع أبيه؛ بما يكشف عن عقيدة إبراهيم المخالفة لعقيدة أبيه وقومه؛

بعدها يسوق الراوي أحداثاً، تقدّم إبراهيم بصورة أخرى، هي صورة الباحث عن الحقيقة في الكون، من أجل اليقين في ذاته ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^(٥٥).

بعدها يتبادل الراوي والشخصية الكشف عن أبعادها: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ لَا أَحَبُّ الْأَفْلِينَ﴾^(٥٦)، كذلك في: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾^(٥٧).

وفي الآية بعدها يبقى الراوي يقدم لكل قول صدر عن إبراهيم بـ: «قال» وهو تأطير للآية «الواحدة» تنقل عن إبراهيم موقفه في «قولين»، وكان الراوي حريصاً على أن يكون لكل قول تكلم به إبراهيم دوره الخاص في الكشف عن أبعاد موقفه، ولم يجعل للقول الأول المكانة الأولى في التعبير، ليضم ما بعدها إليها ويكون تابعاً لها، بل جاء كل قول مستقلاً بنفسه، ليستقل من ثم بدلالته وعمق تأثيره؛ يترك الراوي بعدها الشخصية تكشف عبر سردها الذاتي عن وحدتها، من دون أي تقديم ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٥٨).

تدخل الشخصيات الأخرى في موقف يقدم لنا الشخصية الرئيسية في منتهى اليقين، حيث يحاجونه في موقفه العقائدي ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾^(٥٩).

يقدم لنا إبراهيم نفسه في الآية بعدها في حال من عدم الخوف من آلهة قومه، ويقارن نفسه بهم؛ فهم الذين لا يخافون الله بالإشراك

(٥٥) الأنعام: ٧٥.

(٥٦) الأنعام: ٧٦.

(٥٧) الأنعام: ٧٧.

(٥٨) الأنعام: ٧٩.

(٥٩) الإنعام: ٨٠.

به مَنْ هو دونه، ويتوقعون أن يشرك إبراهيم خوفاً من آلهتهم؛
ويتساءل معهم، ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ﴾^(٦٠).

لتأتي الآية بعدها يتماهي فيها قول الراوي العليم بقول الراوي
الشخصية «إبراهيم»، لتكشف بعداً آخر من شخصيته وعقيدته
﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ
مُهْتَدُونَ﴾^(٦١).

يعلق الراوي بعدها على الأحداث التي تضمنتها حكاية
إبراهيم، مقدماً لنا إبراهيم رفيع الدرجات بالعلم: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا
ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾؛ وليسوق حكماً
موافقاً لسياق الآية الدالة على علم إبراهيم لربطه بعلم الراوي ﴿إِنَّ
رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾^(٦٢).

(٦٠) الأنعام: ٨١.

(٦١) الأنعام: ٨٢.

(٦٢) الأنعام: ٨٣.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي، وهبة، كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط ٢، ١٩٨٤م.
- بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤م.
- بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، د. حميد الحمداني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٣، ٢٠٠٠م.
- معجم علم النفس، فاخر عاقل، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧١م.
- ثلاثية الراووق، الرؤية والبناء، قيس كاظم الجنابي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط ١، ٢٠٠٠م.
- فن القصة، د. محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٥٦م.
- الكون الروائي، د. محمد صابر عبيد، د. سوسن البياتي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٧م.

التطُّرف وأنواعه

قراءة تاريخية قرآنية

سلام عبد الحسن
باحث إسلامي

المقدمة

من خلال إلقاء نظرة على آيات القرآن الكريم نجد أن ظاهرة التطرف ليست نشاطاً بشرياً طارئاً أو ظاهرة مفاجئة.

بل قديمة قدم الإنسان، فلم يخل زمن من الأزمان أو عصر من العصور من شذوذ في تصرفات الناس وسلوكهم فرداً كان أم جماعةً.

بل وجد من يتمرد على المجتمع الذي يعيش فيه، وذلك بالخروج على نظمه وقوانينه لأسباب وأهداف متعددة تسوّغ لهم ما يقولون وما يفعلون.

لذا نجد أن هذه الظاهرة عاشت في أقدم الحضارات في العالم وحتى الآن منذ أقدم حادثة متطرفة ظهرت على وجه الأرض بين ابني آدم عليه السلام قابيل وهابيل كما يذكر القرآن الكريم وإلى وقتنا الحاضر وستبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها. فهذه الظاهرة وجدت في أقدم المجتمعات البشرية وأغرق الحضارات وليست وليدة اليوم لكي يتهم الإسلام بالتطرف.

التطرُّف لغة:

الطرف في اللغة له أصلان: الأوَّل: يدلُّ على حدِّ الشيء وحرفه.

والثاني: يدلُّ على حركةٍ في بعض الأعضاء. فالأوَّل طَرَفُ الشيء والثوب والحائط. ويقال ناقةٌ طَرِفةٌ: ترعى أطرافَ المرعى ولا تختلط بالنوق.

وأما الأصل الآخر فالطَّرَف، وهو تحريك الجفون في النظر. هذا هو الأصل ثم يسمون العين الطرف مجازاً^(١).

وقوله سبحانه: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾^(٢) عبارة عن إغصائهن لعفتهن.

وقوله: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا﴾^(٣) فتخصيص قطع الطرف من حيث أن تنقيص طرف الشيء يتوصل به إلى توهينه وإزالته، ولذلك قال: ﴿نَنْقِصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾^(٤) بمعنى الأجسام^(٥).

أذن التطرُّف في اللغة معناه: الوقوف في الطرف، فهو يقابل التوسط والاعتدال، وبهذا يصدق على التسيب كما يصدق على المغالاة، ويتنظم في سلوكه الإفراط والتفريط على حد سواء، لأن في كل منهما جنوحاً إلى الطرف وبعداً عن الوسط.

وبذلك يستخدم للدلالة على كل ما يناقض الاعتدال، زيادة أو نقصاناً.

التطرُّف اصطلاحاً:

يعدُّ مفهوم التطرُّف من المفاهيم التي يصعب تحديدها أو إطلاق تعميمات بشأنها، نظراً إلى ما يشير إليه المعنى اللغوي

(١) معجم مقاييس

اللغة، ابن فارس، كتاب

الطاء، مادة طرف، ج

٣، ص ٤٤٧.

(٢) سورة الرحمن ٥٦.

(٣) سورة آل عمران

١٢٧.

(٤) سورة الرعد ٤١.

(٥) مفردات ألفاظ

القرآن، الأصفهاني:

ج ٢، ص ٢٣.

للتطُّرف من تجاوز لحدِّ الاعتدال. وحدَّ الاعتدال نسبي،
يختلف من مجتمع إلى آخر وفقاً لنسق القيم السائد في كل
مجتمع.

فما يعتبره مجتمع من المجتمعات سلوكاً متطرفاً من الممكن
أن يكون مألوفاً في مجتمع آخر، فالاعتدال والتطُّرف مرهونان
بالمتغيّرات البيئية والحضارية والثقافية والدينية والسياسية التي
يمرُّ بها المجتمع.

كما يتفاوت حدُّ الاعتدال والتطُّرف من زمن إلى آخر، فما
كان يُعدّ تطرفاً في الماضي ربما لا يكون كذلك في الوقت
الحاضر، ومع ذلك حاول بعض الباحثين التوصل إلى تعريفات
لمفهوم التطُّرف، نتاولها في ما يلي:

١- المفهوم الاجتماعي للتطُّرف:

اعتبر علماء الاجتماع هذه الظاهرة - التطُّرف - إشارة إلى
الفرد المتطرف أو المجموعة المتطرفة بالخروج عن القواعد
الفكرية والقيم والمعايير والأساليب السلوكية الشائعة في
المجتمع، مُعبِّراً عنه بالعزلة أو بالسلبية والانسحاب، أو تبني قيماً
ومعايير مختلفة، قد يصل الدفاع عنها إلى الاتجاه نحو العنف في
شكل فردي أو سلوك جماعي منظم، بهدف إحداث التغيير في
المجتمع وفرض الرأي بقوة على الآخرين.

فسرَّ التطُّرف على أنه: «اتخاذ الفرد موقفاً متشدداً يتسمُّ
بالقطيعة في استجاباته للمواقف الاجتماعية التي تهّمه،
والموجودة في بيئته التي يعيش فيها وقد يكون التطُّرف إيجابياً

في القبول التام، أو سلبياً في اتجاه الرفض التام، ويقع حدّ الاعتدال في منتصف المسافة بينهما^(٦).

وينظر للتطرّف أنه: «ليس مجرد مجاوزة حدّ الاعتدال أو الخروج عن المألوف، وإنما هو مرتبط بالجمود العقلي - الدوجماتية - والانغلاق الفكري، وهذا في الواقع جوهر الاتجاه العام الذي تتمحور حوله الجماعات المسماة بـ«المتطرّفة»، إذ أن التطرّف بهذا المعنى هو أسلوب مغلق للتفكير الذي يتّسم بعدم القدرة على تقبّل أية معتقدات، أو آراء تختلف عن معتقدات الشخص أو الجماعة»^(٧).

ويعرّف التطرّف بأنه: «حالة من التعصّب للرأي تعصباً لا يعترف معه بوجود الآخرين، وجمود الشخص على فهمه جموداً لا يسمح له برؤية واضحة لمصالح الخلق ولا مقاصد الشرع ولا ظروف العصر، ولا يفتح نافذة للحوار مع الآخرين وموازنة ما عنده بما عندهم والأخذ بما بعد ذلك بما يراه أنصح برهاناً وأرجح ميزاناً»^(٨).

٢- التطرّف كظاهرة اجتماعية:

التطرّف كظاهرة اجتماعية قد يظهر في صور متباينة، منها: التطرّف السياسي، والتطرّف الاجتماعي، والتطرّف الديني.

«التطرّف يطلق على مجموعة من الأفكار الدينية والسياسية والاجتماعية حاول المتطرّفون من خلالها ومن خلال الانطواء تحت لواء الإسلام تحريف الدين عن مبادئه وأصوله والنيل من سلطته وهدمها معاً دونما فصل أو تمييز بينهما، والتطرّف أسلوب

(٦) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرّف، القرضاوي: ص ٥٥.

(٧) التفكير الصحيح لمواجهة التطرّف، ليلي عبد الستار: ص ١٩١-١٩٢.

(٨) الشباب في مجتمع متغير، علي ليله: ص ١١١.

مغلق في التفكير يتسم بعدم القدرة على تقبل أية معتقدات تختلف عن معتقدات الشخص أو الجماعة أو على التسامح معها»^(٩).

ويقول أحد المتخصصين في الدراسات الاجتماعية حول التطرف: «هو مؤشر أو انعكاس لتعثر النظام السياسي والاجتماعي في مواجهة الأزمات الداخلية والخارجية»^(١٠).

والتطرف قد يتحول من مجرد فكر إلى سلوك ظاهري أو عمل سياسي، يلجأ عادة إلى استخدام العنف وسيلة إلى تحقيق المبادئ التي يؤمن بها الفكر المتطرف، أو اللجوء إلى الإرهاب النفسي أو المادي أو الفكري ضد كل ما يقف عقبة في طريق تحقيق تلك المبادئ والأفكار التي ينادي بها هذا الفكر المتطرف.

والتطرف قد يكون من الظروف السياسية والثقافية والاجتماعية فيولد انعكاساً سلبياً من خلال قاعدة الفعل ورد الفعل - لكل فعل رد فعل - وهو تعبير عن ظواهر وأنماط فكرية عملية عن عدم الرضا بهذه الظواهر.

«ومع الأسف الشديد أن البعض لا يفرق بين تطرف الأفراد وتطرف الأمة. بالنسبة للأفراد مشكلة مرحلية، بينما للأمة مشكلة دائمية؛ لأنها عالمية سواء في العالم العربي أو العالم الغربي، ولكنها تتفاوت في الحدة واللين تبعاً للعوامل والظروف، وليس كما يدعى بأن التطرف جاء من المريخ، بل بالعكس، كما أطلق علماء الاجتماع استغاثة تقول «المتطرفون ليسوا من المريخ»^(١١).

(٩) اعتدال أم تطرف،

خليل علي حيدر: ص ٢٧.

(١٠) مصر تراجع نفسها،

سعد الدين إبراهيم:

ص ٢٢.

(١١) مصر تراجع نفسها،

مصدر سابق: ص ١٣.

٣- التعريفات النفسية للتطرف:

يعرّف التطرف نفسياً بأنه: سلوك مضطرب يعكس بنية نفسية راسخة في أعماق النفس البشرية، تقوم على كراهية الآخر، والعجز عن فهمه و تقبل وجهة نظره.

ودراسات علم النفس التربوي والطب النفسي دلت بوضوح على أن: «شخصية المتطرف شخصية مريضة وأن هنالك خصائص عديدة مشتركة بين المتطرفين وبين مرضى العقل»^(١٢).
إن «التطرف ناتج، أما من عوج في نفسية المتطرف أو متأصل فيه تأصل الآفات النفسية الأخرى»^(١٣).

ويرى سيد قطب في هذا المجال «أن نتيجة التراكم الكمي للمشاكل النفسية والتوتر الناجم من الظواهر السلبية فتكون الشرارة الأولى لتفجير الموقف لما لاقوه هؤلاء من ضغوط شديدة في السجن مثلاً من تعذيب وقتل وتشريد، ولذا نشأت فكرة محاربة الأنظمة وردّ الاعتداء بالقوة»^(١٤).

ويرى آخر أن المتطرف «لديه القابلية للتطرف، أو هو رد فعل وليس فعلاً»^(١٥).

ومنهم من يرى أن «التطرف بمثابة ثورة على الواقع إن لم يكن الواقع مقنعاً أو كافياً، أو هروباً من ذلك الواقع إذا كانت الثورة عليه مستحيلة، وقد يكون راجعاً لاضطراب في الشخصية أو قصور في تكوينها»^(١٦).

وترى مدرسة التحليل النفسي^(١٧) «أن حياة الإنسان في مطلع حياته يسيّرهما مجموعة من الدوافع الجنسية والعدوانية الفجة، ثم

- (١٢) محددات التطرف
الديني، سمير أحمد:
ص ١١٢.
(١٣) حذار من التدين
المغشوش، محمد
الغزالي: ص ٤٢.
(١٤) لماذا أعدموني،
سيد قطب: ص ٩٥.
(١٥) التطرف: أبعاده
السلبية، فهمي هويدي:
ص ١٤.
(١٦) شبابنا وظاهرة
التطرف، محمد
الطيب: ص ٣.
(١٧) ومن أبرز علماء
هذه المدرسة (فرويد)
الذي يرى أن هناك
غريزتين لدى الإنسان
هما: غريزة الجنس،
وغريزة العدوان.

بتقدمه في العصر يخضع لسلطان المجتمع ولقيمه ومبادئه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن المجتمع يسعى بدوره إلى ترويض دوافع الفرد وتهذيبها بحيث تصبح مقبولة بالنسبة لذلك المجتمع»^(١٨).

وبهذا تكون كثير من المجموعات متصفة بالتطرف، وكثير من الناس لا يفهمون معناه وأن أكثر ما يفعلونه دون وعي وإدراك، وأن التطرف سمة لاصقت الإنسان منذ وجود الدين والقبيلة والجماعة والحزب.

والتطرف: أن تنسب الفضل والسمو والعدالة والحق وكل شيء جميل لنفسك أو لمجموعتك وتنفيه عن الآخر، ولو كنت تعلم علم اليقين أن ما تقوله خطأ. وأن تلصق الكفر والفساد وكل شيء سيء لغيرك، رغم علمك بما لدى غيرك من الحقيقة أو الصلاح أو غيره، وهذا كله من الناحية النظرية.

أما من الناحية العملية، فيتحول التطرف إلى سلوك همجي من القتل والتعذيب، والخراب والدمار الذي يلحق البلاد في جميع مؤسساتها الخدمية والاقتصادية والتربوية.

ولا شك أن هنالك تطرفاً ومغالاةً وتزمتاً وجموداً، وهذه كلها حقائق واقعية، ولكن تطبيقها على الأشخاص وعلى حوادث خاصة وعلى مدارس فكرية بعينها يحتاج إلى عدل وإنصاف وتدقيق.

وبذلك نستطيع القول: إن أصل التطرف هو استجابة لمشكلة سلوكية وانعكاس لعوامل داخلية متعلقة بحياة الفرد، أي أنه كسلوك

(١٨) علم النفس الاجتماعي، عبد الرحمن عيسوي: ص ١٢٥.

فطري، أو لتأثيرات بيئية مضطربة أو ردت فعل لفعل خاطئ أي كسلوك مكتسب يتعلمه الإنسان من البيئة المحيطة به، أو كلاهما. وبهذا نصل إلى ثلاث نظريات من خلال التعريفات السابقة للتطرف.

النظرية الأولى:

أنَّ التطرف سلوك فطري يولد مع الإنسان بحكم تكوينه الفسيولوجي والبيولوجي.

أنَّ المتطرف: هو إما مجرم بالولادة، أي: لديه غريزة العدوان والميل إلى العنف، أو الإحباط. وتؤكد أن الإحباط هو سبب العدوان، وكلما زاد زادت حدة العدوان.

النظرية الثانية:

أنَّ التطرف سلوك مكتسب يتعلمه الإنسان من البيئة، وأنَّ التطرف يتعلمه الأطفال من خلال ملاحظة نماذج العنف والإرهاب والتعصب لدى والديهم ومدرسيهم وأصدقائهم، ومن خلال مشاهدتهم مظاهر العنف والإرهاب في الأفلام التلفازية والسينمائية وقراءتهم القصص والروايات الإجرامية.

النظرية الثالثة:

وهي النظرية القرآنية، ونرى من خلال استنطاق القرآن الكريم لظاهرة التطرف أنَّ التطرف ليس سلوكاً فطرياً صرفاً ولا سلوكاً كسبياً صرفاً، بل هو خليط منهما؛ لأنَّ الإنسان من خلال تركيبته يؤثر ويتأثر.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ

أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا»^(١٩).

ومن خلال هذه الآية نستطيع أن نقول: أن الإلهام بمعنى الاستعداد والقابلية لعمل الخير وعمل الشر.

وإذا نظرنا إلى النفس نجد أن مراتب وهي: نفس أمارة، ولوامة، ومطمئنة، وجميع هذه المراتب ذكرت في القرآن الكريم، فالهام النفس الخير والشر هو لحكمة إلهية من أجل تكامل الإنسان من خلال الصراع بين قوة الشر وقوة الخير والخروج من هذا الإبتلاء والامتحان بالنجاح والفلاح أو بالخسران والخيبة.

وهذا ما أشار إليه الرسول الأعظم ﷺ بقوله: «مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر»، فقيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: «جهاد النفس»^(٢٠).

وفي وصية أمير المؤمنين ومولى الموحدين عليه السلام قال: «الله الله في الجهاد للأنفس، فهي أعدى العدو لكم»^(٢١).

وليس معنى هذا أن الإنسان مجبور على فعل العدوان والفجور، بل يستطيع الإنسان أن يفعل الخير أو الشر باختياره، وهو مزود من ناحية الاستعداد بهما، وهذا الصراع هو الذي يصل بالإنسان إلى الكمال والراقي، وهذا ما يسميه يطلق عليه علماء الأخلاق بـ «جنود الشيطان وجنود الرحمن»، أو جنود الجهل وجنود العقل.

٤- مفهوم التطرّف في القرآن:

كلمة التطرّف كلمة جديدة في المصطلح الشرعي، وقد كانت يستخدم سابقاً كلمة «الغلو»، وهي الكلمة الواردة في نصوص

(١٩) سورة الشمس:

١٠-٧.

(٢٠) الكافي، الكليني:

ج ٥، ص ١٢.

(٢١) مستدرک الوسائل،

النوري: ج ١١ ص ١٣٨.

الكتاب والسنة. وعليه، فإن مصطلح التطرف ليس له أصول شرعية، إنما استعمل للتعبير بها عن مفهوم الغلو في الدين. كما أن الغلو في اللغة: هو بمعنى: «غلا السعُر يغلو غلاءً ممدوداً، وغلا الناس في الأمر، أي: جاوزوا حده، كغلو اليهود في دينها»^(٢٢).

قول المفسرين في الغلو:

يرى صاحب الميزان أن: «الغلو يعني الإفراط ولا يشمل التفريط، فالغالي المتجاوز عن الحد بالإفراط، ويقابله القالي في طرف التفريط وأهل الكتاب وخاصة النصارى مبتلون بذلك»^(٢٣).

ويرى صاحب التنوير أن: «الغلو الزيادة في عمل على المتعارف منه بحسب العقل أو العادة أو الشرع»^(٢٤).

ويرى صاحب الكشف أن «الغلو في الدين غلوان: غلو حق؛ وهو أن يفحص عن حقائقه ويفتش عن أباعد معانيه، ويجتهد في تحصيل حججه كما يفعل المتكلمون. وغلو باطل؛ وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة وإتباع الشبه، كما يفعل أهل الأهواء والبدع»^(٢٥).

ويرى القرطبي: «أن اليهود غالوا في عيسى حتى قذفوا مريم، وغالوا النصارى فيه حتى جعلوه رباً، فالإفراط والتقصير كله سيئة»^(٢٦). وعليه، فيكون الغلو المنهي عنه شاملاً للتفريط والإفراط عند القرطبي.

ويعرف الرازي الغلو فيقول: «الغلو نقيض التقصير. ومعناه: الخروج عن الحد، وذلك لأن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط، ودين الله

(٢٢) المقاييس، مصدر

سابق، ج ٤، ص ٣٣٨.

العين، الفراهيدي: ج ١، ص ٣٦٢.

(٢٣) تفسير الميزان، الطباطبائي: ج ٦، ص ٤٢.

(٢٤) التحرير والتنوير في

تفسير القرآن، ابن

عاشور: ج ٤، ص ٢٦٥.

(٢٥) الكشف، الزمخشري:

ج ٢، ص ٥٦.

(٢٦) الجامع لأحكام

القرآن، القرطبي: ج ٦،

ص ٢١.

بين الغلو والتقصير. وقوله: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ صفة المصدر، أي: لا تغلوا في دينكم غلواً غير الحق، أي غلو باطل؛ لأن الغلو في الدين نوعان: غلو حق، وهو: أن يبالغ في تقريره وتأكيده، وغلو باطل وهو: أن يتكلف في تقرير الشبه وإخفاء الدلائل، وذلك الغلو هو: أن اليهود لعنهم الله نسبوه - نبي الله عيسى عليه السلام - إلى الزنا. وإلى أنه كذاب، والنصارى ادعوا فيه الإلهية»^(٢٧).

ويرى صاحب روح المعاني في قوله تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ «أي: لا تجاوزوا الحد، وهو نهى للنصارى عن رفع عيسى عليه السلام عن رتبة الرسالة إلى ما تقولوا في حقه من العظمة، وكذا عن رفع أمه عن رتبة الصديقة إلى ما انتحلوه لها عليه السلام، ونهى لليهود على تقدير دخولهم في الخطاب عن وضعهم له عليه السلام، وكذا لأمه عن الرتبة العلية إلى ما افتروه من الباطل والكلام الشنيع، وذكرهم بعنوان أهل الكتاب للإيماء إلى أن في كتابهم ما ينهاهم عن الغلو في دينهم»^(٢٨).

والفرق بين الغلو والتطرف؛ هو أنهما بمعنى واحد إذا قيل: أن الغلو بمعنى الإفراط والتفريط، أي: الزيادة والنقص. ويكون بينهما عموم وخصوص من وجه إذا قيل: أن الغلو بمعنى الإفراط فقط، أي: الزيادة، هذا من الناحية اللغوية.

أما من الناحية الاصطلاحية، فيختلف التطرف عن الغلو كثيراً حيث أن التطرف من الناحية النظرية يؤدي إلى تكفير المتطرف للآخر، وأما من الناحية العملية فيؤدي التطرف إلى أن يقوم المتطرف بإباحة دم وعرض ومال الآخر.

(٢٧) التفسير الكبير،
الرازي: ج ٦، ص ١٢٨.
(٢٨) روح المعاني،
الآلوسي: ج ٥ ص ٩٣.

أما المغالي فيصل إلى تأليه الآخر وتقديسه، فأما أن يغيب أو يكفر أو يقتل، وإذا قلت: ماذا تقول عن الخوارج الذين كفروا المسلمين واستحلوا الدماء؟ قلت: هذا إذا قلنا بشمول الغلو إلى الإفراط والتفريط. أما على قول: أن الغلو هو الزيادة فقط، فلا يصدق عليهم - الخوارج - غلاة إنما هم متطرفون.

٥- مظاهر التطرف في القرآن:

١- قصة قابيل وهابيل:

إن أول عملية عنف من المتطرف «قابيل» الذي حكم على أخيه «هابيل» بالقتل كانت بسبب الحسد، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِكَ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ يَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٩).

(٢٩) سورة المائدة:

٢٧-٣٠.

(٣٠) الميزان، مصدر

سابق: ج ٥ ص ١٨٢.

فهذه إذن أول حادثة تطرف في تاريخ البشرية. وانظر لكيفية تعامل «هابيل» مع سلوك أخيه المتطرف، حيث ينصحه ويرشده إلى التقوى. فعن أبي جعفر عليه السلام قال: «لما قرب ابنا آدم القربان فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال: تقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل دخله من ذلك حسد شديد، وبغي على هابيل، و لم يزل يرصده و يتبع خلوته حتى ظفر به متنحياً من آدم فوثب عليه وقتله، فكان من قصتهما ما قد أنبا الله في كتابه مما كان بينهما من المحاوراة قبل أن يقتله» (٣٠).

وقد ذكر صاحب الأمثل في تفسير هذه الآية «أن مصدر أولى النزاعات والجرائم في العالم الإنساني هو «الحسد» ويدلنا هذا الموضوع على خطورة هذه الرذيلة الأخلاقية وأثرها العجيب في الأحداث الاجتماعية»^(٣١).

هذه القصة تقدّم نموذجاً لطبيعة الشر والعدوان الناتج عن الحسد والبغي الذي لا مبرر له إلا انحرافاً عن الفطرة السليمة والأخلاق الرفيعة والقيم الإنسانية، أي: أن هذا السلوك المتطرف ناتج من الغفلة عن تهذيب النفس من الرذائل، ومن ثم التحلي بالفضائل، وهو ما اهتمت به الشريعة الإسلامية كثيراً.

٢- تطرّف فرعون:

لقد حدّثنا القرآن الكريم عن تطرّف فرعون وتزوّمته في السلطة السياسية والاقتصادية والدينية، في مثل قوله: «أنا ربكم الأعلى»، حيث علا في الأرض وأفسد فيها ومزّق الأواصر بين الأمة الواحدة، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذِبحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٣٢).

وقد ذكرت الآية عدة مفاصل له وهي: التكبر، والتقسيم الطائفي، والقتل للأطفال، وسبي النساء؛ وهي من أبشع الجرائم الإنسانية. وقد لخص ابن عاشور هذه المفاصل بقوله:

المفسدة الأولى: التكبر والتجبر: فإنه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاصل جمّة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم وبث عداوته فيهم، وسوء ظنه بهم وأن لا يرقب

(٣١) الأمثل، مصدر

سابق: ج ٣ ص ٦٧٢.

(٣٢) سورة القصص: ٤.

فيهم موجبات فضل سوى ما يرضي شهوته وغضبه، وأن يرمقهم بعين الاحتقار فلا يعبأ بجلب الصالح لهم ودفع الضر عنهم، وأن يبتز منافعهم لنفسه ويسخر من استطاع منهم لخدمة أغراضه، وأن لا يلين لهم في سياسة فيعاملهم بالغلظة، وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته، فهذه الصفة هي أمّ المفاسد.

المفسدة الثانية: أنه جعل أهل المملكة شيعاً وفرقهم أقساماً وجعل منهم شيعاً مقرّبين منه، وذلك فساد في الأمة؛ لأنه يثير بينها التحاسد والتباغض، ويجعل بعضها يتربص الدوائر ببعض، فتكون الفرق المحظوظة عنده متطاولة على الفرق الأخرى.

المفسدة الثالثة: أنه استضعف طائفة من أهل مملكته فجعلها محقّرة مهضومة الجانب لا مساواة بينها وبين فرق أخرى ولا عدل في معاملتها بما يعامل به الفرق الأخرى، في حين أن لها من الحق في الأرض ما غيرها؛ لأن الأرض لأهلها وسكانها الذين استوطنوها ونشأوا فيها.

المفسدة الرابعة: أنه أمر بذبح الأطفال الذكور، حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.

المفسدة الخامسة: أنه استحيى النساء، وهو أن يصرن بغايا إذ ليس لهن أزواج^(٣٣).

وهذا ما تفعله اليوم ما يسمى «بالدولة الإسلامية» من قتل وسي ما هو إلا مصداق لهذه الآية الكريمة، لقد بغوا مثل ما بغى فرعون على بني إسرائيل واستطال بجبروت الحكم والسلطان، وكانت النهاية أغرق باليمّ هو وجنوده.

(٣٣) التحرير وتنوير
مصدر سابق: ج ١٠ ص
٣٥٠

ولم تكن هنالك قوة تعارض فرعون من قوى الأرض الظاهرة. إنما تدخلت يد القدرة فوضعت حداً للبغي والفساد، حينما عجز الناس عن الوقوف بوجهه.

٣- قصة أصحاب الأخدود:

وهي من قصص التطرف التي حكها القرآن الكريم من حيث سبب نزولها في نصارى نجران أو غيرهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿النَّارُ ذَاتُ الْوُقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَزِيرِ الْحَمِيدِ﴾ (٣٤).

يذكر ابن كثير في تعليقه على الآية: «وقد ذكر غير واحد أن هذا الصنيع مكرر في العالم مراراً في حق المؤمنين من الجبارين الكافرين» (٣٥).

وهذه الحادثة التي أشار إليها القرآن تشير إلى التطرف البالغ في القسوة في تعذيب وقتل المؤمنين، وقيل: أنهم «قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مبعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة، أخذهم يوسف بن شراحيل بن تبع الحميري، وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً، وحفر لهم أخدوداً وأحرقهم فيه» (٣٦).

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «هم أناس بمدارع اليمن اقتتل مؤمنوهم وكفارهم». فظهر مؤمنوهم على كفارهم، ثم أخذ بعضهم على بعض عهداً وميثاق لا يغدر بعضهم ببعض، فغدرهم الكفار فأخذوهم، ثم إن رجلاً من المؤمنين قال: هل لكم إلى خير، توقدون ناراً ثم تعرضوننا عليها فمن بايعكم على دينكم، فذلك الذي تشتهون، ومن لا، اقتحم فاسترحم منه،

(٣٤) سورة البروج: ٥-٨.

(٣٥) البداية والنهاية،

ابن كثير: ج ٢، قصة

أصحاب الأخدود.

(٣٦) الجامع لأحكام

القرآن، القرطبي: ج

١٩، ص ٢٥٠.

فأججوا لهم ناراً وعرضوهم عليها، فجعلوا يقتحمونها حتى بقيت عجوز فكأنها تلكأت، فقال طفل في حجرها: امضي ولا تقاعسي، فقَصَّ الله عليكم نبأهم وحديثهم، فقال: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُجُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ قال: يعني بذلك المؤمنين: ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ يعني بذلك الكفار»^(٣٧).

وذكر صاحب الأمل «أن الآية قد أشارت إلى قصة (ذو نواس)، وهو آخر ملوك حمير في أرض اليمن. وكان ذو نواس قد تهوّد، واجتمعت معه حمير على اليهودية، وسَمَّى نفسه «يوسف»، وأقام على ذلك حيناً من الدهر، ثم أخبر أن بنجران شمال اليمن بقايا قوم على دين النصرانية، وكانوا على دين عيسى عليه السلام وحكم الإنجيل، فحمله أهل دينه على أن يسير إليهم ويحملهم على اليهودية، ويدخلهم فيها، فسار حتى قدم نجران، فجمع من كان بها على دين النصرانية، ثم عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيها، فأبوا عليه، فجادلهم وحرص الحرص كله، فأبوا عليه وامتنعوا من اليهودية والدخول فيها، واختاروا القتل، فاتخذ لهم أخدوداً وجمع فيه الحطب، وأشعل فيه النار، فمنهم من أحرق بالنار، ومنهم من قُتل بالسيف، ومثّل بهم كل مثلة، فبلغ عدد من قُتل وأُحرق بالنار عشرين ألفاً»^(٣٨).

٦- المعالجة القرآنية للتطُّرف:

أن موقف القرآن الكريم والإسلام من التطُّرف موقف ثابت؛ لأنه دين الاعتدال والوسطية. ومن أهمها:

(٣٧) الدر المثور في التفسير بالمأثور، السيوطي: ج ٦، ص ٣٣٢.
(٣٨) الأمل، ناصر مكارم الشيرازي: ج ٢٠، ص ٨٦.

١- مبدأ حرمة الدّم في القرآن الكريم:

الأصل في الإسلام هو حرمة دم الإنسان؛ وهذا يتضح من خلال آية التكريم، وكذلك حرية الاعتقاد، وهو أصل أولي. وأما القتل للدفاع عن النفس، أو قتل البغاة والمحاربين والقصاص منهم فهو أصل ثانوي. ومن هنا حرّم الإسلام بصورة قاطعة سفك الدماء بغير الحق، واعتبره من أبشع الجرائم ومن أكبر المحرمات، حيث هدّد القاتل بالخلود في نار جهنم، وهو من أشدّ ألوان العقاب، قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(٣٩) وقوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَعِزَّ آوُهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾^(٤٠).

فأصبح اليوم الغرب يصورون أن الإسلام هو دين قتل وإرهاب، وقد ساعدهم على ذلك الفهم الخاطئ لبعض تصرفات المسلمين الذين ينتمون إلى جماعات التطرّف الديني في تصرفاتهم وفتاواهم البعيدة كل البعد عن المنهج القرآني الصحيح، فمن يصدّق أن الحرب الدائرة اليوم في سوريا والعراق من قبل داعش هي جهاد في سبيل الله، بل هي حقيقة الأمر تشويه لصورة الإسلام في نظر الآخرين، لأن حقيقة الإسلام تحريم قتل النفس بغير حق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(٤١).

وهذه الحرب الدائرة من قبل الجماعات المتطرّفة ترتدي ثوب الإسلام والإسلام برئ من تصرفاتهم وأفعالهم. طوفان من

(٣٩) سورة المائدة: ٣٢.

(٤٠) سورة النساء: ٩٣.

(٤١) سورة الأنعام: ١٥١.

المجازر البشرية في سبيل الوصول لكرسي الحكم، ومخابرات الدول الأجنبية تمدهم بأحدث أنواع الأسلحة لأجل قتل المسلمين وتمزيق وحدة الصف؛ من خلال زرع الفتنة الطائفية والمذهبية، وتدمير بلاد المسلمين ونهب ثرواتهم، وهي لعبة سياسية غريبة قدرة بمعنى الكلمة، ولكن أملنا بالله سبحانه وتعالى؛ وبمولانا صاحب العصر والزمان عليه السلام وقاعدته من المؤمنين المخلصين وان يعجل الله تعالى ظهور دولته الكريمة، ليملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

٢- مبدأ الحوار وحرية الفكر في القرآن:

القرآن الكريم في كثير من المواقف طلب من الإنسان أن يُحكّم العقل في كل تصرفاته، قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٤٢) وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٤٣).

لقد كانت أهم دعوة في القرآن هي الدعوة إلى حرية العقيدة لكل إنسان، فلا يجبر إنسان على ترك دينه للتحوّل إلى الإسلام أو التحوّل إلى أي ديانة أخرى، فحرية المعتقد هي أصل عام في القرآن، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(٤٤).

وأن الرسول صلى الله عليه وآله لم يكره الناس على المعتقد أو الهداية وليس عليهم مسيطر وما على الرسول إلا البلاغ، من يهتدي فإنما يهتدي لنفسه، ويدخل في الإسلام من يريد، قال تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾^(٤٥). وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْفُرُ﴾

(٤٢) سورة الأعراف:

١٧٦.

(٤٣) سورة البقرة: ٤٤.

بحيث ذكرت في القرآن ١٣ مرة.

(٤٤) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٤٥) سورة المائدة: ٩٩.

النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٤٦﴾، ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ ﴿٤٧﴾.

ولا يوجد في هذه النصوص القرآنية من تكفير واستحلال الدم. وقد انتشر الإسلام بالفكر وليس بالقتل والسيوف والجبر كما تفعله الجماعات المتطرّفة، بل إنّ الإسلام دين الإنسانية، والأخلاق، والرحمة، والعدل، ورفع الظلم ونشر السعادة. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الطبيعة الإيجابية في الحوار بين الأديان في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٤٨﴾.

«فالآية الكريمة تدعو إلى الحوار الديني بين المسلمين وأهل الكتاب وتشير إلى عناصر الاتفاق بين اليهودية والمسيحية والإسلام التي تكون أساساً للحوار بينهم، وتستبعد ضمناً عناصر الاختلاف التي أدت إليها التطور التاريخي لكل من اليهودية والمسيحية. بل إن الإسلام يتجاوز تاريخ الاختلاف بين الديانات الثلاث ويطالب بالعودة إلى شكل بسيط وفطري للتوحيد يمثلته دين إبراهيم عليه السلام الذي هو دين الفطرة» ﴿٤٩﴾.

وقد تعامل الإسلام مع غير المسلمين، من العيش بسلام، والتساوي في الحقوق والواجبات، وقد وضع قانوناً لحماية غير المسلمين، حيث أن المواطنين من غير المسلمين في المجتمع الإسلامي كان يطلق عليهم «أهل الذمة»؛ وهو تعبير فقهي، وكانت الدولة الإسلامية ترتبط بالمسلمين من خلال العقيدة الإسلامية. أما مع غير المسلمين فترتبط معهم بعهد المسلمين وذمتهم

(٤٦) سورة يونس: ٩٩.

(٤٧) سورة الغاشية: ٢٢.

(٤٨) سورة آل عمران: ٦٤.

(٤٩) الحوار الديني

ودوره في مواجهة

التطرّف الديني، محمد

خليفة: ص ١٣.

فيصبحوا بهذا العهد أهل ذمة، لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات، وأن يُتركوا أحراراً في عقائدهم، وعباداتهم، وأحوالهم الشخصية. ولكن اليوم تغيّر عقد الذمة إلى المواطنة، فالمواطنة حق لكل مسلم وغير مسلم، فالجميع يرتبطون بالوطن يعيشون فيه ويدافعون عنه جميعاً، ويدينون بالولاء له على الرغم من تعدد العقائد والمذاهب، وهذا ما يسود العالم اليوم من مفهوم المواطنة أو الهوية.

٣- مبدأ العدل والمساواة والتعايش في القرآن:

العدل والمساواة من المبادئ الرئيسية في معالجة التطُّرف والظلم والطغيان في المجتمع، لأن عدم العدل والمساواة بين المجتمع هو من تساعد في نشر التطُّرف بين أفراد المجتمع، لأن المظلوم أو المقهور إذا لم يستطع نيل حقوقه بالطرق المشروعة، فقد يعلن عن غضبه بقيامه برد الظلم بمثله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٥٠).

(٥٠) سورة النحل: ٩٠.

(٥١) سورة المائدة: ٨.

وانطلاقاً من مبدأ البرّ والعدل في الإسلام وعالميته، فإن الله تعالى يأمر المسلمين بالعدل الشامل والكامل، حتى مع المختلف معهم ومع الذين يسيئون إليهم؛ لأن العدل حق لله، ولا ينبغي تجاوزه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٥١).

وقد ذكر الطبري في تفسيره «يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حدّدت لكم في أعدائكم لعداوتهم لكم، ولا تقصروا فيما حدّدت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدّي، واعملوا فيه بأمري، ولا يحملنكم عداوة قوم على ألا تعدلوا في حكمكم فيهم وسيرتكم بينهم، فتجوروا عليهم من أجل ما بينكم وبينهم من العداوة، اعدلوا أيها المؤمنون، على كل أحد من الناس ولياً لكم كان أو عدواً، فاحملوهم على ما أمرتكم أن تحملوهم عليه من أحكامي، ولا تجوروا بأحد منهم عنه»^(٥٢).

(٥٢) جامع البيان في
تأويل القرآن، الطبري:
ج ١٠، ص ٩٥.

وهذا هو عدل الإسلام في أحكامه مع جميع الناس، ونشر البرّ والعدل في المجتمع من شأنه أن يجفف منابع التطرّف الديني ويجعل من الناس صلحاء عادلين مع أنفسهم وأبناء جلدتهم، بل ومع أعدائهم.

والتعاون على البرّ والتقوى يشمل المؤازرة في كل عمل ينتج عنه الخير، سواء يكون مما ينهض بأحوال الأمة في هذه الدنيا التي هي دار ممرّ، أو من وسائل النجاح والسعادة في الآخرة.

النتائج التي توصلنا إليها:

١- التطرّف في اللغة معناه الوقوف في الطرف، فهو يقابل التوسط والاعتدال، وبذلك يستخدم للدلالة على كل ما يناقض الاعتدال، زيادة أو نقصاناً.

٢- التطرّف من الناحية الاصطلاحية من المفاهيم التي يصعب تحديدها أو إطلاق تعميمات بشأنها، وحدّ الاعتدال نسبي، يختلف من مجتمع إلى آخر وفقاً لنسق القيم السائد في كل مجتمع. فما يعتبره مجتمع من المجتمعات سلوكاً متطرفاً من الممكن أن يكون مألوفاً في مجتمع آخر، فالاعتدال والتطرّف مرهونان بالمتغيرات البيئية والحضارية والثقافية والدينية والسياسية التي يمرّ بها المجتمع.

٣- من خلال تعريفات أصل التطرّف توصلنا إلى ثلاث نظريات فيه: النظرية الأولى: التطرّف سلوك فطري، والنظرية الثانية: التطرّف سلوك كسبي، والنظرية الثالثة: التطرّف سلوك فطري وكسبي.

٤- أن للتطرّف حقيقة واقعية ولكن تطبيقها على الأشخاص وحوادث خاصة وعلى مدارس فكرية خاصة يحتاج إلى عدل وإنصاف وتدقيق.

٥- أن التطرّف هو أسلوب مغلق للتفكير، يتسم بعدم القدرة على تقبّل أي معتقدات تختلف عن معتقدات الشخص أو الجماعة وحيث يعتبر أن معتقده صحيح، وهادف، وصادق صدقاً مطلقاً وأبدياً ولا مجال للمناقشة ولا للبحث عن أدلة تؤكد خطأه أو نفيه.

٦- لم يرد مفهوم التطرّف في الكتاب ولا في السنة بلفظه، ولكن ورد بلفظ الغلو، والبغي، والفساد في الأرض.

٧- الفرق بين التطرّف والغلو عموم وخصوص من وجه. وكذلك هناك فرق بين التطرّف والغلو من جهة العنف والإرهاب من جهة أخرى، حيث أن التطرّف والغلو يرتبطان في الفكر، أي: المعتقدات الدينية، أو السياسية، أو الاجتماعية، بينما الإرهاب والعنف سلوك عملي، فيكون التطرّف تطرفاً طالما أنه ظل تطرفاً في المعتقدات الدينية أو السياسية أو الاجتماعية، أي: تطرّف فكري، ولكن إذا تحوّل إلى استخدام العنف لمواجهة المجتمع أو التهديد بالعنف لفرض المعتقدات المتطرفة على الآخرين فإنه هنا يتحوّل الفكر المتطرف إلى إرهاب طالما صاحب الفكر المتطرف اعتدى على الحريات أو الممتلكات أو الأرواح.

٨- أن للتطرّف أنواعاً، ومن أهمها: التطرّف الديني، والسياسي، والاجتماعي، والإلحادي، ومن أخطرها التطرّف السياسي والاجتماعي.

٩- من أهم المعالجات القرآنية لهذه الآفة الخطيرة «التطرّف» ثلاث مبادئ «التفكر والحوار، والعدل والمساواة، وحرمة دم الإنسان وتكريمه».

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- ١- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، دمشق ١٩٧٩ م.
- ٢- ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت لبنان، ١٤١٣ هـ ط ٣.
- ٣- خليل علي حيدر، اعتدال أم تطُّرف، دار قرطاس، الكويت، ١٩٩٨ م، ط ١.
- ٤- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، دفتر نشر كتاب، إيران، ١٤٠٤ هـ ط ٢.
- ٥- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي، الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل، القاهرة، ١٩٦٦ م.
- ٦- السيوطي، عبد الرحمن ابن أبي بكر، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت لبنان، ١٤٢٣ هـ.
- ٧- الطباطبائي، السيد العلامة محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت لبنان، ١٤١١ هـ ط ١.
- ٨- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، دار الفكر، بيروت لبنان، ١٩٩٥ م.
- ٩- علي ليله، الشباب في مجتمع متغير، مكتبة الحرية الحديثة، القاهرة، ١٩٩٠ م.
- ١٠- فهمي هويدي، التطُّرف وأبعاده السلبية، دار الملايين للعلم، بيروت لبنان، ١٤٠٣ هـ.
- ١١- القرضاوي، يوسف، الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطُّرف، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ١٤٠٩ هـ، ط ٥.

- ١٢- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، دار الكتب الإسلامية، قم
إيران، ١٩٨٨ م، ط ٣.
- ١٣- محمد الغزالي، حذار من التندين المغشوش، مجلس دائرة المعارف
العثمانية بحيدر آباد، الهند، ١٣٨٧ هـ.
- ١٤- مكارم الشيرازي، ناصر، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، دار
إحياء التراث، بيروت لبنان، ٢٠٠٢ م، ط ١.
- ١٥- الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، المكتب الإسلامية،
دمشق سوريا، ١٩٩٥ م.
- ١٦- عيسوي، عبد الرحمن، علم النفس الاجتماعي.



الإمام علي عليه السلام وعلاقته بالقرآن الكريم

أم مصطفى محمد

حافضة للقرآن وباحثة إسلامية (صنعاء - اليمن)



يعتبر القرآن الكريم الرسالة الخالدة للإسلام وبه ختمت الشرائع السماوية وتم نسخها، إذ لم تعد هناك حاجة إلى تشريعات أخرى بعد اشتمال القرآن على دستور يواكب الحياة بمستجداتها، ويحمل بين دفتيه حلولاً لمشاكلها ومنهاجاً يقيم أودها بمختلف مناحيها الدينية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية وغيرها.

فليس القرآن قوالب جامدة لا روح فيها، وإلا لما كتب له الخلود إلى يومنا هذا في شتى بقاع العالم رغم عدم وجود جامع بين مجتمع وآخر إلا هذا القرآن العظيم.

وبهذا فسرت حياة القرآن، وأنه يجري كما يجري الليل والنهار، ويجري على الآخرين كما جرى على الأولين، ولا ينصلح أمر الآخرين إلا بما صلح به أمر الأولين، حيث وجد الأولون في القرآن بغيتهم واستجابة متطلباتهم الروحية والبدنية، فأخرجهم من وحل الظلم والجاهلية إلى نور العلم والهداية، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(١).

فهو يهدي الروح إلى الرشد، والعقل إلى الفكر القويم، والقلب إلى الهداية، فمن طلب الهدى في غيره أضله الله، يقول تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).

وقد اهتم النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته الطاهرين ﷺ بالقرآن أشد الاهتمام معربين بذلك عن مكانته في منظومة الفكر

(١) سورة الإسراء: ٩.

(٢) سورة المائدة:

١٥-١٦.

الإسلامي وعمق تأثيره في النفوس، فهو كتابُ خالقِ السماوات والأرض ودستور رب العالمين، وقد تلقَّوه ﷺ بالتلاوة والاستماع والتدبر والحفظ، وكانوا يتفاعلون مع آياته، لأنهم على معرفة تامة أنه دواء لداء القلوب والأبدان، وبه يصل الإنسان إلى أوج الكمالات الروحية.

والملاحظ أن هناك علاقة ذاتية بين عترة النبي ﷺ وبين القرآن الكريم، وكل منهما يدعو الناس إلى الالتزام بالآخر، فالعترة الطاهرة لا تأنس إلا بكتاب الله تعالى، كما أن الكتاب لا يجد من يحمل معارفه الإلهية إلا صدور عترة النبي ﷺ، فهم ترجمان وحي الله، وحملة علم القرآن، وقد نزل القرآن في بيوتهم، فهم مهابط وحي الله، وخزان علمه، وموضع سره، يرتلون آياته آناء الليل وأطراف النهار، يحزنون به أنفسهم، ويأمرون الناس بتلاوته والتمتع فيه، ويربّون أولادهم بمنهجه التربوي، ويحتجّون به على خصمائهم ويفسّرونه، فكان فصل الخطاب عندهم، وكان آخر كلامهم في الحياة الدنيا هو القرآن.

ولم نجد بحكم التبع التاريخي من يمثل أخلاق القرآن وهدية ونوره وبصائره إلا العترة الطاهرة، ولذا أوصى النبي ﷺ باتباعهم ومودتهم والأخذ عنهم.

وبمقتضى الثنائية في حديث الثقلين التي لا تقبل التفكيك ينحصر طريق الهداية بهما، ومن طلب الهدى في غيرهما فقد ضل، ومن لجأ إلى أحدهما دون الآخر فقد أخطأ طريق الجنة.

إن هجران أحد الثقلين كاشف عن عدم حفظ وصايا الرسول الأعظم ﷺ، إذ أوصى قائلاً: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»^(٣).

فعبر ﷺ عن القرآن بالثقل الأكبر وعن العترة بالثقل الأصغر. إن الأكبرية والأصغرية ليس بالقياس إلى بعضهما، وإنما المراد من الأكبرية اعتبار القرآن المصدر الأول والمرجع الأساس في المنظومة الدينية والمعرفية، ويأتي كلام العترة الواصل إلينا في طول القرآن الكريم وفي مرتبة متأخرة عنه، حيث أمرونا بعرض كلامهم على كتاب الله تعالى، وأما إذا نظرنا إليهما كمشرعين ومصدرين فهما في رتبة واحدة، ولا يمكن أن يختلف كلام أحدهما عن الآخر، غاية الأمر أن أحدهما صامت والآخر ناطق.

إن القرآن الصامت يعبر عن صمت العترة، والعترة الناطقة تعبر عن القرآن الناطق، فلو كان القرآن ناطقاً لكان العترة، ولو كانت العترة صامتة لكان القرآن، فهما ثقلان وقطبان مندمجان لا ينفكان ولا يختلفان ولا يستقل أحدهما عن الآخر في هداية البشرية.

ولا يمكن التمسك بالكتاب من دون العترة ولا التمسك بالعترة من دون القرآن. إن عملية التمسك بأحدهما دون الآخر هو إمحاق لتعاليم الإسلام وتضييع له، فحديث الثقلين برهان قاطع على بطلان نظرية الفصل بين القرآن والعترة، ومن الواضح

(٣) سنن الترمذي،
الترمذي: ج ٢، ص ٣٠٨.

أن القرآن الصامت ليس إلا خط مستور بين دفتين يحتاج إلى ترجمان عملي وإلى أشخاص تحاكي أفعالهم وأقوالهم القرآن الكريم، لئلا تكون تعاليمه نهب الذرائع والأفهام المختلفة، فقد روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين، لا ينطق، إنما يتكلم به الرجال»^(٤).

إن فاعلية تعاليم ومفاهيم القرآن لا يمكن أن تجد طريقها في حياة الناس دون وجود القائم بها والواعي لها وهم العترة الطاهرة عليه السلام، ولا يمكن إقصاء ترجمان الوحي والتنزيل عن القيام بأدوارهم الدينية؛ لأن ذلك يحول القرآن إلى كتاب مليء بالرموز وتصبح معارفه نهب التفسير والتأويل بالآراء والأهواء.

إن التلازم بين العدلين يمثل أبرز صور الترابط والانسجام في جميع المستويات بحيث أصبح عزل أحدهما عن الآخر مخللاً بكفائته وهدايته، فأحدهما يمثل سلطة دستورية وتشريعية والآخر يمثل سلطة تنفيذية، والأخذ بأحدهما يوجب الأخذ بالآخر على حد سواء.

لذا صار هجران القرآن الكريم هجراناً للعترة، وهجران العترة هجراناً للقرآن، وقد أوضح النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هذه العلاقة الذاتية بين القرآن والعترة في حديث الثقلين وفي أحاديث أخرى، منها ما روي عن أم سلمة حيث سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: «...سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يتفرقا حتى يردا على الحوض»^(٥).

ومن كلام للإمام علي عليه السلام يبين علاقته بالقرآن: «...وإن

(٤) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي: ج ٥، ص ١٢٦.
(٥) النيسابوري، المستدرک: ج ٣، ص ١٢٤. مجمع الزوائد، الهيثمي: ج ٩، ص ١٣٤.

الكتاب لمعي ما فارقت منذ صحبته»^(٦).

أجل، لا نجد تفسيراً عملياً لآيات القرآن الكريم بما ينزه القرآن عن التفسيرات بالرأي إلا عند أهل البيت عليهم السلام، وعلى رأسهم وأميرهم هو الإمام علي عليه السلام الذي يمثل الثقل الأكبر بكل قيمه السماوية والإنسانية والحضارية.

إن العلاقة بين الإمام علي عليه السلام والقرآن الكريم علاقة راسخة وثابتة، فهو عليه السلام ارتبط بالقرآن ارتباطاً ذاتياً وعضوياً، حيث رافق نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وآله في كل المراحل ابتداءً من النداء السماوي الأول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(٧) واستمراراً في كل المواقع والأحداث والمواقع التي نزل فيها وعلى ضوءها القرآن الكريم.

إن الإمام علي عليه السلام قد اختلط لحمه ودمه منذ نعومة أظفاره بالقرآن الكريم، فقد أثر فيه القرآن الكريم بجميع مفاهيمه وعقائده وفقهه وأخلاقه وبلاغته وفصاحته، حيث اعتنى النبي صلى الله عليه وآله به عناية خاصة، لذا فإن جميع آيات القرآن الكريم قد أملاها النبي صلى الله عليه وآله على الإمام علي عليه السلام وخطها الإمام علي عليه السلام بيده كما يقول: «إِنَّ كُلَّ آيَةٍ أَنْزَلَهَا عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله عِنْدِي بِأَمَلَاءِ رَسُولِ اللَّهِ وَخَطَ يَدِي»^(٨).

لذا فإن النبي صلى الله عليه وآله قد شهد له بأعلميته بالقرآن كما جاء في قوله صلى الله عليه وآله: «علي أعلم الناس بالكتاب والسنة»^(٩).

لقد عاش عليه السلام في حضن النبوة والرسالة، وتغذى بالوحي الإلهي، وصار عليه السلام يأخذ علوم القرآن من الرسول صلى الله عليه وآله حتى ألمَّ

(٦) نهج البلاغة،

خطب الإمام علي عليه السلام

(تحقيق صالح): ص ١٧٩.

(٧) سورة العلق: ١.

(٨) آلاء الرحمن في

تفسير القرآن، محمد

جواد البلاغي: ج ٤،

ص ٣٨.

(٩) المعيار والموازنة،

الإسحاق: ج ٢، ص

١٠٢.

بها جميعاً، هذا في صغر سنه، وبعد أن كبر واستقل في السكن عنه فيها هو يتحدث عن حالته، فيقول عليه السلام: «وكنت أدخل على رسول الله ﷺ في كل يوم دخلة، وكل ليلة دخلة، فيخلني فيها أدور معه حيثما دار، وقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيري... وكنت إذا سألته أجنبي، وإذا سكت وفيت مسألتي ابتدأني، فما نزلت على رسول الله ﷺ آية من القرآن إلا أقرانيها وأملأها عليّ، فكتبتها بخطي، وعلمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وخاصها وعامها، ودعا الله أن يؤتيني فهمها وحفظها...»^(١٠).

لقد بين الرسول الأعظم ﷺ حكمه حول علاقة الإمام علي عليه السلام بالقرآن الكريم فقال: «علي مع القرآن والقرآن معه، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»^(١١).

وفي لفظ الحاكم: «علي مع القرآن والقرآن مع علي، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»^(١٢).

لقد ظلت هذه العلاقة تشتد يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة وأصبح الإمام علي عليه السلام يدافع عن قدسية القرآن وعظمته، وتحقيق مفاهيمه وتطبيق حدوده طوال حياته - كما أخبر بذلك الصادق الأمين ﷺ بقوله: «أنا أقاتل على تنزيل القرآن، وعلي يقاتل على تأويله»^(١٣)، لذا كان استشاده في سبيل تحقيق أهداف القرآن وترسيخ مبادئه.

(١٠) الخصال، الصدوق:

ص ٢٥٧.

(١١) المعجم الأوسط،

الطبراني: ج ٥، ص ١٣٥.

(١٢) المستدرک علی

الصحيحين، النيسابوري:

ج ٣، ص ١٢٤.

(١٣) الإصابة، ابن

حجر: ج ١، ص ١٩١.

لقد كان الإمام علي عليه السلام أعلم الناس بالقرآن وتأويله ووقت نزوله ومورده، فقد روي عن الأصمغ بن نباتة أنه قال: لما بويع أمير المؤمنين علي عليه السلام بالخلافة خرج إلى المسجد فقال: «سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله إنني لأعلم بالقرآن وتأويله من كل مدّع علمه، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو سألتموني عن آية لأخبرتكم بوقت نزولها وفيما نزلت»^(١٤).

وكان عليه السلام يعلم بجميع خصوصيات النزول من حيث الزمان والمكان كما يقول عليه السلام: «والله، ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت وأين نزلت»^(١٥).

ويقول عليه السلام: «سلوني عن كتاب الله، فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت أبليل نزلت أو بنهار، في سهل أو جبل»^(١٦).

كما نراه عليه السلام يعلم بالناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والخاص والعام، دون الصحابة والمفسرين الذين أشكل عليهم الناسخ والمنسوخ والخاص والعام، فلقد كان عليه السلام أعلمهم بذلك؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله كان يدعو له بذلك كما جاء في قوله عليه السلام: «ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله آية إلا أقرأنيها وأملاها علي فكتبتها بخطي، وعلمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وخاصها وعامها، ودعا الله لي أن يعطيني فهمها وحفظها فما نسيت آية من كتاب الله تعالى وعلماً أملاه علي وكتبته منذ دعا الله لي»^(١٧).

فعلم علي عليه السلام جاء من تعليم رسول الله صلى الله عليه وآله له، ثم من دعائه له في الفهم والحفظ.

(١٤) تفسير البرهان،

البحراني: ص ١٦.

(١٥) حلية الأولياء،

الأصبهاني: ج ١، ص

٦٧.

(١٦) أنساب الأشراف،

البلاذري: ج ١، ص ٩٩.

(١٧) الكافي، الكليني:

ج ١، ص ٦٤.

أن الإمام علي عليه السلام كان يفوق غيره في تفسير القرآن الكريم، وذلك بمعرفته بظاهره وباطنه، ذلك أن النبي ﷺ لم يعلم أحداً كما علم الإمام علي عليه السلام، وهذه المؤهلات والقدرات المتعلقة بالقرآن الكريم غذّاها ونماها النبي ﷺ ومن ذلك تعليمه الظاهر والباطن؛ لأن القرآن حمّال وجوه، وقد أقرّ علماء المسلمين وفقهاؤهم بأعلمية الإمام علي عليه السلام، فعن ابن مسعود أنه قال: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن علي بن أبي طالب عليه السلام عنده من الظاهر والباطن»^(١٨).

وقال عبد الله بن عباس: «والله لقد أعطي علي بن أبي طالب عليه السلام تسعة أعشار العلم وأئيم الله لقد شارككم في العشر العاشر»^(١٩).
لقد كان الإمام علي عليه السلام أعلم الصحابة بفقه القرآن وبالحلال والحرام والأمر والنهي والطاعة والمعصية، كما كانت قراءته عليه السلام للقرآن الكريم من حيث الطريقة والأسلوب والتجويد وغير ذلك مرجعاً لأئمة القراء.

لقد ظل الإمام علي عليه السلام مع القرآن الكريم في كل مراحل مسيرته وبذل جهداً في حفظه وتأويله وتفسيره، كما أنه قام بنشر ما جاء فيه من أحكام ومفاهيم واتخذه دستوراً له في جميع أعماله ونشاطاته فانعكس القرآن الكريم بمفاهيمه ومبادئه على أفكار الإمام علي عليه السلام ومفاهيمه وعقائده، وأصبح الإمام علي عليه السلام ترجمان القرآن للأمة الإسلامية وصدى القرآن، بل هو القرآن الناطق المتحرك، وهذا ما برز في سلوكه وأفعاله وأقواله، فإذا نظرنا إلى أقواله وخطبه التي تجسدت في «نهج البلاغة» والخطب

(١٨) الإنقان، السيوطي:

ج ٤، ص ٢٣٣.

(١٩) ينابيع المودة،

القندوزي: ص ٦٩.

الأخرى ترى مفاهيم القرآن ووعظه وحكمه وبلاغته وفصاحته قد صيغت بلسان الفصاحة والبلاغة وبأسلوب أمير المؤمنين عليه السلام. فنهج البلاغة هو في الحقيقة تفسير وتوضيح للقرآن الكريم، فقد كان فريداً في أسلوبه .. في فصاحته .. وبلاغته في حكمه في مواعظه وإرشاداته.. في تأثيره على قارئه وحافظه وسامعه، وليس من المبالغة إذا قيل فيه «إنه يعادل فوائد الدينية والأدبية كتب جميع العلماء والأدباء، كيف لا وهو تالي كتاب الله تعالى»^(٢٠). وقال ابن أبي الحديد: «وأما الفصاحة فهو عليه السلام إمام الفصاحة، وسيد البلغاء، وفي كلامه قيل: دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين.

ومنه تعلم الناس الخطابة والكتابة، وقال ابن نباتة: حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلا سعة وكثرة، حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب»^(٢١).

وأضاف ابن أبي الحديد: «... لقد احتوى نهج البلاغة عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية، وثواب الكلم الدينية والدنيوية، مما لا يوجد مجتمعاً في كلام، ولا مجموع الأطراف في كتاب، إذ كان أمير المؤمنين مَشْرَع الفصاحة ومَوْرِدَهَا، ومنشأ البلاغة ومَوْلِدَهَا، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها، وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سَبَق وقَصَّرُوا، وتقدم وتأخروا، لأن كلامه عليه السلام الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي، وفيه عبقة من الكلام النبوي»^(٢٢).

(٢٠) قاموس الرجال،

التستري: ج ٩، ص ٢٢٩،

رقم الترجمة ٦٦٤٤.

(٢١) شرح نهج البلاغة،

ابن أبي الحديد: ج ١،

ص ٢٤.

(٢٢) المصدر السابق:

ج ١، ص ٤٤ - ٤٥.

إن الخطب والحكم التي في نهج البلاغة اعتنت بالقرآن الكريم وحثت عليه قراءةً وحفظاً وعبرةً وتطبيقاً، بل كان الهدف الأساسي في «نهج البلاغة» هو القرآن الكريم الدستور الإلهي أن تطبق حدوده وتُنشر أحكامه، وتلتزم الأمة بمبادئه.

فها هو عليه السلام في وصيته إلى أولاده يقول: «الله.. الله في القرآن فلا يسبقكم إلى العمل به غيركم»^(٢٣).

لقد أراد الإمام عليه السلام أن يجعل من القرآن كتاب حياة يترى على يديه الإنسان المسلم ويتغذى على تعاليمه ليصاغ من خلاله المسلم الواعي القريب من القرآن بقلبه قبل جسده، فالتلاوة القشرية التي لا تنزل إلى مستوى الواقع والسلوك لا تخلق المؤمن الحقيقي الذي يرقى بمشاعره وأحاسيسه لإدراك المعاني العليا للقرآن الكريم، كما أنه عليه السلام كان يدعو دائماً الأمة بالتمسك بالقرآن والالتصاق به وجعله دستوراً في الحياة، كونه دواءً لأمراض الأمة بجميع أنواعها، فيقول عليه السلام:

«ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أَخْبِرْكُمْ عَنْهُ: أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمٌ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثُ عَنِ الْمَاضِي، وَدَوَاءٌ دَائِكُمْ، وَنَظْمٌ مَا بَيْنَكُمْ»^(٢٤).

ويوجه عليه السلام الأمة أيضاً إلى معرفة دور القرآن الكريم: «واعلموا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ... فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَانِكُمْ... فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ وَهُوَ: الْكُفْرُ وَالنَّفَاقُ وَالْغَيُّ وَالضَّلَالُ... واعلموا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ...

(٢٣) الكافي، الكليني:

ج ٧، ص ٥١.

(٢٤) نهج البلاغة،

خطب الإمام علي عليه السلام،

شرح الشيخ محمد عبده،

ج ٢ ص ٥٤ الخطبة ١٥٨.

وَاسْتَدْلُوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصَحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّهَمُوا عَلَيْهِ
آرَاءَكُمْ...» (٢٥).

إن عظمة الإمام علي عليه السلام وعلو مقامه وبلوغه أعلى مراتب
الكمال البشري كانت سبباً في تلك العلاقة الإنسانية التي نشأت
بين الإمام علي عليه السلام وبين الأمم الأخرى المتبعة للديانات
السماوية، فلقد تجاوز الإمام علي عليه السلام بسيرته الخالدة تلك حدود
زمانه ومكانه وأمتة ليكون سفير الإسلام والمسلمين إلى سائر
الأمم، وليلتقي بالإنسان أينما وجد وكيفما كان دينه ومعتقده
على مر العصور.

وفي ذلك يقول جورج جرداق: «وهل عرفت من الخلق عظيماً
يلتقي مع المفكرين بسمو فكرهم ومع الخيرين بحبهم العميق
للخير، ومع العلماء بعلمهم، ومع الباحثين بتنقيحهم، ومع ذوي
المودة بموداتهم، ومع الزهاد بزهدهم، ومع المصلحين
بإصلاحهم، ومع المتألمين بآلامهم، ومع المظلومين بمشاعرهم
وتمردهم، ومع الأدباء بأدبهم، ومع الأبطال ببطولاتهم، ومع
الشهداء بشهادتهم، ومع كل إنسانية بما يشرفها ويرفع من شأنها
ثم أن له في كل ذلك فضل القول الناتج عن العمل والتضحية
المتصلة، والسابقة في الزمان!... وسواء لدى الحقيقة والتاريخ،
أعرفت هذه العظيم أم لم تعرفه.

فالحقيقة والتاريخ يشهدان أنه الضمير العملاق، والشهيد
أبو الشهداء علي بن أبي طالب صوت العدالة الإنسانية
وشخصية الشرق الخالدة» (٢٦).

(٢٥) نهج البلاغة،
خطب الإمام علي عليه السلام،
شرح الشيخ محمد
عبده: ج ٢، ص ٩٢،
الخطبة ١٧٤.

(٢٦) انظر: صوت
العدالة، جورج
جرdaq: ج ١، ص ٤٩.

وبما أننا في هذا الجانب من البحث نتحدث عن الإمام علي عليه السلام وعلاقته بالقرآن الكريم فكان من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك من الآيات القرآنية الكريمة التي نزلت في حق الإمام علي عليه السلام ومن المفروض أن نتعرض لها من خلال الاستدلال بروايات ذكرت فيها أسباب النزول لهذه الآيات الكريمة:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٧).

روى الإمام القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»: قيل: نزلت في علي عليه السلام حين تركه النبي ﷺ على فراشه ليلة خرج إلى الغار (٢٨).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٩).

وقال القرطبي في تفسيره: «روي عن ابن عباس أنه قال: نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام كانت معه أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سراً وبدرهم جهراً» (٣٠).

وروى الزمخشري في تفسيره عن ابن عباس «أنزلت في علي عليه السلام لم يملك إلا أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سراً وبدرهم علانية» (٣١).

قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٣٢).

(٢٧) سورة البقرة: ٢٠٧.

(٢٨) تفسير الجامع

لأحكام القرآن،

القرطبي: ص ٨٢٩.

(٢٩) سورة البقرة: ٢٧٤.

(٣٠) الجامع لأحكام

القرآن، القرطبي: ج ٣،

ص ٣٤٧.

(٣١) تفسير الزمخشري،

الزمخشري: ج ١، ص ١٢٦.

(٣٢) سورة الحمد: ٥-٦.

روى الحاكم الحسكاني بإسناده عن ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: أنت الطريق الواضح، وأنت الصراط المستقيم، وأنت يعسوب المؤمنين»^(٣٣).

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾^(٣٤).

روى الحافظ سليمان القندوزي الحنفي بإسناده: «لما نزلت هذه الآية ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾. قالوا يا رسول الله هو «من»؟ فأقبل إليه علي، فقال: هذا هو الإمام الذي أحصى الله فيه علم كل شيء»^(٣٥).

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(٣٦).

روي الخوارزمي بإسناده عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾: «نزلت في رسول الله ﷺ وعلي خاصة، وهو أول من صلى وركع»^(٣٧).

وهناك آيات كثيرة تبين فضل ومكانة الإمام علي عليه السلام كآية المباهلة وآية المودة وغيرها من الآيات التي تجعلنا نعرف حقيقة شخصية الإمام علي الإيمانية والتي تدفعنا إلى محاولة الاقتداء به من خلال السير على نفس الطريق الذي سار فيه عليه السلام متحملاً أعباء ومشاقاً كبيرة.

إن الإمام علي عليه السلام لم يكن شخصية عادية، فقد مرّ بابتلاءات وامتحانات لو أن إنساناً آخر مرّ بها لتبلدت مشاعره وعطلت ملكاته ولما وجد العقل الذي يفكر ويقدر ولا اللسان الذي ينطق ويبيّن، ولكنه عليه السلام كان صاحب النفس الكبيرة العميقة التي تمرّ

(٣٣) شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج ١، ص ٥٨.

(٣٤) سورة يس: ١٢.

(٣٥) ينابيع المودة،

القندوزي: ج ١، ص ٢٣٠.

(٣٦) سورة البقرة: ٤٣.

(٣٧) المناقب،

الخوارزمي: ص ٢٨٠.

بها الأحداث المزلزلة والكوارث المكرّبة كما تمرُّ الأعاصير
بالجبال الشامخة فتتطاحن عندها وتتخاشع بين يديها وتتكسر
متداعية بين قدميها.

فكان لا بد لنا بعد هذا من دراسة لشخصية الإمام علي عليه السلام
كون تلك الشخصية حضارة أمة بأكملها، فقد شملت نواحي
الحياة المختلفة السياسية والاقتصادية والإنسانية والأخلاقية
والتربوية والنفسية وغيرها من الجوانب التي تعتبر أساساً لنجاح
حضارة الأمة.

إنَّ ضروب سيرة الإمام علي عليه السلام تمثل عن جدارة واستحقاق
«حضارة أمة في رجل» ولم تأت هذه التسمية من فراغ؛ لأن
ضروبها زاخرة بالكثير من العلوم والمعرفة والبلاغة والفصاحة
والفضائل والمحاسن والإنسانية والرحمة والفدائية والإقدام
والفروسية والجهاد والزهد والسخاء والكرم والإيثار ومكارم
الأخلاق والإدارة والسياسة والعقيدة والفلسفة والفقه والتفسير
والنحو والصرف وعلم الإلهيات والقراءات والكلام والرياضيات
والطب والفلك، ولتفرّده في جمع صفات الأضداد هذه استحققت
سيرته أن توسم بـ «السيرة المتفردة».

المصادر والمراجع

١. الترمذي، أبي عيسى محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق :
تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر
والتوزيع - بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م.
٢. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ
الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطا،
الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١٢ - ١٩٩٢ م.
٣. النيسابوري، الحافظ أبي عبد الله، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق:
يوسف عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار المعرفة بيروت - لبنان.
٤. الهيثمي، مجمع الزوائد، نور الدين علي بن أبي بكر، الناشر: دار
الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط. ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
٥. الشريف الرضي، نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام تحقيق صالح،
ط ١، ١٣٨٧ - ١٩٦٧ م.
٦. البلاغي النجفي، محمد جواد، آلاء الرحمن في تفسير القرآن،
مطبعة العرفان - صيداء، ١٣٥٢ - ١٩٣٣ م.
٧. الإسكافي، محمد بن عبد الله، المعيار والموازنة في فضائل الإمام
أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي،
بيروت، ط ١، ١٤٠٢ هـ. ق.
٨. الصدوق، الخصال، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري،
الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط
١٤٠٣ - ١٣٦٢ ش.
٩. الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، تحقيق:
طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار
الحرمين، القاهرة ط. ١٤١٥ هـ.

١٠. العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر، الإصابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٥ هـ.
١١. المتقي الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
١٢. البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية / مؤسسة البعثة - قم.
١٣. الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبد الله، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٤٠٩ هـ.
١٤. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، أنساب الأشراف .
١٥. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، الناشر: دار الكتب الإسلامية - طهران، ط ٥، ١٣٦٣ ش.
١٦. السيوطي، جلال الدين، الإتقان، تحقيق: سعيد المندوب، الناشر: دار الفكر - لبنان، ط ١، ١٤١٦ - ١٩٩٦ م.
١٧. القندوزي، سليمان بن إبراهيم، ينابيع المودة، تحقيق: سيد علي جمال أشرف الحسيني، الناشر: دار الأسوة للطباعة والنشر، ط ١، ١٤١٦ هـ.
١٨. التستري، محمد تقي، قاموس الرجال، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط ١، ١٤١٩ هـ / قم.
١٩. المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٣٧٨ - ١٩٥٩ م.
٢٠. المدرسي، السيد هادي، أخلاقيات أمير المؤمنين عليه السلام.
٢١. القرطبي، أبي عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٢٢. الزمخشري، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، المطبعة البهية المصرية - القاهرة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥ م.

٢٣. الحاكم الحسكاني، عبيد الله بن أحمد، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، الناشر: مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي - مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ط ١، ١٤١١ - ١٩٩٠ م.

٢٤. الخوارزمي، الموفق بن أحمد، المناقب، تحقيق: الشيخ مالك المحمودي - مؤسسة سيد الشهداء عليه السلام، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤١١ هـ. ق.

مقومات الإعلام الإسلامي

نظرة قرآنية

(ق ٢)

وظائف المؤسسة الإعلامية

في القرآن الكريم

الشيخ ضياء بلاسم المنصوري

باحث إسلامي

المقدمة

استكمالاً لحلقات الأبحاث القرآنية السابقة في رسم معالم
نظرية إعلامية تُستنتق أسسها وضوابطها من روح آيات القرآن
الكريم، لتضع أهم البناءات العلمية في تطوير النظرية الإعلامية
وبيان الممارسات الخارجية التي وضعت ضمن تخطيط إلهي
معصوم، الأمر الذي أكسبها تميزاً ملحوظاً أمام النظريات الوضعية
التي ابتعدت عن الأخلاقيات المهنية في عملها فضلاً عن إضفاء
صبغة روحية وإنسانية على ممارساتها الخارجية، بل راحت
تتجاوزها المصالح الفئوية والشخصية والمطامع الدنيوية مما أفقدها
التأثير في المتلقي، وهو جانب يمثل أسس النظرية الإعلامية القرآنية،
ومن أهم دعائمها التي تبتني عليها في إقناع الناس واستمالتهم
لصالح الرسالة التي يراد إيصالها.

وظائف المؤسسة الإعلامية في القرآن الكريم

المسؤولية والواجب لا تنحصر بشخص معيّن، بل يتحمّل كل شخص جزءاً منها بحسب مكانته وموقعه، فالوظائف التي يبيّنها القرآن الكريم للقائم بمهمّة تبليغ الرسالات لا تنحصر بالقائمين بالتبليغ والإعلام فحسب، بل هي واجبة على جميع المسلمين من علماء، ومفكرين، وخطباء، ودعاة، وأساتذة، وطلاب، وكتاب، وإعلاميين.

ويمكننا أن نسلط الضوء على وظائف الإعلام الإسلامي في مختلف المجالات والأصعدة قدر الإمكان وهي كالآتي:

أولاً: الوظائف الدّينية:

يعتبر الدّين المحرّك الأساسي لعمل الإنسان وسلوكه، ويشعر الإنسان بالحاجة إليه بدافع الفطرة البشرية المودعة في قراره، وهو الذي ينظّم عمل ونشاط الإنسان على مدار اليوم ويحفّزه على فعل الخيرات والابتعاد عن المنكرات، ومن أهم الوظائف الدّينية التي ينبغي التأكيد عليها هي:

أ - محورة العمل الإعلامي حول الإيمان بالله تعالى

الإيمان بالله تعالى حاجة فطرية، وإستجابة لنداء داخلي، فالإنسان يميل بالفطرة منذ ولادته إلى الحاجة للدين والمعتقد، وهذا المعتقد إما صحيح وإما فاسد، والفطرة تعني الإيمان بالله تعالى، قال سبحانه: ﴿فَطَرَهُ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾^(١).

وعلى العكس فإن الابتعاد عن الإيمان بالله تعالى يحوّل المجتمع إلى فوضى عارمة، وإلى غابة مليئة الذئاب، حتى لو بلغ بها التطوّر

(١) سورة الروم: ٣٠.

العلمي والتكنولوجي أن يغزو الفضاء ويأتون بأحجار من القمر، فإن هذا المجتمع لا يعرف السعادة طالما الإيمان بالله تعالى ليس في قلبه، فالتطور أوصلهم إلى المريخ ولكن لم يستطع أن يمنحهم إيماناً وأخلاقاً تمنع تحولهم إلى وحوش كاسرة.

والأنظمة الوضعية بمفردها غير قادرة على كبح جماح النفس المتهورة أو ضبطها وإيقافها عند حدودها.

نعم، ربما يستطيع القانون المدني من خلال العقوبات الجزائية أن يردع الناس بمستوى محدود ولكن لا يضمن الأمن الاجتماعي ومراعاة الحقوق كاملة.

فإن هذا اللون من الكوابح تنفع طالما السلطة التنفيذية والقانونية قوية وحازمة، ولكن بمجرد غيابها أو ضعفها تتحول الحياة إلى فوضى.

(٢) سورة الأنفال: ٢٤.

(٣) سورة الرعد: ٢٨.

بينما يعتبر الدين من الكوابح الداخلية التي تمنع الإنسان من تجاوز الحدود في جميع الظروف والأحوال ومع وجود الرقابة الخارجية وبدونها.

فعلى الدعاة إلى الله عرض تعاليم القرآن ونشرها في الأوساط لتصبح هي المحرك الرئيس لأفعال الإنسان وممارساته، فإن كل إنسان يتحرك من وحي الثقافة التي تربي في ظلها، وعليهم إنجاز هذه الوظيفة بجد وتفان، قال تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٣).

ب - إقناع الناس بضرورة الاتجاه الروحي

ينبغي العمل على لفت الناس إلى الاتجاه الديني والروحي وإبعادهم عن الاتجاه المادي البحت وعن الإلحادية التي تعصف بالمجتمعات اليوم من خلال بيان مآلها، وما جرّت من ويلات على حياة البشر، وإبراز فشلها الذريع، والتركيز على أسباب بروز ظواهر الإلحاد بين الشباب، ورد الشبهات التي أوجبت لهم الانحراف والإلحاد من خلال تسليط الأضواء على العلوم الحديثة كالهرمونيطيقا والتأويلية^(٤)، والشبهات حول النص الديني، والوحي، ووحانية القرآن، وما شاكل ذلك.

فالشيعوية تعتبر أن الدين أفيون الشعوب، ولا بد من أن تتحرّر الشعوب من قيود الالتزام بالدين، ليعيش الإنسان حرّاً، متصورين أن الحرية تعني الفوضى العارمة، والانفلات، وغياب الوازع الديني والأخلاقي من المجتمعات.

وقد أثبت الواقع فشل هؤلاء في أنظمتهم؛ لأنها أنظمة من صنع أفكار البشر وبنات أفكارهم التي تفتقر إلى الإحاطة والرؤية المستقبلية لمصير الإنسانية.

ومن أهم السبل التي تحقّق هذه الوظيفة الكبرى هي وسائل الإعلام و الصحافة؛ إذ تقوم بترجمة وتفعيل أوامر القرآن إلى واقع ملموس، والعمل الدؤوب لإقناع الناس بهذه المهمة، وحل مشاكل المجتمع بالالتجاء إلى الدين حسب خطة مدروسة تقوم على حسن عرض الأفكار الإسلامية، واستنطاقها للواقع، ومواكبتها للظروف المتغيرة من خلال تسليط الأضواء على الموضوعات المتغيرة في الدين الإسلامي، إذ يكشف هذا الجانب عن حيوية الإسلام،

(٤) تعتبر الهرمونيطيقا والتأويلية من المصطلحات التي كثر الجدل حولها، فمنهم من اعتبرهما مفهوميّن، ومنهم من اعتبرهما لفظيّن دالّين على معنى واحد. وتعني: فن فهم وتفسير وتأويل النصوص الدينية وإدراك المعاني المعسقة لها بغض النظر عن المعنى الحرفي، وإيصال معاني النص الإلهي إلى البشر، وقد تعدى مفهوم الهرمونيطيقا من فهم النصوص الدينية إلى تأويل النص في العلوم الإنسانية بالطريقة التي كتبها الكاتب، من خلال معرفة آلياته الفكرية والأدبية وغيرها، كل ذلك بقصد التوصل إلى الفهم السليم للنص الديني وتجاوز مرحلة سوء الفهم للنص إثر المتغيرات المتنوعة كاختلاف المناهج والعلوم والأفق المعرفي، ومن أجل إعطاء معنى ملائم للزمان وللظروف يخرج النص عن غرابته.

وقابلية تطبيقه، وصلاحيه مسيرته للواقع، وتماشيه مع الحاجة.

ج - الإنذار والتبشير

الترغيب والترهيب من أهم العوامل في استقامة الإنسان وتوازنه، فالترغيب وحده يوقع الإنسان في التسويف والإهمال، والترهيب وحده يزرع اليأس والقنوط ويقتل التفاؤل، ولكن إذا اجتمعا حققا التوازن في سلوك الإنسان وعمله، ومن الآيات القرآنية التي جاءت في سياق الترغيب، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(٦).

ومن الآيات التي سيق للترهيب، قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٧).
وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُبَدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٨).

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾^(٩).

ومن خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الترغيب والترهيب أنه قال: «ألا فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة، ألا وأني لم أر كالجنة نام طالها، ولا كالنار نام هاربها...»^(١٠).

(٥) سورة النساء: ١٢٢.

(٦) سورة الزمر: ٧٣.

(٧) سورة الزمر: ٧١.

(٨) سورة البقرة: ٢١١.

(٩) الحجر: ٥٠.

(١٠) الإمام علي عليه السلام،

نهج البلاغة، تحقيق:

الشيخ محمد عبده، ج ١،

ص ٧٢ الخطبة رقم: ٢٨.

د - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من أعظم الوظائف للقائمين بالإعلام الإسلامي تذكير الناس بالمعروف والخير، وخلق الزواجر والروادع عن المنكرات، فالقرآن يصف النبي ﷺ قائلاً: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١١).

يقول الرسول ﷺ: «من رأى منكم منكراً فلينكر بيده أن استطاع، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، فحسبه أن يعلم الله من قلبه أنه لذلك كاره»^(١٢).

فقام الرسول ﷺ بتغيير المجتمعات الجاهلية إلى مجتمعات يسودها المحبة، وتتعامل بالرافة، والرحمة، والخلق الرفيع، أثر أمره ﷺ بالمعروف، ونهيه عن المنكر.

وعليه، فينبغي على المبلغين اتباع منهج القرآن ومنهج الرسول ﷺ في القيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١٣).

هـ - إعادة الأمة إلى التمسك بكتاب الله عز وجل

ينبغي على رجال الإعلام الإسلامي العمل على إشاعة الرؤية القرآنية الشاملة لمناحي الحياة استجابة لله تعالى والرسول ﷺ إذا دعانا لما فيه حياتنا، فإن قيام الإعلام بهذه الوظيفة يحمل الأمة على التمسك بتعاليم القرآن ويحصنهم من التراجع عنه أو الاستعاضة عنه بأي قانون وضعي، وهذا يعتمد على ثقافة رجل الإعلام وتسلحه بتعاليمه ليقدم للمتلقي صورة ناصعة عن تعاليم

(١١) سورة الأعراف:

١٥٧.

(١٢) وسائل الشيعة،

الحر العاملي، ج ٦،

ص ١٣٥، باب الأمر

والنهي بالقلب ثم

باللسان ثم باليد، ح ١٢.

(١٣) سورة آل عمران:

١٠٤.

القرآن كحلول ناجعة للأزمات التي تمرُّ بها البلدان الإسلامية وغيرها.

و - اتخاذ أهل البيت عليه السلام قدوة وأسوة في العمل الإعلامي إن جعل الإنسان لنفسه مثلاً وقدوة يأتي من ضرورة تقييم الأعمال وحملها على المنهج الصحيح، لا سيما ونحن نعيش القرن الواحد والعشرين، حيث افتقدنا المثل الأعلى، فعبأت عقول الشباب وعاطفتهم نحو القسوة، والمادية، وأهملت الجانب الروحي، فكان لزاماً أن نسترجع حياة أمجادنا وقادتنا لتلمس في تاريخهم المثل الأعلى الذي يجسّد الإنسانية، والإيمان، والقيم الأخلاقية.

ولا يمكن معالجة هذه الأزمات بالأفكار الجامدة دون أن نحولها إلى واقع حي، تتمثل في سلوك إنسان، لتكون هذه الفكرة أكثر فاعلية في النفوس، ففرق بين أن نقرأ عن الإحسان، وحسن الخلق، والعفو، والكرم، وبين أن نقف على حياة الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ونستوحي منها هذه المضامين الأخلاقية، ونستعرض موقف الرسول صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة، وموقف الإمام علي عليه السلام يوم الجمل، وعفوه عن أهل البصرة كما عفى الرسول صلى الله عليه وآله عن أهل مكة.

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (١٤).

ومن هنا ينبغي تقديم الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام كنموذج حيٍّ ومثال يُحتذى بهم في مجال العمل الإعلامي، وتسليط الضوء

على سيرتهم العطرة وأخلاقهم الفذة لتتأسى بها الأمة أجمع.
وكان الأئمة عليهم السلام لديهم نشاطات تبليغية وإعلامية ينشرون من خلالها تعاليم الإسلام ويربّون تلامذتهم عليها، بل يعكفون على تربية العبيد سنة كاملة تكون بمثابة دورة تعليمية مكثفة، ثم يطلقونهم بين الحجاج ليرجع كل واحد منهم مع قافلة إلى مختلف البلدان، وهكذا استطاعوا من نشر الإسلام وتعاليمهم في شرق الأرض وغربها.

ز- الدعوة إلى الإسلام بالتي هي أحسن

من وظائف الداعية والإعلامي هو طرح المضامين الإسلامية في مختلف مجالات الحياة بأسلوب لّين من غير إكراه للمتلقي، بل يترك أمر القبول إلى عقلية المستقبل والافتناع بالإسلام، ويُعطى فرصة لينعم باحترام عقله ليحسن الاختيار، فالأفكار غير قابلة لنظرية الفرض والقوة، وتأباه العقول والنفوس، يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(١٥)، وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١٦).

من هنا يقول الإمام الرضا عليه السلام: «... فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مُحَاسِنَ كَلَامِنَا لَا تَبْعُونَا»^(١٧).

فينبغي أن يمارس الإعلام وظائفه بالموعظة والحكمة؛ لأنه يعكس وجه الدين الإسلامي ولا يجوز تشويه صورة الإسلام مهما كانت المبررات والغايات.

ح - مواجهة التيارات المنحرفة

من أهم وظائف الإعلام الإسلامي نشر الفكر الأصيل للإسلام

(١٥) سورة البقرة: ٢٥٦.

(١٦) سورة النحل: ١٢٥.

(١٧) عيون أخبار

الرضا عليه السلام، الصدوق:

ج ٢، ص ٢٧٥.

ومحاربة الأفكار الدخيلة، والتيارات المتطرّفة، والأفكار الفاسدة، كالإلحاد والتكفير، والتشكيك في ثوابت الدين، وهذه المفردات وغيرها بدأت تجتاح المجتمع الإسلامي بكافة مستوياته.

وتتحقق المواجهة الجادة من خلال إعداد البرامج العقديّة، والفكرية، والثقافية، من قبل المختصين وعرضها بشكل حلقات عبر وسائل الإعلام المختلفة والمتنوعة، المرئية، والمسموعة، والمكتوبة، ولابد من تقديم الدراسات والأبحاث الموضوعية التي تعتمد على الأسس العلمية المتينة بحيث يكون لها قابلية الإقناع والاستمالة والإجابة على التساؤلات التي تدور في خلد الشباب أو التي يُروّج لها من خلال قنوات الفتنة والتطرّف التي لا تريد الخير للأمة الإسلامية، وتعمل على زعزعة إيمان الشباب وعقائدهم؛ لتجعل منهم أداة طيّعة بيد المستعمرين والمستشرقين الذين توغل الكثير منهم بداعي ضرب الفكر الإسلامي، وتوظيف الخلافات المذهبية لتوسيع الهوة بين طوائف المسلمين، وإلقاء الشبهات في أذهان الشباب المتأثرين بالأفكار المستوردة، والثقافة الغربية التي راح الكثير منّا الترويج لها دون معرفة وإدراك لمحتوها وغاياتها. وربما كان الدافع الأكبر لذلك هو الانبهار بها وحب الاطلاع عليها كبديل عن الثقافة الإسلامية، رغم أننا نجد العمق الفكري والثقافي والديني في عموم المنظومة الدينية، شريطة التنقيب في نصوصها، واستثارة مضامينها بما يساير الواقع.

ومشكلة الانبهار بفكر وعقيدة الآخرين حكى القرآن لنا عنه

لنتعص به ونحذر منه، وذلك حينما جاوز الله تعالى بموسى وقومه البحر وجدوا قوماً عاكفين على عبادة الأصنام ولم يكونوا من الحصانة العقدية ما يمكنهم من عدم التأثر بذلك المحيط المنحرف: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨).

ويتحمل مسؤولية ذلك كل من له إمكانية علمية وفكرية في الدفاع عن بيضة الإسلام وثغوره العقدية والفكرية، من العلماء، والمحققين، والباحثين، والمثقفين.

وتلعب وسائل الإعلام دوراً ريادياً في نشر هذه النتائج العلمية وتكوين رأي عام من خلال تسليط الأضواء عليها وإلفات الناس لها وتوجيههم نحوها.

(١٨) سورة الأعراف:

١٣٨ - ١٣٩.

وإذا ما رجعنا إلى القرآن الكريم نجده يجسد لنا صوراً رائعة في إصلاح أفكار الناس وبث عقيدة التوحيد، ففي صورة تمثيلية مؤثرة في قصة يوسف النبي ﷺ، بينما هو يفسر للسجناء الذين معه تأويل رؤياهم، وهم في حالة انجذاب وشد نحوه واضعين مكان التأثير في نفوسهم لبيانه الساحر، إذ اعترض كلامه بدعوتهم نحو التوحيد موظفاً الحالة العاطفية التي هم فيها لنقلهم إلى أجواء عقائدية ورحلة نحو خالق الأكوان، ثم يرجع من رحلته التوحيدية ليكمل لهم تأويل رؤياهم، قال تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ *

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ
بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ
اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا
إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَا صَاحِبِي
السَّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ
الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿١٩﴾.

٢- الوظائف التربوية

لقد أولى القرآن الكريم أهمية بالغة في مجال التربية والتهذيب
إذ هما الأساس في صلاح المجتمعات التي تنعم بالرفاه، والأمن،
والسعادة في ظل تعاليم الإسلام، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *
وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(٢٠)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا
أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^(٢١)، وغير ذلك
من الآيات التي أشارت إلى ضرورة التربية.

ومن هنا فإن المؤسسة الإعلامية التبليغية والإرشادية تستمد
مشروعية عملها في صناعة أمة رسالية تهتم بالجانب التربوي من
صميم القرآن والسنة، وكل عمل يؤدي هذا الدور فإن القرآن
يضيف عليه مشروعيته وتأثيره.

ثم أن الوظائف التربوية لها مظاهر مهمة، منها:

أ- بناء شخصية الشبيبة تربوياً وفق الأسس الإسلامية
أصبحت وسائل الإعلام بمختلف أنواعها السمعية والمرئية

(١٩) سورة يوسف:

٣٧ - ٤١.

(٢٠) سورة الشمس:

٩ - ١٠.

(٢١) سورة التحريم: ٦.

مفردة مندمجة في حياة الناس، قد سيطرت بسحرها الجذاب على عقول وقلوب الناشئة والشباب بشكل استهوتهم وشلت إرادتهم، وقد أسهمت هذه الوسائل بما لها من قوة إستمالة وإقناع في بناء شخصية الطفل ونموه التربوي، والعقلي، والعاطفي، والاجتماعي، والثقافي....

فالتلفاز يعبر عنه علماء التربية أنه «الأب الثالث» للإنسان، لذا أفتى الفقهاء بحرمة استخدام التلفاز في المجالات المحرمة، وجواز استخدامه في المجالات المحللة.

من هنا تتضح حجم المسؤولية على المؤسسات التبليغية تجاه الجيل الصاعد والاهتمام به تربوياً والعمل على صناعة وبناء شخصيته وفق الثقافة الإسلامية التي تستوحي تعاليمها من القرآن والسنة. ومما يؤسف له أن أغلب وسائل الإعلام اليوم تعمل على ضرب المنظومة التربوية لدى الأسرة المسلمة، وتزخر ببرامجها بالمشاهد المخلة بالأدب، بحيث رُوج لثقافة التعري، والسقوط، والتحلل، وانعدام العفة، والحياء وبث الأفلام المثيرة، والموسيقى الصاخبة، والغناء الهابط، وغير ذلك من الأمور التي لا تَمُت إلى الثقافة القرآنية والإسلامية بصلة.

ب- التوجيه والتوعية

يبدأ التوجيه والتوعية كوظيفة أساسية للمؤسسات الدينية، والتبليغية، والعاملين في مجال الدعوة الإسلامية، من المدرسة ويرافقه إلى آخر عمره مروراً بالأسرة، والمجتمع، والبيئة، و«يعد الإعلام من أهم مصادر التوعية، إذ يعاون على أن يلّم الأفراد

بالحقائق التي تساعد على تنمية مداركهم، وإنضاج وعيهم. ويقصد بالتوعية إيجاد الوعي، وإكسابه للأفراد والجماعات لحملهم على الإقناع بفكرة معينة أو رأي، واتخاذ منهج سلوكي معين»^(٢٢).

من هنا دعا الإسلام إلى بث روح الوعي بنشر العلم والتعليم، وتوضيح الحقائق، والوقوف على مجريات الأحداث، وعدم التبعية غير الواعية، فعن الفضل قال: قال لي أبو الحسن موسى الكاظم عليه السلام: «أبلغ خيراً وقل خيراً، ولا تكونن إمعة، قلت: وما الإمعة؟

قال: لا تقولنّ، أنا مع الناس وأنا كواحد من الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: أيها الناس إنما هما نجدان، نجد خير، ونجد شر، فما بال نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير»^(٢٣).

ج - الاهتمام بتنمية القطاع التعليمي وتطويره

اهتم القرآن الكريم اهتماماً بالغاً بجانب التعليم والتزكية، ورفع الجهل، والنهوض بالمجتمعات نحو الرقي، والعلم، والإزدهار، فعن عبد الله بن عمرو قال: «خرج رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم من بعض حجره فدخل المسجد فإذا هو بحلقتين، أحدهما يقرؤون القرآن ويدعون الله، والأخرى يتعلمون ويعلمون، فقال النبي صلى الله عليه وآله: كل على خير، هؤلاء يقرؤون القرآن ويدعون الله، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون، وإنما بعثت معلماً فجلس معهم»^(٢٤).

وينبغي العمل على إبراز جانب التعليم وإعطائه حيزاً كبيراً من

(٢٢) المدخل

السيولوجي للإعلام،

النكلوي: ص ٨٠.

(٢٣) بحار الأنوار،

المجلسي: ج ٢، ص ٢١،

الباب الثامن، ثواب

الهداية والتعليم وفضلهما

وفضل العلماء وذم

إضلال الناس، ح ٦٢.

(٢٤) سنن ابن ماجه،

القزويني: ج ١، ص ٨٣،

باب من بلغ علماً.

أنشطة الإعلام الإسلامي، والاستفادة من التقنيات الحديثة لنشر العلم والتعليم، ونقل الدروس الأكاديمية، والدينية، على شاشة التلفاز، والراديو، والأترنت، وإتاحة فرصة التعليم عن بُعد لمن لا تسمح لهم الظروف الشخصية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو السياسية، أو غير ذلك.

د- إعطاء الانطباع الطيب عن المسلمين

شرّ الناس من لا يبالي ماذا يقول وما قيل فيه، وجاء في تعاليم القرآن الكريم ضرورة عدم نقل الوقائع التي تثير حساسية العدو، ونقل الخلافات الداخلية وتدويلها، فتفتح الباب أمام العدو على مصراعية للنفوذ والكيد بمصالح المسلمين، فيحكي لنا القرآن أن يوسف النبي ﷺ بعد أن أخبر أباه برؤياه أوصاه أبوه: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ (٢٥).

من هنا أكد أهل البيت ﷺ على ضرورة التخلّق بأخلاق الإسلام ليكون الداعية داعيةً إليهم بحسن الأفعال، والخلق الرفيع، يقول الإمام الصادق ﷺ: «معاشر الشيعة كونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً، قولوا للناس حسناً، واحفظوا ألسنتكم وكفوها عن الفضول، وقبح القول» (٢٦).

يقول الدكتور عبد الحليم محمود: «أن الغربيين يستمدون فكرتهم عن الإسلام من مجرد رؤيتهم للمسلمين، فإنهم يرون المسلمين متخاذلين ضعفاء أذلاء مستكينين، فرّقت بينهم الأهواء والشهوات، وقعدت بهم الصغائر، وانصرفوا عن عظام الأمور، وأصبحوا مستعبدين مستذلين، ولو كان الإسلام ديناً قوياً، لما كان المسلمون هكذا» (٢٧).

(٢٥) سورة آل عمران:

١١٨.

(٢٦) بحار الأنوار،

المجلد ٦٥، ج ٦٥،

ص ١٥١، الباب الثامن

والسبعون، في حفظ

اللسان، ح ٤١.

(٢٧) الأسس العلمية

والتطبيقية للإعلام

الإسلامي، عبد الوهاب

كحيل: ص ٧٦.

إن هذا التصوّر السيء عن حالة المسلمين جاء كرد فعل لأعمالهم السيئة، وإننا لا ننكر أن بعض التصورات جاءت من إعلام معادي، ومن قلة إطلاع على أوضاع المسلمين إلا من خلال قنوات تعطي صوراً سوداوية عن طبيعة حياة المسلمين، كما لا نكابر على حقيقة تدهور وتراجع حالة المسلمين نتيجة ابتعادهم عن تعاليم الإسلام.

ومن هنا يوظف الإعلام الإسلامي طاقاته لتحسين سمعة الإسلام من التشويه، والتمييز بين واقع المسلمين المتردي وحقيقة الإسلام النزيهة، فقد نرى إسلاماً ولا نرى مسلمين، كما قد نرى مسلمين ولا نرى إسلاماً؟!

٣- الوظائف الاجتماعية

من أهم ما ركّز القرآن عليه في مجال عمل المؤسسة الإعلامية هو: تحديث المجتمع وتطويره ورقّيه والنهوض به إلى سُلّم الكمال والمعرفة، لا سيما وقد أصبحت وسائل الإعلام سمة المجتمع الحضاري التي تقوم بضبط وتسجيل تاريخ الشعوب وحضارتها، فلا يمكن أن نتصور مجتمعاً من المجتمعات دون أن نرى حضوراً واسعاً لوسائل الإعلام تربط بين أفرادها وبين المجتمعات الأخرى، وهي الآذان والعيون المراقبة لحالات المجتمع للقيام بالدراسات الاجتماعية، والنفسية، ومعرفة الرأي العام.

وتتمثل الوظائف الاجتماعية في عدة أمور منها:

أ- إقامة العدالة الاجتماعية

من أهم ما عانت منه البشرية على امتداد التاريخ منذ أن خلق

الله الأرض ومن عليها، مسألة العدالة الاجتماعية.

فقد قامت الحكومات على أساس التفاضل والتمييز بين طبقات المجتمع مما أدى إلى إتساع الهوة بين أفراد المجتمع، وتفرق المجتمع إلى تكتلات وأحزاب وشيع، وعندما نرجع إلى القرآن الكريم نجد أنه يحدد وظيفة الأنبياء عليهم السلام في تخليص الأمم من ظاهرة التمييز وإقامة العدالة الاجتماعية، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٨).

ومن جانب آخر أمر الناس بإقامة القسط، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (٢٩).

فالواجب تعزيز هذا المبدأ القرآني الاجتماعي وتنقيف المجتمع عليه لتسود قيم السماء وينعش المجتمع من خلال التعامل بتعاليم القرآن الكريم.

ب- دعوة الناس إلى الحرية من قيود الظالمين

أرسل الله سبحانه الأنبياء عليهم السلام ليخلصوا عباده من عبادة الظالمين والمستكبرين إلى عبادته سبحانه، ومن أجل تكسير قيود الذل والخنوع، والعيش في ظل الحرية التي تجعل من الإنسان إنساناً مفكراً وعالماً، ومبدعاً، قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (٣٠).

من هنا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً» (٣١).

(٢٨) سورة يونس: ٤٧.

(٢٩) سورة الحديد: ٢٥.

(٣٠) سورة الأعراف: ١٥٧.

(٣١) نهج البلاغة،

تحقيق الشيخ محمد

عبده: ج ٣، ص ٥١.

وعلى هذا الأساس قارع الأنبياء ﷺ جبروت الطغاة، قال تعالى لموسى ﷺ: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٣٢).

لذا يستوجب على الإعلام الإسلامي القيام بهذه الوظيفة ومجابهة الظالمين، وعدم المداهنة والمجاملة معهم طمعاً بما في أيديهم، وفضح زيفهم، وتأليب الرأي العام ضدهم، وتوعية المسلمين، بل والناس أجمع بخطورتهم والتحذير من منكراتهم وسياساتهم التي تجعل من الشعوب قطعياً من الأغنام تنساق وراء سياسات المستعمرين، مستمدين مشروعية هذا العمل من آيات القرآن الكريم ومن سيرة النبي ﷺ وأهل بيته الطاهرين ﷺ.

ج - إشاعة ثقافة السلم واللاعنف.

الإسلام يحمل رسالة السلام والمودة والمحبة، ومن أسلم يسلم ويحقن دمه وماله وعرضه، يقول الإمام الصادق ﷺ: «المسلم من سلم الناس من يده ولسانه» (٣٣).

فالعنف لا يأتي إلا بالنتائج الوخيمة والسيئة، لا سيما في عصرنا الحاضر، حيث تطورت الأسلحة في تقنياتها، وأصبح بالإمكان إبادة الملايين بالضغط على زر للتحكم بقبلة نووية لها القدرة على إبادة دولاً بالكامل، لذا يقول أمير المؤمنين ﷺ «من عامل بالعنف ندم» (٣٤).

يقول الإمام الباقر ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف» (٣٥).

وثقافة السلم واللاعنف يجب أن تتمثل بها جميع جوارح الإنسان، فاليد يجب أن تكون غير عنيفة، واللسان يجب أن يكون

(٣٢) سورة طه: ٢٤.

(٣٣) معاني الأخبار،

الصدوق: ص ٢٣٩.

(٣٤) موسوعة أحاديث

أهل البيت ﷺ،

النجفي: ج ٧، ص ٣٤٦.

(٣٥) وسائل الشيعة،

الحر العاملي: ج ١١،

ص ٢١٣، باب استحباب

الرفق في الأمور، ح ٢.

غير عنيف، والقلم يجب أن يكون غير عنيف . قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٣٦).

إن من وظائف المؤسسة الإعلامية تثقيف الناس على السلم وعدم العنف والقسوة، وإبعاد المجتمع عن كل ما يهدد السلم الأهلي، والتعايش الاجتماعي، والمذهبي، والقومي، والديني، وإبعاده عن كل ما يهدد أمنه وسلامته وإستقراره، وأن تنأى ببرامجها عن المظاهر العنيفة في الأفلام، والمسلسلات، والبرامج الوثائقية، والصور الشنيعة، ومظاهر التعذيب، والقتل، والدمار، لأن كل ذلك له مردود سلبي على ثقافة المجتمع، وعلى نفسية وأخلاقية الأطفال والناشئة.

(٣٦) سورة النحل: ١٢٥.

(٣٧) سورة الأنفال: ٦١.

نعم، ثقافة السلم لها حدود، فما لم يعلن الآخر الحرب والقتل والدمار، فالواجب التعامل معه بسلم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ (٣٧).

والسبب الرئيس لظهور العنف، والقتل، والتكفير، هو: اعتقاد الإنسان أنه يمتلك الحقيقة المطلقة، فإذا اعتقد الإنسان ذلك، فإنه لم يدع للحوار والنقاش واحتمال الخطأ مجالاً.

ولذا ينتج عن هذا التصور الموهوم إقصاء الآخرين وتكفيرهم، عندها لا يكون هناك خياراً إلا المواجهة بالقسوة والسلاح، وهذه معادلة تكشف عن الواقع المعاش اليوم في عموم البلدان الإسلامية التي تشهد تطرفاً واضحاً من قبل بعض العصابات التكفيرية.

٤- الوظائف الثقافية

تعتبر الثقافة إحدى مقومات المجتمعات والشخصية الفردية، كما تعتبر المحرك الأساسي لعمل الإنسان، فإن أعماله تُقِيم على أساس الثقافة التي تغذى بها ونشأ وترعرع في ظلها، فالمسلم يتحرك في أعماله من وحي الثقافة القرآنية، والسيرة النبوية، والعلوية، هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن وسائل الإعلام تلعب دوراً محورياً في تغذية الفرد والمجتمع بنوع الثقافة التي تُبَث من خلال وسائلها.

ومن أهم مظاهر الوظائف الثقافية، هي:

أ- فرز الثقافة الإسلامية عن الثقافة الدخيلة

لقد أصبحت وسائل الإعلام عامل من عوامل تكوين وصياغة الإنسان وبناءه العقلي وإعداده الروحي.

وقد شكّل إلغاء الحواجز الزمنية والمكانية لوسائل الاتصال الجماهيرية عاملاً يهدّد المجتمعات من ضياع ثقافتها وذوبانها بالثقافات الدخيلة، لا سيما ونحن نعيش في زمن العولمة التي تشكّل خطراً على ثقافة المجتمع الإسلامي، إذ تقضي العولمة بتعميم ثقافة موحّدة وإلغاء خصوصية ثقافة كل أمة وتقاليدها؛ وهذا ما يجعل العاملين بالإعلام والتبليغ والإرشاد أمام مسؤولية كبرى تجاه التحديات الغربية، والحملات العدائية الشرسة تجاه أمتنا الإسلامية، ولا بد أن تعمل للحيلولة دون انخراط الكوادر الشبابية وراء أبواق الثقافات الغربية المغرضة، والقيام بكشف وتمييز الثقافة الغازية من الثقافة الأصيلة، فإن أي ثقافة تأتي من

غير منبع الدِّين الإسلامي هي متهمة حتى تثبت براءتها، يقول الرسول ﷺ: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدي عن الله عزَّ وجلَّ فقد عبد الله، وإن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان»^(٣٨).

ويقول الرسول ﷺ أيضاً: «لا تجلسوا عند كل داع مدَّع يدعوكم من اليقين إلى الشك، ومن الإخلاص إلى الرياء ... وتقربوا إلى عالم يدعوكم من الكبر إلى التواضع، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الشك إلى اليقين...»^(٣٩).

فهناك كمٌّ هائل من الكتب، والمجلات، والمقالات، والفصائات التي تبثُ سمومها لتحطيم القوى الإيمانية والثقافية لمجتمعاتنا، وهي تحمل أفكاراً هشة ودسائس وتزوير للحقائق.

إن مجتمعاتنا اليوم تعاني من أمراض ثقافية أكثر مما تعاني من الأمراض البدنية بسبب عدم الاهتمام بغذاء الروح والفكر، ومما يؤسف له تخلي الكثير من وسائل الإعلام عن هذه الوظيفة، حيث انساق رجال الإعلام وراء الدعاية الغربية التي استهوت قلوبهم حتى جعلت منهم رجال بغاء يحاكون أفعالهم دون فهم أو وعي. يقول أحمد رأفت بهجت -الناقد السينمائي-: «أن دور العرض السينمائي خاصة في أماكن تجمع اليهود بالقاهرة كان لها نشاط بارز في الترويج للفكر الصهيوني ... وأن السينما المصرية نشأت في ظل ظروف يهيمن عليها الاستعمار البريطاني، والرأسمالية الأوربية، والصهيونية المتنامية»^(٤٠).

(٣٨) الكافي، الكليني:

ج ٦، ص ٤٣٤، باب الغناء، ح ٢٤.

(٣٩) بحار الأنوار،

المجلسي: ج ٢، ص ٥٢،

باب مذاكرة العلم،

ومجالسة العلماء...، ح ٢٨.

(٤٠) نقلاً عن الموقع

الإلكتروني: joos.co

عن كتاب (اليهود

والسينما في مصر).

ب- العمل على إبراز التراث الإسلامي

من أهم الوظائف الملقة على عاتق الدعاة والمبشرين هو نقل الموروث الحضاري، والثقافي، والفكري، والتربوي للفكر الإسلامي، وإحياء هذا التراث واستجلائه بما يسير الحياة، وبهذا يمكن أن يحتفظ المجتمع الإسلامي بهويته الإسلامية بإحياء ذخائره الحضارية، وينعم بالإكتفاء الذاتي في ثقافته وفكره، ويصبح قادراً على تصدير العلوم والاكتشافات الحديثة.

وها هو القرآن يدعونا إلى استشارة التراث، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤١).

(٤١) سورة الروم: ٩.

فإن الغرب اليوم يسرق تراثنا ومخزوننا الثقافي والعلمي الكامن في القرآن الكريم، وأحاديث النبي ﷺ والأئمة المعصومين عليه السلام، ويعملون على بلورة هذه الاكتشافات، ثم يصدرونها لنا على أساس أنهم موهوبون وأصحاب خبرات وهم أول من توصل إلى هذه الاكتشافات، فلو رجعنا إلى كل العلوم المعاصرة لوجدنا أصولها في القرآن الكريم، وأحاديث أهل البيت عليه السلام، ولو أردنا استعراض هذا المخزون فإننا نحتاج إلى مجلدات لسبر غور هذا التراث العظيم.

ونحن نشي على الخطوات التي تسدي خدمة للبشرية، ولكن ندعو إلى تفعيلها في داخل المجتمع الإسلامي؛ لأنه أولى بتراته

من غيره، ولأن تسليط الضوء على تراثنا الإسلامي بنظرة متساوية تغنيا عن الثقافات الأخرى، وتحررنا من التقليد الأعمى، حيث أنه من أمارات الجمود والتخلف، مضافاً إلى أن التقليد للآخرين يشل الحركة نحو الرقي.

فعلى رجال الإعلام الإسلامي أن يشمروا عن سواعد الجد لمواجهة الغزو الثقافي، والأخذ بأيدي الناس للوقوف على عظمة التراث الإسلامي وإحيائه ونشره.

ولكن الواقع مخيب للآمال، فإن بعض وسائل الإعلام الإسلامية والعربية هي التي تروج للثقافة الغربية، والعادات السيئة، والتقاليد الدنيئة، وقد جعلت التراث الإسلامي وثقافته الأصلية هامشية وملغاة، وعملوا على تغريبها من الأوساط الاجتماعية، حتى إذا ما ذكرها ذاكر إشمأزت قلوبهم وكلحت وجوههم.

(٤٢) سورة المائدة: ٩٠.

ج - نبذ الخرافات وتعبئة الأمة على أسس علمية
لقد عمل الأنبياء ﷺ على محاربة الخرافات الجاهلية، واستئصالها من الوجود، والاستعاضة عنها بالقيم التربوية، والأخلاقية، والإنسانية، وكان المجتمع الجاهلي يؤمن بكثير من الخرافات التي لا أصل شرعي ولا عقلي لها، فكانوا يحرقوا المرأة بعد وفاة زوجها؛ احتراماً لزوجها الراحل، والبعض الآخر يحرمها من الزواج طوال العمر، والبعض يأد البنات، وقد ساد التشائم والتطير، والأزلام.

وقد فند القرآن كل هذه الخرافات الباطلة، حيث قال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٢).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (٤٣).

يقول النبي ﷺ: «إذا تطيرت فامض...» (٤٤).

وهكذا اليوم استشرت الخرافات في جميع مفاصل الحياة، وما من مجتمع إلا وله لون من الخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

فالواجب محاربة هذه الخرافات التي تقف عائقاً أمام تفكير الإنسان وتطوره، وتجعل الإنسان تحت أسر هذه التقاليد التي تعصف به يميناً وشمالاً، كما يجب تأصيل الفكر الإسلامي، والمفاهيم الإسلامية، والتعامل على أساس الحقائق وليس الخرافة والاختلاقات والأوهام الكاذبة، وبناء الأمة على أسس علمية يقبلها العقل والمنطق وخاضعة للسؤال والجواب، ومن هنا كان القرآن الكريم يخاطب الناس اعتماداً على الرجوع إلى العقل والأمور المنطقية.

٥ - الوظائف الاقتصادية

لقد اهتم الإسلام بحياة الناس الاقتصادية، وقدم أروع الحلول والاستراتيجيات لإنعاش الوضع الاقتصادي، وإحلال الرفاهية، والعيش الكريم، كما حارب المحتكرين وأصحاب الترف، والميوعة، والمستولين على أموال الناس، والناهبين ثرواتهم، وأمر الأغنياء أن يخرجوا من أموالهم بما فرضه الله فيها للفقراء، وعالج مسألة الفقر، والتفاوت الطبقي، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ

(٤٣) سورة آل عمران:

١٥٩.

(٤٤) تحف العقول،

الحراني: ص ٥٠.

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ»^(٤٥)، وقال سبحانه: «وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُكْفِّرُوا بِكَ»^(٤٦)، فأجابهم الرسول ﷺ كما بين القرآن: «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ»^(٤٧)، وقال عز وجل في بيان حق الفقراء في أموال الأغنياء: «وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلْمَسْكِينِ وَالْمَحْرُومِ»^(٤٨).

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما مُتّع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك»^(٤٩).

ويقول عليه السلام أيضاً: «ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع...»^(٥٠).

فلا بد للإعلام الإسلامي أن يطرح مشاكل المجتمع الاقتصادية، ومعالجتها بالخبرات الاقتصادية، والترويج لفكر الإسلام الاقتصادي. كما يفترض أن تعمل وسائل الإعلام على جانب التوعية الاقتصادية، ووضع الحلول للتنمية الاقتصادية، ليقارنوا بين مستويات عيشهم بالدول المتقدمة، مما يسهم في عملية التوعية بمستوى التخلف والعمل لتطوير القطاعات الاقتصادية.

لا سيما وأن العالم اليوم تتقاذفه أزمة اقتصادية تهدد الأمن الاقتصادي العالمي مما يجعل الحاجة ماسة إلى تقديم النظرية الإسلامية لحلحلة الأزمة الخانقة.

٦- الوظائف السياسية

تلعب وسائل الإعلام بمختلف مستوياتها ونوعها دوراً كبيراً في قيام الحكومات وتجنييد الناس لها وإقناعهم بسياساتها، و«أن

(٤٥) سورة الحجرات: ١٣.

(٤٦) سورة هود: ٢٧.

(٤٧) سورة هود: ٢٩.

(٤٨) سورة المعارج:

٢٤ - ٢٥.

(٤٩) نهج البلاغة،

الإمام علي عليه السلام: ج ٤،

ص ٧٨، قصار الحكم،

الحكمة رقم: ٣٢٨.

(٥٠) روائع نهج

البلاغة، جورج جرداق:

ص ٨٥.

اقترب الإعلام من السلطة الحاكمة أو إبتعاده عنها أو حتى اندماجه فيها يفرض تصنيف نظريات الإعلام بين:

١ - إعلام السلطة.

٢ - إعلام مستقل عن السلطة.

في الحالة الأولى، ينطلق الإعلام من إيدولوجية الدولة التي تتولى كل الأمور المجتمعية، ومنها أمر الإعلام.

وبالتالي يصب الإعلام في قناة خدمة مبادئ الدولة وإيدولوجيتها، ويعتبر جهازاً من أجهزة الدولة. إنه إعلام الدولة ذات الحكم الكلي أو ذات النظام العقائدي والحزب الحاكم، بل إنه الإعلام الرسمي للدولة بكل مجالاته^(٥١).

وكثيراً ما يستخدم السياسيون الشائعات والدعايات لتحقيق أغراضهم، وهو سلاحهم الوحيد الرابع في عملية التوجيه والإلهاء، فإذا أرادت حكومة ما القيام بعمل معين وتريد التكتّم عليه وإتمامه في غاية السرية، تبادر إلى افتعال أحداث وإيجاد فتن تشغل الناس فيها، وتصرف أنظارهم إليها ريثما يتم تحقيق الهدف المقصود.

وكذا في عملية التوجيه، تقوم بإشاعة أخبار وقضايا لا لأجل صرف الناس عما يقوم به مذيع الأخبار، وإنما بقصد توجيه الناس إليه لإقناعهم بما يقوم به.

لذا وقف الإسلام موقفاً مضاداً من الشائعات والدعايات ذات الطابع السلبي، وحذر من ترويجها، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا

(٥١) الإعلام والرأي،
علي عواد: ص ١٣٠.

وَالْآخِرَةُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»^(٥٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ»^(٥٣).

وفي نفس الوقت تشكل وسائل الإعلام خطراً على الحكومات السياسية والسياسيين.

يقول كاسترو: «لا أخاف بوابة جهنم إذا فتحت بوجهي، ولكنني أرتعش من صرير قلم محرر صحيفة»^(٥٤).

وقال دياز رئيس جمهورية المكسيك: «أود أن أكون صاحب معامل الورق والحبر لأحرقهما»^(٥٥).

ولكن التزام وسائل الإعلام اليوم بالمهنية في مجال العمل السياسي أمر نادر، لذا وظيفة الإعلام الإسلامي تكمن في اعتماد الواقعية، والوضوح، والصدق، والأمانة في إيصال المعلومات، لإمكان معالجة الأمور على أساس الواقعية وترشيد الناس، وهداية المجتمعات، وغرس القيم الأخلاقية والإسلامية، والرقى بالمجتمعات نحو سلم الكمال، لتكوين مجتمع إسلامي يتعامل بالإسلام وينطلق من مبادئه.

٧- الوظائف الأخبارية والإعلامية

من وظائف الصحافة والإعلام الرئيسية تزويد الناس بالحقائق والأخبار والأنباء، الاقتصادية، والسياسية، والحياتية، وتعمل على تبشير الناس بالأخبار النافعة، أو تحذيرهم من الأخطار الطبيعية، ومعرفة أحوال الطقس، ونقل الأحداث والوقائع وما يدور في داخل الكرة الأرضية، بل وخارجها، وكل ما له أثر في حياة البشر سلباً أو إيجاباً.

(٥٢) سورة النور: ١٩.

(٥٣) سورة النساء: ٨٣.

(٥٤) منتدى علوم

الإتصال، قراءة المراثيات،

دراسات في الإعلام

المتخصص، د. حسن

السوداني

٦/مارس/٢٠١١م.

(٥٥) المصدر السابق.

كما أن نقل الأخبار على مدار اليوم بصورة عاجلة دعا المراسلين والصحفيين في أقطاب العالم إلى تحسّس الأخبار ونقلها؛ لتحتل الصدارة في نشرات الأخبار والترويج لفضائياتهم، وقد أدى هذا التسرّع في نقل الأخبار إلى فقدان مصداقيته وتعريته من الصحة والواقعية.

ومن هنا كان من أبرز سمات وصفات من يعمل في تبليغ الدين التزام الدقة في نقل الأخبار، والصدق، والواقعية، والتثبت.

وقد حدّد القرآن الكريم الوظيفة العملية في نقل الأخبار، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(٥٦).

فربّ خبر يذاع لا صحة له، أو يرمي تأجيج نار الفتنة يؤدي إلى توتر العلاقات السياسية والدبلوماسية بين دولتين إسلاميتين، أو يذاع خبر باستعداد قيام دولة بشن حملة عسكرية على دولة أخرى يؤدي إلى ارتفاع في أسعار النفط والبورصات، وغلاء الأسواق التجارية، يقول تعالى: ﴿إِذ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾^(٥٧).

فالكذب هو داء وكالات الأنباء ومرض الصحفيين إلا النادر منهم، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾^(٥٨).

٨- الوظائف الترفيهية

يعتبر الترفيه والإمتاع ذا أثر نفسي وذهني، وينفّس عن المتاعب والآلام، وليس الغرض منه ملئ أوقات الفراغ وتمضية الوقت فقط

(٥٦) سورة الحجرات: ٦.

(٥٧) سورة النور: ١٥.

(٥٨) سورة النحل: ١٠٥.

حتى تقوم وسائل الإعلام بملئ أوقات الناس بأفلام الإثارة، والقتل، والحب، والغرام، والرقص، والغناء، والموسيقى، وأفلام الكارتون، والبرامج الرياضية المختلطة نساءً ورجالاً، فإن ذلك يفقد الإعلام مهنته ودوره الريادي في بناء الذات وتكوين مجتمع صالح.

يقول الإعلامي محمد عبد القادر: «...أثناء عرض فلم نلاحظ أن أنفاسهم، - الأطفال - تتلاحق وأعصابهم تتوتر، فإذا ما انتهى فلم رعاة البقر، انقضَّ بعضهم على البعض وشرعوا في العراك»^(٥٩).
كما أن «وسائل الإعلام لا تعلّم المذنب دوافعه السيئة التي تنشأ كنتيجة لمجموعة معقدة من الأسباب، ولكنها قد تعلّمه في أسوأ الأحوال أساليب تنفيذ تلك الدوافع»^(٦٠).

ومن وجهة نظر إسلامية، فإن أساليب الترفيه تختلف عما ذكرناه آنفاً، فالقرآن دعا إلى اللعب والترفيه، يقول تعالى مبيناً قول أخوة يوسف لأبيهم: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٦١).

«والرتع هو: توسّع الحيوان في الرعي، والإنسان في التنزه وأكل الفواكة»^(٦٢). وأرادوا به أخوة يوسف: «اللعب المباح مثل الرمي والاستباق بالأقدام»^(٦٣).

يقول الرسول ﷺ: «علّموا أولادكم السباحة والرماية»^(٦٤).
ويقول الإمام علي عليه السلام: «للمؤمن ثلاث ساعات، فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يرمّ معاشه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها فيما يحلّ ويجمل»^(٦٥).

(٥٩) دور الإعلام في التنمية، محمد عبد القادر أحمد: ص ٢٠٧-٢٠٨.
(٦٠) المصدر السابق: ص ٢٠٨.
(٦١) سورة يوسف: ١١-١٢.
(٦٢) تفسير الميزان، الطباطبائي: ج ١١، ص ٩٧.
(٦٣) تفسير جوامع الجامع، الطبرسي: ج ٢ ص ٢٠٦.
(٦٤) الكافي، الكليني: ج ٦، ص ٤٧، باب تأديب الولد، ح ٤٠.
(٦٥) نهج البلاغة، الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ٩٣، قصار الحكم، الحكمة رقم: ٣٩٠.

فيجب أن تكون التسلية والترفيه بوسائل مشروعة غير محرّمة، ولذا أفتى علماؤنا بحرمة التسلية بالوسائل المحرّمة.

أما اللعب المباح، فإنه ينمّي قدرات الطفل الإبداعية والفكرية وتظهر ملكاته الروحية ونضوجه العقلي والذهني، ومن خلال الألعاب تعلّم طفلك على الحياة الواقعية، فيتعلّم أسامي الأشياء. لذا ينبغي اختيار اللّعب التي تكون بعيدة عن العنف والوحشية، كما يجب أن لا يتجاوز اللعب الحدود الطبيعية ليصل إلى اللهو وإهمال الجوانب الأخرى في نفس الطفل وتربيته. وينبغي إعداد البرامج الترفيهية الهادفة التي تبني شخصية الطفل ولا تجعله هملاً.

غير أن بعض الفضائيات خُصّصت فقط للترفيه، وأفلام الكارتون، والمغامرات مما أدّى إلى إدمان الأطفال عليها لساعات طوال، وإهمال جانب التعليم، وأدى بهم إلى الأضرار الصحيّة. إلى هنا نأمل أن نكون قد وفقنا لوضع أسس وقواعد وإشارات عامة لنظرية إعلامية قرآنية، على أن الكثير من جوانب وتفرّعات هذه النظرية لم يتمّ التعرّض إليه خشية الإطالة، أو لأن لها مجالاتها الواسعة التي تقتضي التخصّص وبسط البحث، الأمر الذي يخرج المقالة عن حدودها المقررة.

الخاتمة

هناك عدة وظائف عملية للمؤسسة الإعلامية والتبليغية من زاوية قرآنية ينبغي مراعاتها في العمل الإعلامي، وقد توصلنا إلى بيان أهم الوظائف:

١- الوظائف الدينية، والتي تتمثل في محورة العمل الإعلامي حول الإيمان بالله تعالى، والإقناع بضرورة الاتجاه الروحي في تخليص المجتمع من الأمراض النفسية، والروحية، والاجتماعية، والاقتصادية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتبشير الناس بالخير، وتحذيرهم عواقب الأمور، وإعادة الناس إلى التمسك بالكتاب والسنة من خلال إبراز دورهما في الحياة، وتقديم قدوة ومثل صالح للاقتداء به في الحياة والمتمثل بحياة أهل البيت عليهم السلام، ودعوة الناس إلى فكرهم والتي هي أحسن.

٢- الوظائف التربوية، والتي تمثل أساساً في بناء المجتمعات وبناء الذات، ومن أهم هذه الوظائف: بناء الجيل الصاعد وفق تعاليم الإسلام ومناهجه السامية، وبث روح الوعي والتوجيه والإرشاد منذ نعومة أظفارهم ومواكبة مراحلهم العمرية، والاهتمام بالقطاع التعليمي ووضع المناهج التربوية السليمة، لبناءهم بناء صحيحاً لتكون ممارساتهم تنبئ عن خلق الإسلام وسماحته، بحيث يمكنهم أن يقدموا نموذجاً حياً عن أخلاق الإسلام وأصحابه.

٣- الوظائف الاجتماعية، حيث أن المجتمع هو المتلقي الذي اهتمت به السماء ووضعت رسالة إلهية لتكامله ليرتقي بالكمالات والمعارف من خلال اتباع أهم الوظائف التي تعزز بناءه من قبيل: إقامة العدالة الاجتماعية وتثقيف الناس عليها، وعدم المداينة مع الظالمين، وتحفيز الناس على نبذ الظلم والظالمين ودعوتهم إلى الحرية والإرادة والكرامة للتحرر من أسر الظالمين وقيود العبودية، وإشاعة ثقافة السلم واللاعنف خصوصاً مع انتشار التيارات المتطرفة

التي تسعى لإيجاد الهوية بين المسلمين وافتعال الأزمات لها.

٤ - الوظائف الثقافية، هي الأخرى من أهم ما يعبر عن معدن الإنسان ومحتواه المعرفي والثقافي والإنساني، لذا يلزم المؤسسة الإعلامية تحصين الشخصية المسلمة من ناحية ثقافية من خلال اتباع عدة أمور: التمييز بين الثقافة الإسلامية الأصيلة وبين الثقافات الدخيلة الهادفة إلى ضرب كيان الأسرة المسلمة وتفريق أفرادها، والعمل على إبراز المخزون الثقافي والحضاري من التراث الإسلامي وتنقيته من الدسائس ونشره بصيغة تتماشى مع مقتضيات العصر الحديث، وبإدخال الخرافات والأوهام وبناء الشخصية على أسس علمية الأمر الذي يؤدي تعزيز مكانة العلم والعلماء.

٥ - الوظائف الاقتصادية، تتمثل في إبراز الرؤية الإسلامية في مجال الاقتصاد، ومعالجة المشاكل الاقتصادية من خلالها، والحرص على إظهار الدراسات المعنية بهذا الصدد، وبث الوعي الاقتصادي لتنمية وتطوير القطاعات الاقتصادية.

٦ - الوظائف السياسية، تلعب وسائل الإعلام دوراً محورياً في حقل السياسة، سواء في توجيه الناس باتجاه فكرة معينة أو إلهاءهم عن ممارسات قائمة تريد الحكومات صرف الأنظار عنها، وتلعب دوراً أيضاً في تثقيف الناس بالإشاعات والدعايات المغرضة أو تثقيفهم بالتثبت والمصادقية والواقعية.

٧ - الوظائف الأخبارية، وتتمثل في تزويد الناس بالأخبار والأحداث والوقائع وتزويد الناس بالمعارف مع إلزام التثبت والصدق.

٨ - الاهتمام بالجانب الترفيهي للأطفال والشباب لما له دور في إنضاج أفكارهم وملكاتهم وبناءهم النفسي والتربوي شريطة أن تكون البرامج والوسائل المستخدمة مشروعة.

المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- الشريف الرضي، نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، مطبعة النهضة، قم، الناشر: دار الذخائر، قم، إيران، ط الأولى، ١٤١٢هـ.
- ٣- الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث المطبعة: مهر، قم، الناشر مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث بقم المشرفة، ط الثانية، ١٤١٤هـ.
- ٤- الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تصحيح: حسين الأعلمي، المطبعة: مطابع مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، الناشر: مؤسسة الأعلمي للطبوعات، بيروت، لبنان، ط ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- ٥- الخوئي، أبو القاسم، منهاج الصالحين، المطبعة: مهر، قم، الناشر: مدينة العلم التابعة للسيد الخوئي، ط الثامنة والعشرون، ١٤١٠هـ.
- ٦- النكلاوي، أحمد، المدخل السيسلوجي للإعلام، مكتبة نهضة الشرف، القاهرة، ط ١٩٧٤م.
- ٧ - المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط الثالثة، ١٤٠٣هـ .
- ٨ كحيل، عبد الوهاب، الأسس العلمية والتطبيقية للإعلام الإسلامي، مكتبة نهضة الشرف، القاهرة، ط ١٩٧٤م.
- ٩- الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار، تعليق: علي أكبر غفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط ١٣٧٩.
- ١٠ - النجفي، هادي، موسوعة الأحاديث أهل البيت عليه السلام، مطبعة دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

- ١١- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، المطبعة: حيدري، الناشر: دار الكتب الإسلامية، طهران، إيران، ط الخامسة، ١٣٦٣ش - ق.
- ١٢- الحراني، الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة، تحف العقول، تحقيق: علي أكبر غفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط الثانية، ١٤٠٤هـ.
- ١٣- جورج جرداق، روائع نهج البلاغة، المطبعة باقري، الناشر: مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط الثانية، ١٤١٧هـ.
- ١٤- عواد، علي، الإعلام والرأي، الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، لبنان، ط الأولى، ٢٠٠٠م.
- ١٥- عبد القادر، محمد، دور الإعلام في التنمية، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، ط ١٩٨٢م.
- ١٦- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، الناشر: منشورات مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.
- ١٧- الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير جوامع الجامع، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط الأولى، ١٤١٨هـ.
- ١٨- الخوئي، أبو القاسم، منية السائل، جمعه: موسى مفيد الدين عاصي، ط ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.



دلالة الإعجاز البياني على خلود القرآن الكريم

الشيخ حيدر ناصر الحلفي
باحث إسلامي



المقدمة

لم يظهر على وجه الأرض كتاب حظي باهتمام كبير ونال مكانةً في نفوس الخليفة مثل ما حظي به القرآن العظيم، حيث ترك أثره في تصوّرات الإنسان المسلم وفكره، ولم يترك جانباً من جوانب الحياة إلا وتناوله بالبيان الواضح؛ ولذلك أقبل العلماء على هذا الكتاب الكريم قديماً وحديثاً، وألّفوا حوله آلاف الكتب والدراسات، وصنّفوا ما لا يُحصى في علومه، وقد حاز نصيباً كبيراً من تراث علمائنا الفكري، والذي حشد له علماؤنا جهوداً جبّارة، وقدموا عليه أدلةً محكمة، ومن تلك الدراسات في ما قد تخصص ببيان إعجاز القرآن الكريم، ومع أنّ كلمة «إعجاز» لم ترد في القرآن الكريم، ولم يحدثنا التاريخ عن مصنفات لهذا العلم في عهد الرسول الكريم ﷺ، إلا أنّ التأليف فيه قد برز في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة النبوية المباركة. وذلك أنّه بتوالي الأزمان، وازدياد اختلاط العرب بثقافات الأعاجم، ظهر من الملحدين من أثار شكوكاً حول القرآن، وسدّد نحوه بعض الطعون.

فتصدّى علماء المسلمين لتلك التيارات الفكرية المغرضة، وقدموا الأدلة الراسخة والبراهين الدامغة على أنّ القرآن «معجز». وهو كذلك؛ لأنّه أوقع بالمنكرين العجز والضعف والقصور، فلم يستطيعوا معارضته أو الإتيان بمثله، ولا حتى الإتيان بسورة واحدة من مثله. فدلّ ذلك على أنّه كلام الله تعالى الذي أوحاه إلى قلب المصطفى ﷺ.

الإعجاز والمعجزة في اللغة

أ- الإعجاز لغةً

جاء في معجم مقاييس اللغة في معنى الإعجاز لغةً: العين والجيم والزاء أصلان صحيحان، يدلُّ أحدهما على الضَّعْف، والآخر على مؤخَّر الشيء. فالأول عَجَزَ عن الشيء يعجز عَجْزاً، فهو عاجزٌ، أي ضَعِيف. وقولهم: إِنَّ العَجَزَ نَقِضُ الحَزْمِ فمن هذا؛ لأنه يَضْعُفُ رأْيُه. ويقولون: «المرء يَعْجِزُ لا مَحَالَةَ ويقال: أعجزني فلانٌ، إذا عَجِزَتْ عن طلبه وإدراكه»^(١).

وأما صاحب كتاب العين فقال: «العجز، أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه، والعجز نقيض الحزم، وعَجَزَ يَعْجِزُ عَجْزاً فهو عاجزٌ ضَعِيفٌ»^(٢).

ب- المعجزة لغةً

المعجزة في اللغة اسم فاعل مأخوذ من العجز، وهو مقابل القدرة، وزوال القدرة عن الإتيان بالشيء من عملٍ، أو رأيٍ، أو تدبيرٍ، ومن هنا عرَّفها صاحب كتاب تاج العروس: «وَمُعْجَزَةٌ النَّبِيِّ ﷺ: مَا أَعْجَزَ بِهِ الْخَصْمَ عِنْدَ التَّحْدِي، وَالْهَاءُ لِلْمُبَالَغَةِ...»^(٣).

ثانياً- الإعجاز والمعجزة في الاصطلاح

أ- الإعجاز اصطلاحاً

وقد عرّفه السيد الخوئي في البيان: «وهو في الاصطلاح أَنْ يَأْتِيَ الْمَدْعَى لِمَنْصَبٍ مِنَ الْمَنَاصِبِ الْإِلَهِيَّةِ بِمَا يَخْرُقُ نَوَامِيسَ الطَّبِيعَةِ وَيَعْجِزُ عَنْهُ غَيْرُهُ شَاهِداً عَلَى صَدَقِ دَعْوَاهُ»^(٤).

(١) معجم مقاييس اللغة،

ابن فارس: ج ٤، ص ٢٣٢.

(٢) كتاب العين،

الفراهيدي: ج ١، ص ٢١٥.

(٣) تاج العروس،

الزبيدي: ج ٨، ص ٩٨.

(٤) البيان في تفسير

القرآن، الخوئي: ص ٣٣.

وقد عرّف الجرجاني الإعجاز فقال: «الإعجاز في الكلام هو: أن يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق»^(٥).

ب- المعجزة اصطلاحاً

أمّا في الاصطلاح فقد عُرِفَت بتعاريف مختلفة باختلاف قيودها.

فقد قال المحقق نصير الدين الطوسي: «هو ثبوت ما ليس بمعتاد، أو نفي ما هو معتاد، مع خرق العادة ومطابقة الدعوى»^(٦). وعرفها الشيخ المفيد في كتاب النكت الاعتقادية: «هو الأمر الخارق للعادة، المطابق للدعوى، المقرون بالتحدي، المتعذر على الخلق الإتيان بمثله»^(٧).

ويمكن تلخيص مطلب الإعجاز والمعجزة في اللغة والاصطلاح في عدّة نقاط.

١- أنّ معاني العجز في اللغة تدور على الضعف والانقطاع وعدم القدرة على تحصيل الشيء.

٢- أنّ العجز صفة تلتصق بالقاصر عن فعل شيء أو يكون ذلك الشيء بالنسبة له معجزاً وهو صفة اتصف بها الإنسان فلازمته على مرّ العصور في مقابل معارضته للقرآن، فصار القرآن معجزاً ومعجزة لمن جاء به وشاهداً له ومصدقاً وهذا معنى الإعجاز في الاصطلاح.

٣- أنّ تعاريف مفهوم الإعجاز عامة من حيث العموم لا تتعلق بإثبات وجه من وجوه الإعجاز ولا نفيه، وإن كانت هناك بعض التعاريف قصّرت الإعجاز على وجه كالإعجاز البلاغي، أو أكثر من وجه.

(٥) التعريفات،

الجرجاني، ص ٤٧.

(٦) كشف المراد في

شرح تجريد الاعتقاد،

الحلي، ص ٢١٨.

(٧) النكت الاعتقادية،

المفيد: ص ٣٥.

- ٤- عُرِّفَت المعجزة اصطلاحاً بتعاريف مختلفة باختلاف قيودها وشروطها، ولكن نراهم مع هذا الاختلاف قد اتفقوا على قيدٍ مهم في تعريف المعجزة، وهو خرق العادة.
- ولا شك أن مراد علماء الكلام بهذا الشرط أن تأتي المعجزة مخالفةً لسنن الكون وقوانين الطبيعة وخواصّ المادة؛ لحمل الناس على التصديق، وهي ليست من اكتساب الرسل، وإنما من الله «عز وجل» يظهرها على أيديهم بأسباب لا يعرفها البشر.
- فالمعجزة بالتالي تأبى الخضوع لقانون الأسباب والمسببات، وخواصّ المادة وقوانينها، وهذا معنى مرادهم بخرق العادة.
- ٥- أن المعجزة قرينة الرسالة فتأتي لتأييد الرسالة، أو دليلاً على صدق الدعوة؛ لأنه ليس المقصود بالمعجزة إثبات العجز للخلق لذاته من غير ترتيب مطلب على هذا العجز، وإقامة الحجة على أن هذا الادعاء حق، وأن الرسول الذي جاء به رسول صادق.
- ٦- أن المعجزة التي جاء بها النبي ﷺ وهي معجزة القرآن ليست معجزة على صعيد اللغة فحسب، بل تعمّ مجالات الحياة المختلفة: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية وعلوم الطبيعة وغيرها من العلوم.

الوجوه الإعجازية في القرآن

إنّ الوجه البارز في إعجاز القرآن هو الإعجاز البياني، الذي يقوم على أساس البيان والبلاغة والفصاحة. ووجه الوضوح والبروز في هذا الجانب هو العرب في العصر الجاهلي، حيث

كانوا في أرفع وأرقى وأسمى مراتب البيان والفصاحة والبلاغة، وأنّ المستوى البياني للعرب والمسلمين في العصور الإسلامية اللاحقة كان أقل من مستوى العرب في العصر الجاهلي، ونظراً لهذا المستوى البياني الرفيع، كان «البيان»، هو الموضوع الذي تحدّى به القرآن العرب وطالبهم بالإتيان بسورة من مثل القرآن في البيان، أو بعشر سور مثله، أو بحديث مثله في البيان، ولم تكن المثلية المطلوبة منهم مثلية في العلم ولا في التشريع، ولا في أنباء الغيب، ولا في غير ذلك من وجوه القرآن.

ومن هنا قد وقع الاختلاف بين العلماء قديماً وحديثاً في الوجه الذي وقع به التحدي على أقوال متعددة مختلفة، فمنهم من ذهب إلى أنّ التحدي وقع في الإعجاز البياني، وأضاف آخرون أنّه وقع أيضاً بإعجازه العلمي، أو الغيبي، أو التشريعي، أو الروحي، أو العددي... الخ.

وعدّ بعض العلماء وجوه إعجاز القرآن ثمانين وجهاً، ومنهم من زاد على ذلك.

قال السيوطي: «وأنهى بعضهم وجوه إعجازه إلى ثمانين، والصواب أنّه لا نهاية لوجوه إعجازه كما قال السكاكي في المفتاح: أعلم أنّ إعجاز القرآن يُدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تُدرك ولا يمكن وصفها»^(٨).

وهذه الآراء العديدة راجعة إلى طبيعة القرآن فهو عطاء متجدّد لكل الأزمان والعصور، وكلّما أتى جيل وجد في القرآن الكريم شيئاً جديداً، ولن ينتهي هذا العطاء حتى تنتهي الدنيا بما فيها.

(٨) معترك الإقران
في إعجاز القرآن،
السيوطي: ص ٣.

والحقيقة أنه لم يقع الإعجاز القرآني بالإعجاز البياني فحسب، وإنما وقع بوجوه متعددة، والذي يؤيد هذا الرأي والاتجاه هو طبيعة الرسالة والمعجزة، فبما أن الرسالة المحمدية خاتمة الرسالات، وبما أنها عامة لكل الأمم، وهي لكل زمان ومكان، فكان من الضروري أن تكون هناك وسيلة تدل على صدق هذه الرسالة في كل زمان ومكان، فتكون المعجزة باقية ليعاينها كل من آمن أو دُعي إلى الإيمان؛ لتواجه كل جيل من الأجيال، وكل عصر من العصور بوجه ملائم لذلك العصر، مما يدل على صدق الرسول ﷺ والرسالة.

ويصف لنا الإمام الرضا عليه السلام القرآن فيقول: «هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وعروته الوثقى، وطريقته المثلى، المؤدي إلى الجنة، والمُنْجِي مِنَ النَّارِ، لَا يَخْلُقُ عَلَى الْأَزْمَنَةِ وَلَا يَغْتُ عَلَى الْأَلْسَنَةِ؛ لَأَنَّهُ لَمْ يُجْعَلْ لَزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ، بَلْ جُعِلَ دَلِيلَ الْبُرْهَانِ وَالْحُجَّةِ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»^(٩).

يقول الطباطبائي في تفسيره: «فالقرآن آية للبلغ في بلاغته وفصاحته، وللحكيم في حكمته، وللعالم في علمه، وللاجتماعي في اجتماعه، وللمقننين في تقنينهم، وللسياسيين في سياستهم، وللحكام في حكومتهم، ولجميع العالمين فيما لا ينالونه جميعاً كالغيب والاختلاف في الحكم والعلم والبيان. ومن هنا يظهر أن القرآن يدعي عموم إعجازه من جميع الجهات من حيث كونه إعجازاً لكل فرد من الإنس والجن من عامة أو خاصة أو عالم أو جاهل أو رجل أو امرأة أو فاضل بارع في فضله أو مفضول»^(١٠).

(٩) مسند الإمام

الرضا عليه السلام، عطاردي:

ج ١، ص ٣٠٩.

(١٠) تفسير الميزان،

الطباطبائي: ج ١، ص ٦٠.

وَأَنَّ الْقَائِلِينَ بِتَعَدُّدِ هَذِهِ الْوُجُوهِ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْإِعْجَازَ الْبَيَانِي هُوَ أَعْظَمُ هَذِهِ الْوُجُوهِ؛ لِأَنَّهُ لَا تَخْلُو مِنْهُ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، أَمَّا الْوُجُوهُ الْأُخْرَى فَلَيْسَتْ كَذَلِكَ، فَهِيَ مُتَفَرِّقَةٌ مَا بَيْنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ.

أركان الإعجاز البياني

أولاً- التحدي

أَنَّ الْإِعْجَازَ الْبَيَانِي هُوَ الْإِعْجَازُ الَّذِي وَقَعَ بِهِ التَّحْدِي، وَهُوَ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَاتُ التَّحْدِي: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١١)، وَلَا يُرَادُ مِنْ اخْتِيَارِ هَذَا الْوَجْهِ رَدُّ وَجْهِ الْإِعْجَازِ الْأُخْرَى كَالْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ، أَوِ الْغَيْبِيِّ، أَوِ التَّشْرِيعِيِّ،...إِلَخ
فَمَا صَحَّ مِنْهَا يُعَدُّ وَجْهًا مِنْ وَجْهِهِ إِعْجَازُهُ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ بِهِ التَّحْدِي، عِنْدَ نَزُولِ الْقُرْآنِ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ، وَهَنَاقَ فَرْقَ بَيْنَ وَاضِحٍ بَيْنَ «مَعْجَزٍ» وَ«مَعْجَزٍ وَقَعَ بِهِ التَّحْدِي»، فَمَا وَقَعَ بِهِ التَّحْدِي نَظَّمَهُ وَبَيَّانَهُ، وَهُوَ مَحَلُّ اتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ.

أَمَّا وَجْهُ الْإِعْجَازِ الْأُخْرَى قَدْ وَقَعَ بِهَا التَّحْدِي بَعْدَ فِتْرَةٍ مِنْ نَزُولِ الْقُرْآنِ، كَمَا فِي الْإِعْجَازِ الْغَيْبِيِّ كَمَا قَدَّمْنَا، وَغَيْرِهَا مِنْ وَجْهِ الْإِعْجَازِ، وَالِدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ مَرَاجَعَةِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالتَّارِيخِ وَالْأَدَبِ نَجْدَهَا تَرْوِي مَعَارِضَاتٍ عَوْرَضَ بِهَا نَظْمُ الْقُرْآنِ وَبَيَّانُهُ كَالَّذِي نَسَبَ إِلَى مَسِيلْمَةَ وَسَجَّاحٍ، وَكُلُّهَا مَحَاوَلَاتٌ فَاشِلَةٌ لِمَعَارِضَةِ الْقُرْآنِ، بَيَدِ أَنَّ لَا نَجْدَ نَصًّا وَاحِدًا يَعَارِضُ

(١١) سورة هود: ١٢.

القرآن بوجوه الإعجاز الأخرى، مما يدل على أن فهم المعارضة معارضة النظم والبيان لا غير.

وهذا الذي قررناه من أن التحدي وقع بوجه واحد دون غيره، عند نزول القرآن الكريم، قال به العلماء قديماً وحديثاً، وأكتفي بعرض قول الأستاذ محمود محمد شاكر، فقد ذكر ذلك في تقديمه لكتاب «الظاهرة القرآنية» لمالك بن نبي، قال: «وأن التحدي الذي تضمنته آيات التحدي، من نحو قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١٢) وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(١٣)، إنما هو تحدٍّ بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا شيء خارج عن ذلك. فما هو بتحدٍّ بالأخبار بالغيب الممكنون، ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهرٍ من تنزيله، ولا بعلم، لا يدركه علم المخاطبين به من العرب، ولا بشيء من المعاني مما لا يتصل بالنظم والبيان»^(١٤).

آيات التحدي

زعم المشركون أن باستطاعتهم أن يأتوا بمثل القرآن الكريم، وزعموا أن النبي ﷺ قد اختلقه، فتحداهم الله أن يأتوا بمثله، وقرّعهم بالعجز عن الإتيان - مع ما هم عليه من الأنفة والحمية -

(١٢) سورة هود: ١٣، ١٤.

(١٣) سورة الإسراء: ٨٨.

(١٤) الظاهرة القرآنية،

مالك بن نبي: ص ١٧-١٨.

بما فيه من الآيات التي تُبين أنه بلغتهم ومن جنس كلامهم، فطالبهم أن يأتوا بمثله، أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل سورة ... وتمرّ عليهم السنوات، وتزداد الآيات، وهم على عجزهم دائمون. وكان ذلك على عدّة مراحل، فأولاً: تحدّاهم أن يأتوا بقرآن مثله، كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾^(١٥)، ولكن أنى لهم أن يأتوا بمثله وهو كلام الله المُنزه عن كل ما يشوب كلام البشر من نقص، لم يستجب العرب لهذا التحدي، وبعدها تحدّاهم الله أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١٦)، ولم يستجيبوا فتحدهم أن يأتوا بسورة، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١٧)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(١٨).

يقول سيد قطب حول هذه الآية: «والتحدّي هنا عجيب، والجزم بعدم إمكانه أعجب، ولو كان في الطاقة تكذيبه ما توانوا عنه لحظة. وما من شك أن تقرير القرآن الكريم أنهم لن يفعلوا - وتحقق هذا كما قرره - هو بذاته معجزة لا سبيل إلى الممارسة فيها. ولقد كان المجال أمامهم مفتوحاً، فلو أنهم جاءوا بما ينقض

(١٥) سورة الطور: ٣٣، ٣٤.

(١٦) سورة هود: ١٣.

(١٧) سورة يونس: ٣٨.

(١٨) سورة البقرة: ٢٣، ٢٤.

هذا التقرير القاطع لانهارت حجّة القرآن، ولكن هذا لم يقع ولن يقع كذلك، فالخطاب للناس جميعاً، ولو أنّه كان في مواجهة جيل من أجيال الناس.. وهذه وحدها كلمة الفصل التاريخية»^(١٩).

ومع كل ما سبق من التحدي فلم يأتوا بقرآن مثله، ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة من مثله، وعندها آمن مَنْ شاء الله له الهداية وكفر من أصرّ على عناده، وهذا الصنف الأخير بدلاً من أن يستجيب للتحدي مع يقينهم بالعجز لجأوا إلى أسلوب العاجز المكابر، فوصفهم الله بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢٠)، لذا سجل القرآن عجز الإنس والجن مهما أوتوا من قوة وبذلوا من جهد، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(٢١).

ولنا مع هذه الآية الكريمة وقفة:

فتقول: وإنّ الآية الكريمة لها عدّة مضامين يمكن تلخيصها بعدّة نقاط:

١- خلود دعوة التحدي واستمرارها؛ إذ هي غير مقيّدة بزمان، وعلى هذا الأساس فإنّ هذا التحدي ساري المفعول إلى يومنا هذا مثلما كان في زمن النبي ﷺ.

٢- المعجزة تكون قوية عندما يقوم صاحب المعجزة بإثارة وتحدي أعداءه ومخالفيه بـ «الاستفزاز»، ثم تظهر عظمة الإعجاز عندما يظهر عجز أولئك وفشلهم، وفي الآية يتجلّى هذا الأمر واضحاً، فمن جانب دعت جميع الناس ومن جانب آخر تستفزهم بصراحة في قولها: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾، ثم تحرّضهم للتحدي

(١٩) سيد قطب، قطب بن

إبراهيم، في ظلال القرآن،

ج ١، ص ٤٨ - ٤٩.

(٢٠) سورة فصلت: ٢٦.

(٢١) سورة الإسراء: ٨٨.

بالقول: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾، والذي يستفزُّ الناس جميعاً ويتحداهم لا بدَّ أن يكون له الحجة البالغة عليهم.

٣- أن التعبير ﴿بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾، دلالة على الشمول والعموم، وهو يعني المثل في جميع النواحي والأمور، من حيث الفصاحة والبلاغة والمحتوى، ومن حيث تربية الإنسان، والبحوث العلمية والقوانين الاجتماعية، وعرض التاريخ والتنبؤات الغيبية المرتبطة بالمستقبل ... إلى آخر ما في القرآن من أمور التي عُدَّت من وجوه الإعجاز.

٤- استخدمت كلمة ﴿اجْتَمَعَتْ﴾، إشارة لأشكال التعاون والتعاقد الفكري والعملي، الذي يضاعف - حتماً - من نتائج أعمال الأفراد، بآلاف المرات.

٥- أنَّ تعبير: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾، تأكيد مجدّد على قضية التعاون والتعاقد، وهي إشارة ضمنية إلى حتمية هذا العمل، وتأثيره على صعيد تحقيق الأهداف وتنجزها.

٦- أنَّ دعوة جميع الناس للتحدي دليلٌ على أنَّ الإعجاز لا ينحصر في ألفاظ القرآن وفصاحته وبلاغته وحسب، وإلاَّ لو كان كذلك لكانت دعوة غير العرب عديمة الفائدة.

٧- عمومية التحدي التي تشمل كلَّ البشر والموجودات العاقلة الأخرى، وهذا ما صرّحت به الآية الكريمة: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾.

ثانياً- وجود الدافع عند المتحدّي لمواجهة التحدي
أما وجود الدافع فإنّ رسول الله ﷺ دعاهم إلى توحيد الله
ونبذ الأصنام؛ وهذا ما جعلهم يقفون في وجه دعوته، خاصة
زعماء قريش؛ لأنّهم عرفوا أنّ دعوة الرسول ﷺ تقضي على
امتيازاتهم القبلية؛ ومواقعهم الاجتماعية، وتجعل الولاء والتوجّه
لله وحده، وهذا يُفقدهم زعامتهم التي بُنيت على اعتبارات
جاهلية لم يقرّها الإسلام ونفاها، وجعل الميزان الذي يوزن به
الناس التقوى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (٢٢)،
وقد كان العرب يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى، فعاب
عليهم القرآن فعلتهم هذه وسفّه أحلامهم، بل أكثر من ذلك فقد
سجّل القرآن أنّ كل من وقف في وجه الدعوة عناداً وكفراً أضلّ
من الأنعام والدواب، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ
الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا
وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ
الْغَافِلُونَ﴾ (٢٣)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٤)، ومن هنا كانت حاجتهم ماسّة وحرصهم
شديد على أن يأتوا ولو بسورة من مثله؛ ليبطلوا حجة ﷺ بأنّ
القرآن من عند الله ويشبتوا أنّ مسلكهم في العبادات وفي كل
حياتهم صحيح، وأنّ ما وصفهم به القرآن بأنهم كالأنعام والدواب
وغير ذلك إنّما هو باطل، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

(٢٢) سورة الحجرات: ١٣.

(٢٣) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٢٤) سورة الأنفال: ٥٥.

ثالثاً- إنتفاء المانع عند المتحدّي من قبول التحدي وذلك من ثلاثة وجوه:

من الناحية اللفظية، ومن الناحية المعنوية، ومن الناحية الزمنية. أمّا من الناحية اللفظية، فإنّ العرب كانوا أهل فصاحة وبيان، شهدّت لهم بذلك أشعارهم وخطبهم وأمثالهم، ومقدرتهم على النقد وتمييز الغث من السمين، وكانوا قد برّعوا في اللغة ووصلوا إلى مستوى رفيع، من البلاغة والنقد والذوق البياني، ولم يكن عندهم مانع من الإتيان بمثل القرآن الذي نزل بلغتهم، إلا أنّهم أصابهم العجز، وهذا دليل على أنّ القرآن ليس من كلام البشر، بل هو كلام الله جلّت قدرته.

وأما من الناحية المعنوية، فإنّ العرب كانوا على مستوى من رجاحة العقل والفتنة والذكاء، بحيث يستطيعون الإتيان بمثل القرآن لو كان من كلام البشر، لكن أنّى لهم ذلك وهو كلام الله: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٢٥).

وأما من الناحية الزمنية، فإنّ القرآن لم ينزل دفعة واحدة: وإنّما نزل منجّماً في ثلاث وعشرين سنة وبقي التحدي قائماً، ولو نزل القرآن دفعة واحدة لاعتذروا بأنّ الوقت قصير، ولطلبوا من النبي ﷺ أن يمهلهم، لكن الوقت طويل ولم يكن لديهم مانع إلا شعورهم بالعجز.

مظاهر الإعجاز البياني في القرآن

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢٦)، وقوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٢٧)، وقوله: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(٢٨).

فهذه الآيات تُسمى في لغة القرآن بآيات التحدي، وقد تحدت العرب الذين لا همَّ لهم ولا بضاعة إلا الكلام، نصبت على ذلك أسواقهم، وقامت على ذلك أنديةهم، وكانوا أهل بلاغة وفصاحة وشعر وخطابة، ليس لهم تباري ولا تنافس ولا نقد إلا في الشعر والخطابة، وعلى هذا قامت حياتهم، فجاء نبينا ﷺ بالقرآن من عند ربه وهو يقول: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَهَذَا الْكَلَامُ كَلَامُ اللَّهِ فَكَذَّبُوهُ قَائِلِينَ: إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ عِنْدِكَ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

فلما كذَّبوه أخبره الله جلَّ وعلا: إِنَّ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِي كَمَا تَقُولُونَ، فَأَنَا بَشَرٌ مِّثْلَكُمْ وَعَرَبِيٌّ مِّثْلَكُمْ، وَأَنْتُمْ أَهْلُ فَصَاحَةٍ وَأَهْلُ بَلَاغَةٍ فَأْتُوا بِمِثْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَاسْتَفْزَهُمُ اللَّهُ أَيُّمَا اسْتَفْزَا وَتَحَدَّاهُمْ أَيُّمَا تَحَدَّى، قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾، ثُمَّ سَاوَاهُمْ بِالْحِجَارَةِ، فَقَالَ: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، وَأَخْبَرَ أَنَّ وَقُودَهَا النَّاسَ وَالْحِجَارَةَ كُلَّ ذَلِكَ لِيَلْهَبَ مَشَاعِرَهُمْ

(٢٦) سورة البقرة: ٢٣.

(٢٧) سورة البقرة: ٢٤.

(٢٨) سورة الإسراء: ٨٨.

ويُوقظ الهمم فيهم حتى يتحدّوا القرآن، ومع ذلك أثبتوا عجزهم وأنهم غير قادرين على أن يأتوا لا بآية ولا بجزءٍ من آية، فضلاً عن سورة أو عشر سور، وعدم القدرة على التحديّ تعود إلى قوة الإعجاز القرآني، ومن هنا نقف على مظهر من مظاهر الإعجاز القرآني وهو الإعجاز البياني، وهو أول إعجاز وقع التحدي به فعجزوا عن مجاراته.

من هنا سوف أقف على أهمّ مظاهر الإعجاز البياني بإيجاز:

أولاً- خصائص أسلوب القرآن الإعجازي

إنّ أسلوب القرآن الكريم يختلف كلّ الاختلاف عن الأسلوب البشري، فهو لا يشبهه بأي لونٍ من ألوان التعبير، سواء تلك التي كانت متداولة في عصر الرسول ﷺ، أم التي وجدت في العصور التي تلتها، وهو منزّه عن النقص، فلا تجد فيه ذلك التكرار المملّ غير فائدة، ولا ذلك الثقل الذي تشعر به وأنت تقرأ لبعض من يدعي الإيجاز، ولا تجد حشواً عند الانتقال من معنى إلى معنى، وهو يتجّه لجميع المستويات، لا فرق بين أعلاها ولا أدناها.

أ- الاستقامة في البيان

تعرّض القرآن الكريم لمختلف الشؤون وتوسّع فيها أحسن التوسّع، وما أورده من نظم العبادات، وفصائل الأخلاق، ووضعها من قواعد تشريعية في مجالات الاقتصاد والسياسة والاجتماع، وتعرّضه للعلوم الكونية والفلكية والطبيعية، إلى غير ذلك من المواضيع المتنوعة التي يطول ذكرها، وفي جميع ذلك نجد الملائمة بين أجزاءه ومباحثه، فهو كنسقٍ واحد، ومستوى شاق،

ونسيج فريد غير مضطرب الأسلوب ولا متناقض المعاني، نزل
نجوماً في مدة ثلاث وعشرين سنة وفي ظروف متفاوتة، ليلاً
ونهاراً، في مكة والمدينة، في الحرب والسلم، في الشدة
والرخاء، وفي عام الفتح، وعام الحزن وعلى سعة ما جاء به،
فليس فيه اختلاف أو تعارض أو تناقض من أوله إلى آخره، ممّا
جعل العرب في دهشة وإعجاب وإعظام، من خلال بلاغة القرآن
الكريم وفصاحته وسلامة نظمه واعتدال تركيب مفرداته، قال الله
تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا
فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٢٩)، فلا تستطيع أن تجد فرقاً بين السور التي
نزلت جملةً، والسور التي نزلت منجّمة، من حيث إحكام الربط
لكل منهما. هذا هو القرآن، ولكن عندما تأتي إلى شاعرهم
حينما يريد أن ينظم القصيدة فإنّها تأخذ منه حولاً، ثمّ يعيدها
فيجد الحشو والزيادة والنقصان، ونحو ذلك.

(٢٩) سورة النساء: ٨٢.

ب- تصوير الأمور المعنوية بصور حسية

يصوّر لنا سيّد قطب في كتابه التصوير الفني في القرآن عن
معنى التصوير في القرآن يعرض الموضوع بطريقة تصويرية
متخيّلة، فيقول: «التصوير- وهو تجسيد المعاني - هي الأداة
المفضّلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المتمثّلة عن معنى
ذهني أو حالة نفسية، أو عن غابرة أو مشاهد آتية، أو عن نموذج
إنساني وغرائزه وتصرفاته في هذه الحياة. فكأنّما هي صورة
شاخصة، وهيئة مشهودة.

ثمَّ يترقَّى بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة ويفيض عليها الحركة، فإذا ما أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التجسيد. فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث فيُشرفهم عليها، حيث تتوالى المناظرة وتتجدّد الحركات... وحتى ينسى المستمع أنّ هذا كلامٌ يُتلى أو مثلٌ يُضرب، إنّما يتخيّل أنّه حاضر المشهد بمرأى منه ومسمع، ومن ثمَّ ترتسم في نفسه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من مشاهدة المنظر، المتساوقة مع الحوادث. نعم، إنّها الحياة هنا، وليست حكاية حياة، فإذا كانت الألفاظ - وهي كلمات جامدة وتعابير هامدة، وليست بألوان تصوير وأرياش وتحبير - هي التي تصوّر من المعنى الذهني نموذجاً إنسانياً، ومن الحادث المرويّ أو الحالة النفسية لوحةً مشهودةً أو منظراً مشهوداً. أدركنا بعض أسرار الإعجاز في تعبير القرآن» (٣٠).

(٣٠) التصوير الفني في

القرآن، سيد قطب:

ص ٣٢-٣٣.

(٣١) سورة التكوين: ١٨.

مثلاً هذا الفجر ينبثق في مطلعته، لكنّه في القرآن: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (٣١)، هذا هو الجديد في تعبير القرآن: الصبح حيّ يتنفّس، أنفاسه الإشعاع والنور والضياء، وإفاضته الحركة والحياة، حركة تدبّ معها كلّ حيّ عند الصباح.

ج - تنوع الأساليب في القرآن

الناظر في القرآن يجد فيه القصص والمواعظ والاحتجاج والحكم والأحكام، والوعد والوعيد، والتبشير والتخويف، ومع ذلك فهو غاية في الفصاحة وبديع النظم، بخلاف كلام البشر من نثر أو شعر، فقد يُجيد أحد الشعراء في المدح دون الهجاء أو

التأبين دون التقريظ أو الوصف دون الغزل، أو عكس ذلك، لكنك لا ترى شاعراً ولا ناثراً يُجيد كلَّ ما سبق من الأساليب بنفس القوة. ولذلك ضرب العرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابعة إذا رهب، وزهير إذا رغب.

د- وحدة الخطاب إلى العامة الخاصة

أنَّ معاني القرآن مصبوغة بشكلٍ محكم بديع تصلح لأن يُخاطب بها الناس على اختلاف بيئاتهم وتفاوتهم في الثقافة والعلوم، بحيث تؤدي الغرض الذي سبقت من أجله، فيتأثر كلُّ سامع لها ويفهم منها مقصدها على اختلاف ثقافة السامعين وعقولهم، انظر معي إلى قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾^(٣٢)، فالعرب في زمن الرسول ﷺ فهموا من هذه الآية على قلة علومهم، دليلاً على قدرة الله سبحانه، وهو أنه خلق الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى الأرض، وقد غاير الله سبحانه في التعبير بالنسبة لكل منهما تنويعاً للفظ، وهذا معنى صحيح تدل عليه الآية. وأما عالم اللغة، فيفهم أن الآية سبقت للدلالة على قدرة الله وسمَّى الله الشمس سراجاً؛ لأنها تجمع إلى النور الحرارة، وسمَّى القمر منيراً؛ لأنه يبعث بضياء دون حرارة، وهذا المعنى صحيح تدل عليه الآية دلالة لغوية واضحة.

وأما علماء الفلك في هذه الأيام فقالوا: نعم الآية مسوقة للدلالة على قدرة الله، لكن الله سبحانه غاير بين وصف الشمس وبين وصف القمر، فسمَّى القمر منيراً لا مضيئاً؛ لأنه جسمٌ مظلم يعكس ما يسقط عليه من ضوء الشمس.

(٣٢) سورة الفرقان: ٦١.

ثانياً- ضرب الأمثال في القرآن

وقد اعتمد الأسلوب القرآني على ضرب الأمثال، وجعله قاعدةً أساسيةً في التعبير عن المعاني، ومن أساليب ضرب الأمثال المتبعة في القرآن هي ما يلي:

أ - إخراج المعاني الذهنية في صورة حسية متحركة

خذ هذا المعنى الذهني المجرد، وهو أنّ الكفار محرومون من دخول الجنة، وأنهم غير مقبولين عند الله بتاتاً، وتأمل كيف عرّضه الله في القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٣).

فيقول سيد قطب حول هذه الآية: «ويدعك ترسم بخيالك هكذا في صورة حسية ترسم في الخيال صورة تفتح أبواب السماء، وصورة ولوج الجمل في سمّ الخياط. وسواء أكان الجمل هو الحيوان المعروف أم الحبل الغليظ، فقد استقر في مخيلة السامع استحالة دخول الكافرين الجنة» (٣٤).

ب - تصوير الحالات النفسية والمعنوية

فعندما أراد الله سبحانه، أن يكشف عن حال أولئك الذين يهيء الله لهم المعرفة فيفرون منها كأن لم تهيأ لهم أبداً، ثم يعيشون بعد ذلك هابطين تطاردهم أنفسهم وأهواءهم بما عملوا وبما جهلوا، فلا هم استراحوا بالغفلة ولا هم استراحوا بالمعرفة، فيرسم لهم هذه الهيئة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٣٥).

(٣٣) سورة الأعراف: ٤٠.

(٣٤) التصوير الفني في

القرآن، سيد قطب:

ص ٣٤ بتصرف.

(٣٥) سورة الأعراف:

١٧٥.

وعندما أراد الله سبحانه أن يفضح ويُعرّي أولئك الذين هياً لهم سبيل الهداية لكنهم رفضوا، فأصبحوا في شقاء، فلا هم استراحوا بما هياً الله لهم من سبيل الخير والرشاد، ولا هم استراحوا بإعراضهم عن هذا الخير، فيصوّر القرآن حالتهم النفسية والمعنوية هذه في صورة حسية متحركة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣٦).

ج - عرض القضايا المنطقية والجدلية في أسلوب ضرب الأمثال وذلك في معرض الاستدلال على عظمة الخالق وقدرته، فالقرآن يأتي بالدليل المقنع من واقع الناس وما يشاهدونه ويعايشونه، لكنه معروض في صورة مؤثرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٣٧).

ومع أن هذا «المشهد قديم «مكرّر»، تمرّ عليه العيون في غفلة والنفوس ولكنه يُعرض هنا كأنه جديد وإنه لكفيل حين تتملّاه العين أن يوقع في النفس تأثراً وجدانياً خاصاً، فهذه القطع المتجاورات من الأرض مختلفة في النبات، لا بل إن النوع الواحد من النبات يختلف في الأشكال ممزوج ومنفرد وجميعه يُسقى بماء واحد، ولكن تختلف طعومه في الأكل... وأياً ما كانت هذه الملاحظات فمردها الأول إلى المشاهدة، مشاهدة هذه اللوحة

(٣٦) سورة الأعراف: ١٧٦.

(٣٧) سورة الرعد: ٤.

الطبيعية التي يوجه إليها الأنظار لترآها بالبداهة الملهمة والحسّ البصير بعد أن تتملأها الأبصار»^(٣٨).

ثالثاً- الإيجاز في القرآن الكريم

من خصائص الأسلوب القرآني الإيجاز، وهو التعبير عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة تؤدي الغرض من غير إخلال بالمعنى. والإيجاز نوعان: إيجاز حذف وإيجاز قصر.

أما إيجاز الحذف - كما يقول الرماني - فهو: «إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام»^(٣٩)، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتُ﴾^(٤٠).

ففي هذه الآية إيجاز حذف وهو حذف الجواب، كأنه قيل: لكان هذا القرآن كذا وكذا.. والحذف هنا أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب كل مذهب في القصد من الجواب، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان.

وأما إيجاز القصر فهو كما يقول الرماني: «بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف»^(٤١)، وله أمثلة كثيرة في القرآن حتى أن الشيخ أبا زهرة قال: بأن هذا النوع من الإيجاز لا تكاد تخلو منه سورة أو جزء سورة في القرآن حيث قال: «وأن الإيجاز بغير حذف كلمات كثيرة في القرآن لا تكاد تخلو منه سورة، بل جزء من السورة، بل صفحة من صفحاته التوراتية. فمن الحذف: ﴿وَإِسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾^(٤٢)، ومنه ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ آتَقَى﴾^(٤٣)، ومنه ﴿بِرَاءَةً مِنَ اللَّهِ﴾^(٤٤)، ومنه ﴿طَاعَةً وَقَوْلًا مَعْرُوفًا﴾^(٤٥)»^(٤٦).

(٣٨) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب: ص ٦٧.

(٣٩) النكت في إعجاز القرآن، الرماني: ص ٧٦، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

(٤٠) سورة الرعد: ٣١.

(٤١) النكت في إعجاز القرآن، الرماني: ص ٧٦، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

(٤٢) سورة يوسف: ٨٢.

(٤٣) سورة البقرة: ١٨٩.

(٤٤) سورة التوبة: ١.

(٤٥) سورة محمد: ٢١.

(٤٦) المعجزة الكبرى

القرآن: ص ٢٩٣.

ومن أمثلة إيجاز القصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَىٰ فِي
الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ
وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٤٧)، فيقول الباقلائي
حول الآية: «هذه «تتشمّل» على ست كلمات، سناؤها وضياؤها
على ما ترى، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد، ورونقها على ما
تعاين، وفصاحتها على ما تعرف.

وهي «تتشمّل» على جملة وتفصيل وجامعة وتفسير: ذكر العلو
في الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي النساء، وإذا
تحكّم في هذين الأمرين، فما ظنك بما دونهما؟ لأنّ النفوس لا
تطمئن على هذا الظلم، والقلوب لا تقرّ على هذا الجور»^(٤٨).

دلالة الإعجاز على خلود القرآن

هناك مجموعة من الآيات دلت على خلود القرآن الكريم،
وأثبتت إعجازه، ومن هذه الآيات، قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ
الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(٤٩)، فهذا خطاب فيه خلود دعوة التحدي
واستمرارها، إذ هي غير مقيدة بزمان، وعلى هذا الأساس فإنّ هذا
التحدي ساري المفعول إلى يومنا هذا مثلما كان في زمن النبي ﷺ،
وهذا خطاب من الله عزّ وجلّ، يأمر فيه نبيه ﷺ أن يُخبر كفار مكة،
بعجزهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن، وقد عمّ بهذا الخبر - المؤكّد
بالقسم - جميع الخلق إنهم وجنّهم، مُعجراً لهم، قاطعاً بعجزهم
مجتمعين عن الإتيان بمثله إلى يوم القيامة، ولو تظاهروا عليه.

(٤٧) سورة القصص: ٤.

(٤٨) إعجاز القرآن،

الباقلائي، ص ١٩٣-١٩٤.

(٤٩) سورة الإسراء: ٨٨.

كما قال محمود شاكر، في مقدمته لمالك بن نبي في كتابه «الظاهرة القرآنية»: «هذا التحدي للثقلين جميعاً إنهم وجَّههم متظاهرين، تحدٍ مستمر قائم إلى يوم الدين»^(٥٠)، وهو من أعظم الدلائل على خلود الإعجاز الذي يترتب عليه خلود القرآن؛ لأنَّهم قد عجزوا وهم الأقوياء المتقدِّمون، المتفوقون فكان غيرهم من الناس الذين أقلَّ منهم في الفصاحة، وأدناهم في البلاغة، وأضعف منهم في البيان أعجز.

ومن هنا يقول صاحب كتاب «بينات المعجزة الكبرى» في هذا الشأن: «إذا وجدناهم يُقرِّون بأنَّ الأصل والقدوة في البيان وبلاغة الكلم هم العرب الأوائل، وأنَّ من عداهم تبع لهم وقاصر فيه عنهم، وأنَّه لا يجوز أن يدَّعى للمتأخِّرين عن زمان النبي ﷺ، من خطباء وبلغاء وشُعراء أنَّهم زادوا على الأوَّلين الذين عاصروا نزول القرآن، وكانوا أوَّل من قرَّعهم بالتحدي، فإنَّ القوم الذين خلفوهم تبرَّؤوا من إدعاء مداناتهم، فضلاً عن الزيادة عليهم، وفي هذا يقول خالد بن صفوان: كيف نجاريهم! وإنَّما نحكيهم، أم كيف نسابقهم! وإنَّما نجري على ما سبق إلينا من أعراقهم»^(٥١).

فمن هنا نحكم على كلِّ الأجيال العربية وفي العصور الإسلامية المختلفة، بأنَّها ضعيفة وعاجزة؛ لأنَّها أقلُّ بدرجاتٍ من أولئك العرب السابقين الذين عجزوا عن معارضة القرآن وأستسلموا له، وإذا ثبت ذلك فإنَّ الأقوام الآخريين من العرب وغير العرب على اختلاف الزمان والمكان أضعف وأعجز، ويكون القرآن مُعجزاً لهم، كما كان مُعجزاً لأسلافهم.

(٥٠) الظاهرة القرآنية،
مالك بن نبي: ص ٢٥.
(٥١) بينات المعجزة
الخالدة: حسن ضياء
الدين، ص ١٩٣-١٩٤.

هذه الحقيقة الصادقة، يجب أن يُسلم بها كل شخص من العرب أو غيرهم، وأن يعترف بعجزه أمام القرآن، وضعفه عن معارضته ومن رفض ذلك وأراد أن يُعارض القرآن، فإن القرآن يتحداه بنفس آيات التحدي، ويطلب منه نفس ما طلب من أسلافه، ويدعوه إلى الإتيان بمثله، أو مثل سورة منه، حيث يطلب منه القرآن ذلك الطلب، ويتحداه بذلك التحدي؛ لأن القرآن واثق من عجزه عن الإتيان بمثل سورة من القرآن، حيث أعجز من هم أقوى منه في أسلافه.

ومن هنا يقول الدكتور حسن ضياء: «ثبت من غير إمتراء عجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله، أو بمثل أقصر سورة منه. ومضى وجه دلالة ظاهراً في إثبات نبوة محمد ﷺ لكن رب سائل يسأل: هل يعجز الناس في العصر التالية عن معارضة القرآن؟ والإجابة عن هذا تتخذ عندي طريقتين سديدين: «أولاهما»: أننا علمنا يقيناً عجز البلغاء في عصر البعثة المحمدية عن معارضة القرآن بسورة من مثله، وهذا كافٍ في الدلالة على أن من بعدهم أعجز؛ ذلك أن الأوائل كانوا «يَقْتُنُونَ»^(٥٢) في مصارف القول حتى حازوا قصب السبق، فلم يبق مجال لمن بعدهم للتفوق عليهم في الفصاحة والبلاغة، وأحسن أحوالهم أن يقاربوهم أو يساووهم، أما التقدم عليهم فأمر لم يعهدوه في أنفسهم، وهم أدري ببضاعته.

فإذا وجدناهم يُقرّون بأن الأصل والقدوة في البيان وبلاغة الكلم هم العرب الأوائل، وأن من عداهم تبع لهم...

(٥٢) هكذا وردت في النص والأصح: (يَقْتُنُونَ).

«ثانيتها»: أن القرآن معجزة باقية على الزمن، فالتحدّي بها باق على الزمن؛ لذا ورد التحديّ عامّاً لم يخص أهل العصر الأوّل دون غيرهم، بل تحدّى أهل كل عصر كما تحدّاهم. فالتحدّي بالقرآن يلزم أهل كلّ زمان ومكان، قال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (٥٣).

وقد ثبت من خلال أحوالهم وأقوالهم عجزهم عن مجارة القرآن، وقد صرّحوا بذلك ممّن كان يُشار لهم بالبنان في الفصاحة والبلاغة، ومن هؤلاء الوليد بن المغيرة، فعن ابن عبّاس قال: «إنّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، وكأنّه رَقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فقال له: يا عمّ، إنّ قومك يريدون أنّ يجمعوا لك مالاً. لِيُعْطَوْكَه، فإنّك أتيت محمداً تتعرّض لِمَا قَبْلَهُ. فقال: قد علّمت قريش أنّي من أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يبلّغ قومك أنّك منكرٌ له وكاره. قال: وما ذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منّي، ولا أعلم برجزها وبقصيدها منّي، والله، ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إنّ لقوله الذي يقول حلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه لمُمّثرٌ أعلاه، مُعْدِقُ أسفله، وإنّه ليعْلُو وما يُعْلَى. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه، فقال: هذا سحرٌ يُؤثرُ يَأْثُرُهُ عن غيره.

فنزلت: ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً... الآيات كلّها» (٥٤).

وإذا تحدّى القويّ خصمه، فأضعفه وأعجزه، فإنّ ضعفه وعجزه ينحسبُ على الآخرين الذين أقلُّ منه في قوّته، وهكذا

(٥٣) بينات المعجزة
الخالدة، حسن ضياء
الدين: ص ١٩٣-١٩٤.
(٥٤) أسباب النزول،
الواحي: ج ١، ص ٤٦٨.

الأمر في تحدّي القرآن للكافرين والمعاندين وتعجيزه لهم، وأنّ التّحدي موجّه في بادئ الأمر للمتقدّمين في الفصاحة والبيان، وهم العرب المعاصرون لنزوله وأنّهم قد عجزوا عن معارضته وضعفوا عن الإتيان بما تحدّاهم به، وبما أنّهم قد عجزوا وهم الأقوياء، وكان غيرهم من الناس الذين أقلّ منهم في الفصاحة، وأدناهم في البلاغة، أضعف وأعجز؛ فمن هنا حكم القرآن بخلود إعجازه بخلود التّحدّي الذي وقّف من الجميع بمسافةٍ واحدة في كلّ عصرٍ ومكان، فخلد القرآن.

المصادر و المراجع

※ القرآن الكريم.

١. ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الإعلام الإسلامي، سنة الطبع: ١٤٠٤ هـ .
٢. الفراهيدي، الخليل، العين، تحقيق: مهدي المخزومي - إبراهيم السامرائي، الناشر: مؤسسة دار الهجرة، الطبعة الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٩ هـ .
٣. الزبيدي، محمد عبد الرزاق، تاج العروس، تحقيق: علي شيري، الناشر: دار الفكر، سنة الطبع: ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
٤. الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، الناشر: دار الزهراء - بيروت، الطبعة الرابعة، سنة الطبع: ١٣٩٥ ش - ١٩٧٥ م.
٥. الجرجاني، علي، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٤٠٥ هـ .
٦. العلامة الحلي، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، تحقيق: حسن زاده الآملي، الناشر: مؤسسة نشر الإسلامي، الطبعة السابعة، سنة الطبع: ١٤١٧ هـ .
٧. المفيد، محمد بن محمد النعمان، النكت الإعتقادية، تحقيق: رضا المختاري، الناشر: دار- بيروت، الطبعة الثانية، سنة الطبع: ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م .
٨. السيوطي، عبد الرحمان، معترك الإقران في إعجاز القرآن، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
٩. عطاردي، عزيز الله، مسند الإمام الرضا عليه السلام، الناشر: المؤتمر العالمي الإمام الرضا عليه السلام سنة الطبع: ١٤٠٦ هـ .
١٠. ابن نبي، مالك، الظاهرة القرآنية، الناشر: دار الفكر.

١١. سيد قطب، قطب بن إبراهيم، في ظلال القرآن، الناشر: دار الشروق - بيروت، الطبعة الرابعة والعشرون، سنة الطبع: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
١٢. سيد قطب، قطب بن إبراهيم، التصوير الفني في القرآن، الناشر: دار الشروق.
١٣. الباقلائي، محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، الناشر: دار المعارف - مصر القاهرة، الطبعة الرابعة، سنة الطبع: ٤٠٣ هـ .
١٤. أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، الناشر: دار الفكر العربي.
١٥. الرماني، علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق: محمد خلف الله - محمد زغلول سلام، الناشر: دار المعارف - مصر، الطبعة الثانية، سنة الطبع: ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م .
- مصر القاهرة، الطبعة الرابعة، سنة الطبع: ٤٠٣ هـ .
١٦. حسن ضياء الدين، بَيِّنَات المعجزة الكبرى، الناشر: دار انصر - سوريا، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٣٩٥ ش - ١٩٧٥ م.
١٧. الواحدي، علي بن أحمد، أسباب نزول القرآن، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.

ما لا يمكن ترجمته من القرآن الكريم

(نظامه اللغوي)

أ.د. حسن منديل حسن العكيلي

كلية التربية للبنات - جامعة بغداد

خلاصة البحث:

الذي يتدبر النص القرآني يجد أنه منساق في ضوء نظام معجز محكم، يشبه بعضه بعضاً ويفسر بعضه بعضاً، ويتعلق بعضه برقاب بعض.

وفي كل مكونات النص القرآني نجد النظام نفسه: الصوتي والصرفي والتركيب والبياني والدلالي، وكل هذه المكونات يحكمها النظام نفسه، وهذا النظام اللغوي للقرآن الكريم مرتبط بتفسيره ودلالاته وحركة معناه على الرغم من ثبوت النص.

وهو نظام معجز وسر من أسرار القرآن الكريم التي لا تنكشف إلا للمتدبرين المتخصصين بأساليب القرآن وتفسيره وأسراره، وهو سبب من أسباب حفظ القرآن منذ نزوله وإلى يومنا هذا من غير تغيير أو تطور لفظي في نصه، فاللفظ ثابت والمعنى متحرك، ذلك أن نظام القرآن يحوي المتغيرات الزمانية والمكانية.

وقد أثبت علم اللغة المعاصر أنه لا يوجد نص لغوي أو لغة من لغات العالم منذ نشأة اللغات وإلى عصرنا هذا لم تسلم من التغيير أو التطور، بل والتفريع والموت.

والذي يتصدى لترجمة القرآن الكريم مهما أوتي من علم بالمعاني ودقة بالنقل سواء الترجمة النصية أو الحرفية لا يمكنه ترجمة النظام اللغوي للقرآن الكريم المرتبط بمعانيه وتفسيره؛ إذ سينفصل نظامه اللغوي عن دلالاته خلال الترجمة؛ لارتباط القرآن الكريم بلغته ارتباطاً عضوياً لا يمكن فصلهما.

المبحث الأول:

تاريخ ترجمة القرآن الكريم

زحف الفتح الإسلامي حتى شمل الشام، ومصر، والعراق، وفارس، والروم، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ولم يثبت أنه تُرجم القرآن ولا غير القرآن. كانوا يقرأون القرآن بالعربية، وقد انتشرت لغة القرآن مع انتشار الإسلام، فكان بين الإسلام والقرآن واللغة العربية تلازم وثيق، وكان هذا العصر من أشد العصور حاجة للترجمة لو كان انتشار الإسلام وقراءة القرآن مربوطاً بها. حيث يرى المالكية، والشافعية، والحنابلة، أنه لا يجوز القراءة بغير العربية سواء أحسن قراءتها بالعربية أم لم يحسن^(١).

تعريف الترجمة: هي «نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى مع الوفاء بجميع معاني الأصل ومقاصده».

ويقول بعضهم في تعريفها أنها: «التعبير عن معنى كلام في لغة بكلام آخر من لغة أخرى مع الوفاء بجميع معاني الأصل ومقاصده»^(٢). وترجمة القرآن على ثلاثة أقسام، هي:

١- الترجمة الحرفية بالمثل، وبعضهم قد يسميها «لفظية». ومعناها: أن يُترجم نظم القرآن بلغة أخرى تحاكيه، بحيث تحل المفردة محل المفردة، والأسلوب محل الأسلوب، وفيها يعتمد المترجم إلى كل كلمة في الأصل يفهمها ويستبدل بها كلمة تساويها في اللغة المترجم لها، وإن أدّى ذلك إلى خفاء المعنى المراد من الأصل، بسبب اختلاف اللغتين في مواقع استعمال الكلام في المعاني المرادة إلفاً واستحساناً^(٣).

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية/ الكويت: ج ١١، ص ١٦٩. وينظر: أيهما أولى بالترجمة: أترجمة معاني القرآن الكريم أم تفسير العلماء له؟ د. محمد بن صالح بن عبد الله الفوزان.

(٢) مناهل العرفان، الزرقاني: ج ٢، ص ٦-٧، ترجمة القرآن، د. عبد الله شحاته: ص ٥. مقال في مجلة الاقتصاد الإسلامي (العدد ١٥٤/ رمضان ١٤١٤هـ)، حازم عيجور: ص ٢٤.

(٣) مناهل العرفان، الزرقاني: ج ٢، ص ٧. التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي: ج ١، ص ٢٤. ترجمة القرآن وأثرها في معانيه، د. نجدة رمضان: ص ١٥٠.

وهذه الترجمة تكاد تكون مستحيلة، لأنها حتى تكون ممكنة لابد من أمرين:

أ- وجود مفردات في اللغة المترجم لها مساوية للمفردات في اللغة المترجم منها، حتى يمكن أن تحل كل مفردة في الترجمة محل نظيرتها في الأصل.

ب- تشابه اللغتين في الضمائر من حيث عودها واستمرارها، وروابط المفردات كالعطف والاستثناء، إلى غير ذلك مما يؤلف التراكيب^(٤).

وهذان الشرطان عسيران عند ترجمة كلام الناس، فما بالك بالقرآن الكريم، كلام رب العالمين المعجز؟ ولذلك حكم باستحالة الترجمة الحرفية بالمثل للقرآن الكريم.

٢- الترجمة الحرفية بغير المثل، وهي أن يترجم نظم القرآن بقدر طاقة المترجم، ولا يلتزم لفظاً مقابل لفظ، بل المهم عند المترجم التراكيب وحسن تصوير المعاني والأغراض^(٥).

ووجه اختلاف هذه عن السابقة «الحرفية بالمثل» أنه في الأولى يلتزم المترجم بالألفاظ لفظاً مكان لفظ، ولا ينظر للمعنى، بينما في الثانية «الحرفية بغير المثل» ينظر للمعاني لكنه حسب نظم القرآن وترتيبه دون زيادة أو بيان، فليس قصده البيان والتفسير كما في الترجمة «التفسيرية» الآتية. وبعضهم يسمي هذه الترجمة بـ «المعنوية».

٣- الترجمة التفسيرية «ترجمة معاني القرآن الكريم» وحقيقة هذا القسم أنه شرح وبيان لمعاني القرآن بلغة أخرى، دون محافظة على نظم الأصل وترتيبه، فالمترجم يسعى لشرح معاني

(٤) مناهل العرفان،
الزرقاني: ج ٢، ص ٩.
(٥) مناهل العرفان،
الزرقاني: ج ٢، ص ٧،
التفسير والمفسرون،
الذهبي: ج ١، ص ٢٥.

القرآن وبيان مدلوله، وإيضاح مجمله، وتقييد مطلقه، واستنباط الأحكام، وتوجيه المعاني، وذكر سبب وأحوال النزول إلى غير ذلك من المعاني التي يقصدها المفسر، فهي تفسير للقرآن لكن بلغة أخرى^(٦)، ويكون طولها وقصرها بحسب نهج المفسر ولا علاقة للنظم بها، فقد يفسر آية في صفحات، وقد يفسرها في بضع كلمات، وهذا القسم يسميه بعضهم «الترجمة التفسيرية» ويسميه آخرون «ترجمة معاني القرآن» ولا مشاحة في الاصطلاح والاسم، إذا انضبط المعنى المراد.

والأولى أن يُسمى: «تفسير القرآن بلغة كذا» للبعد عن اللبس.

كتابة القرآن بحروف غير عربية كالأحرف اللاتينية:

لا يجوز كتابة القرآن بحروف غير عربية، كالأحرف اللاتينية؛ لإجماع المسلمين، وذلك:

أ- أن الصحابة قد كتبوا القرآن بالحروف العربية، وقد التزم بهذا كل من جاء بعدهم إلى يومنا هذا، فكان منهم إجماع على ذلك.

ب- أن كتابته بأحرف غير عربية فيه إخلال وتحريف في لفظه، يتبعه تغير وفساد في معناه، والقرآن يجب أن يُصان عن ذلك.

ج- أن الأحرف الأخرى غير العربية - كالأحرف اللاتينية - خالية من عدة حروف توافق العربية، فلا تؤدي جميع ما تؤديه الأحرف العربية^(٧).

إن الذين حاولوا الترجمة من المستشرقين وغيرهم يعترفون بالعجز عن التعبير عن المعنى الأصلي لآيات القرآن، فهذا الأستاذ

(٦) التفسير والمفسرون،

الذهبي: ج ١، ص ٢٦، ٢٧.

ترجمة القرآن وأثرها

في معانيه، د. نجدة

رمضان: ص ١٥١.

(٧) حجة الله على

خليقته، الشيخ محمد

بخيت المطيعي:

ص ٤٧-٥٠.

مناهل العرفان،

الزرقاني: ج ٢، ص ٣٠.

الدكتور «إدوارد نتيت» من جامعة جنور بفرنسا، عبّر عن هذا العجز في مقدمة ترجمته للقرآن من العربية إلى الفرنسية، قال: «... فالذين يقرؤون القرآن باللغة العربية ويفهمونه متفقون على تنظيم جمال هذا الكتاب الديني، وفي تعظيم كمال أسلوبه في غاية الكمال الذي يعجز المرء عن التعبير عنه بأي ترجمة وبأي لغة من اللغات الأوروبية»^(٨).

وهذا «جورج سيل» من مترجمي القرآن للغة الإنكليزية يقول: «مهما حاولت أن أترجم القرآن لم أستطع ترجمته كما هو، وسيرى قرائي أنني لم أوفق للتعبير الصادق الصحيح عن متن القرآن»^(٩).

المبحث الثاني:

النظام اللغوي للقرآن الكريم

لا يخلو تعريف من تعاريف اللغة الحديثة المختلفة على كثرتها بحسب علماء اللغة ومناهجهم من عبارة «اللغة نظام». وقد حدّد «فردناند دي سوسير» مهمته في دراسة أنظمة العلامات مما يفهم بها البشر بعضهم بعضاً حيث أن علم اللغة جزء من علم العلامات، وهو: «العلم الذي يُعنى بدراسة تألف الظواهر التي تستند إلى نظام علامي إبلاغي في الحياة الاجتماعية كنظام الأزياء أو المأكّل».

(٨) ترجمة القرآن

وأثرها في معانيه، د.

نجدة رمضان: ص ٣١٤،

نقلًا عن إسماعيل أو غلو

في كتابه أصول التفسير

«تركي»: ص ٢٢٨.

(٩) المصدر السابق.

وينظر - أيهما أولى

بالترجمة: أترجمة معاني

القرآن الكريم أم تفسير

العلماء له؟ د. محمد

بن صالح بن عبد الله

الفوزان.

وانتقل إلى مناهج النقد الأدبي الحديث، فقال: «فتولدت
علامية الأدب وهي تسعى إلى إقامة نظرية في نوعية الخطاب
الإنشائي باعتباره حدثاً علامياً، أي نظاماً من العلامات الجمالية»^(١٠).
فحيث إن لكل لغة منطق ونظام خاص بها، يراعيه المتكلمون
بها «لأنه شرط الفهم والإفهام في البيئة اللغوية الواحدة، وإذا
أخل المتكلم بهذا النظام، حكم السامع على كلامه بالغرابة
والشدوذ والغموض ... ويرتبط هذا النظام بعقول أصحاب اللغة
وتفكيرهم إلى حد كبير ... ولكنه النظام الخاص الذي يختلف
من لغة إلى أخرى، ويتصف في كل بيئة بخصائص معينة تجعل
لكل لغة استقلالها وتميزها من غيرها»^(١١).

فنظام العربية - مثلاً - يختلف عن نظام الإنجليزية في كثير
من الظواهر والقواعد والأسس، ولا سيما في ترتيب الجملة وفي
الأفراد والتثنية والجمع وفي التأنيث والتذكير، وغير ذلك.
فالصفة مثلاً في نظام الإنجليزية تخالف الموصوف من حيث
الرتبة والمطابقة في العدد والجنس، ويُعد ذلك في العربية لحناً
وخطئاً، ذلك أن نظامها ينأى عن نظام الإنجليزية نحو:

ولدان ذكيان Two clever boys

بنتان ذكيتان Two clever girls

بنات ذكيات Clever girls

ولد ذكي a clever boy

بنت ذكية a clever girl

(١٠) الأسلوبية والأسلوب،

المسدي: ص ١٧٨.

(١١) من أسرار اللغة،

إبراهيم أنيس: ص ١٧٨.

لقد ربط القدماء بين اللغة والمنطق العقلي ، فدعا فلاسفة اليونان إلى طرائق تهيمن على التفكير الإنساني وجعلوها بديهيات لا يُختلف فيها، ومقدمات لقضايا عقلية ينتهون منها إلى حكم خاص لا يتردد العقل في قبوله^(١٢).

إن لغة القرآن مبنية على نظام خاص بها ، نظام استعمال واحد منتشر في كل مستوياتها: الصرفي والنحوي والبلاغي وغيرها. يزيد لها ترابطاً وتماسكاً بين مكوناتها اللفظية وبين دلالاتها من جهات مختلفة، من خلال انسياقها في ضوء نظام واحد متجانس متعلق بعضها برقاب بعض، وأقصد بالواحد أن النظام الصرفي يشبه النظام النحوي، وكلاهما يشبهان النظام البلاغي، وهكذا كل أنظمة مكونات لغة القرآن يحكمها «نظام المشابهة» ويربط بينها النظام نفسه ويشد بعضها إلى بعض، ويحمل بعضها على بعض.

وهذا سبب روعة أسلوب القرآن وجماله وتماسكه وعذوبة نغماته وترابط دلالاته مما بهر السامعين ولا سيما المتذوقين. وكلما زاد حمل الكلام بعضها على بعض بُعداً بلغ دقة دلالية وأدى أسراراً بيانية لا يفهمها كل إنسان إلا المختصون بأسلوب القرآن وأصحاب الذائقة الفنية.

وأن ما يبدو عدولاً في النص القرآني عن المعايير اللغوية والنحوية والصرفية والصوتية والدلالية، ليس خروجاً أو خرقاً لنظام العربية كما يرى أكثر النحاة والبلاغيين ولا سيما المعاصرون، وإنما هو خروج على القياس النحوي لا الواقع الاستعمالي للنص القرآني، بل هو نظام العربية نفسه في أعلى

(١٢) ينظر: المصدر

نفسه ١٣٤-١٤٣.

درجاته الإبداعية البلاغية لتؤدي اللغة معاني لا تؤدي إلا في ضوء أنظمة العربية المختلفة: الصرفي، والنحوي، والبلاغي وغيرها. وهو أحد وجوه إعجاز القرآن وسرّ التحدي للبشر عامة الذين لم يبنوا لغاتهم على نظام مطرد معجز.

وشرط تلمس هذا النظام وبناء هيكله أن تحدّد الدراسة النص القرآني نفسه أنموذجاً لها من غير خلطه بالمستويات اللغوية الأخرى، كالقرآيات والحديث الشريف الذي خضع للوضع والدس عبر تاريخ طويل، وكلام العرب من شعر ونثر وما يحوي من غريب وشاذ وضرورات ولحن وألغاز وغيرها.

يمتاز نظام عربية القرآن بالحيوية والمرونة؛ إذ يضيّق ويتّسع بحسب الحاجة والمستوى اللغوي والمخاطب والمخاطب ونوع الخطاب وبحسب التطور الذي تخضع له اللغات، فيستوعب التطور وما يصحبه من تغيير لفظي ودلالي، فيكون التطور في داخل النظام نفسه لتبقى لغة القرآن بمنأى عن التغيرات الزمانية والمكانية وتبقى الرسالة الإلهية كما أرادها الله تعالى خالدة ثابتة مع كل المتغيرات.

إن سعة المعنى وتأثره بمؤثرات مختلفة ووضوحه وخفائه وقوته وضعفه بحسب الرسالة التي يرسلها المبدع للتعبير عن تجربته النفسية، وارتباطها بالمقامات والأحوال تتطلب نظاماً لغوياً مرناً يستوعبها ويعبر عنها خير تعبير، وللتعبير عن المعنى وسائل عديدة، واللغة بأنظمتها المتركة خير وسائل التعبير عن المعنى، ولا سيما نظام اللغة العربية وخير دليل على ذلك هو إنزال الله تعالى

كتابه الكريم بها لتأدية معانٍ دقيقة وأسرار إلهية، وإنشاء رسالة خالدة متحركة المعنى مع المتغيرات الزمانية والمكانية فوق الطاقة الاستيعابية للعقل الإنساني في بعض جوانبها، والمعاني الروحية السامية المطردة مع أنظمة الكون والحقيقة المطلقة، وللتعبير عن الغيب الذي لم يطلع عليه الإنسان المتلقي في كل العصور للرسالة الخالدة. ولا تكفي المعرفة النحوية والبلاغية المعيارية للكشف عن نظام اللغة العربية.

هذه المعاني السامية يؤديها النظام البلاغي «الإبداعي-الأسلوبي» من أنظمة اللغة العربية التي تصدر من أسس وأصول واحدة ثم يتوسع فيها من خلال حمل الألفاظ والتراكيب والدلالات بعضها على بعض وتعلقها بعضها برقاب بعض، وهذا من أهم مظاهر التوسع في المعنى والتصرف بفنون القول في القرآن الكريم.

وهذا النظام اللغوي للقرآن الكريم مرتبط بتفسيره ودلالاته وحركة معناه على الرغم من ثبوت النص، وقد فصلت القول بنظام القرآن اللغوي في أطروحة الدكتوراه «الثانية»: «العدول عن النظام التركيبي في أسلوب القرآن الكريم - دراسة نحوية أسلوبية»^(١٣).

وذكرت شواهد قرآنية كثيرة عليه.

وهو أهم وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، ذلك أن نظامه اللغوي يشبه نظام الكون المبني على التشابه والترابط والحركة، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(١٤)، وهو دليل على أن

(١٣) جامعة بغداد،
كلية التربية للبيئات
٢٠٠٨.

(١٤) سورة يس: ٤٠.

خالق الكون هو نفسه قائل القرآن الكريم ، وهذا إثبات علمي
لمعجزة نبينا الكريم محمد ﷺ.

وهذا النظام المعجز هو من أسرار القرآن الكريم التي لا
تنكشف إلا للمتدبرين المتخصصين بأساليب القرآن وتفسيره
والتي هي من أسباب حفظ القرآن منذ نزوله وإلى يومنا هذا من
غير تغيير أو تطور لفظي في نصه، فاللفظ ثابت والمعنى متحرك،
ذلك أن نظام القرآن يحوي المتغيرات الزمانية والمكانية.

وكلاً من النظامين اللغوي والدلالي للقرآن الكريم يقوم على
المشابهة وتعلق بعضه برقاب بعض وتفسير بعضه بعضاً من غير
اختلاف، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ
اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(١٥)، وسائر أنظمة الكون مبنية على
هذا التشابه والتعلق.

إن لغة القرآن العربية هي من صنع البارئ عز وجل ومشيتته،
للتعبير عن المعنى الحق والحقيقة المطلقة، فأنزل بها كتابه
الكريم الذي يهيمن على الكون والوجود والأنظمة كلها، والتي
ترتبط مع اللغة العربية ارتباطاً عضوياً لا يمكن فصلهما^(١٦).

والذي يتصدى لترجمة القرآن الكريم مهما أوتي من علم
بالمعاني ودقة بالنقل سواء الترجمة النصية أو الحرفية لا يمكنه
ترجمة نظام القرآن اللغوي المرتبط بمعانيه إذ ستنفصل خلال
الترجمة؛ لارتباط القرآن الكريم بلغته ارتباطاً عضوياً لا يمكن
فصلهما.

(١٥) سورة النساء: ٨٢.

(١٦) القرآن وعلم

القراءة، جاك بلاك:

ص ٢٥.

ينظر جلُّ علماء العربية القدامى إلى اللغة العربية نظرة قدسية روحية غيبية، تحمل بين طياتها كثيراً من الأسرار الخارقة فوق إدراك البشر، لارتباطها بالقرآن الكريم والدين الإسلامي الحنيف، وكان هذا من أهم بواعث الاهتمام المتزايد بها.

ولذا يرى أحد المستشرقين وجود رابط عضوي بين الوحي الإسلامي واللغة العربية أما الكتب السماوية الأخرى فيقول عنها: «لا يوجد أي رابط عضوي مدعى بين هذه الدعوة «دعوة عيسى عليه السلام» في الإنجيل وألواح موسى عليه السلام وبين اللغة المستعملة»^(١٧) ذلك أن عيسى عليه السلام كان يعيش في وسط لساني شديد الاختلاط.

وكذلك لم يوجد هذا الترابط بين ألواح موسى عليه السلام وبين لغة معينة، وهو أمر مسكوت عنه^(١٨).

وهذا يفسر لنا سرَّ لم يتلَّ الرسول ﷺ القرآن بغير لغته العربية وإن كانت دعوته عامة للعرب وغيرهم.

وقد أجمع العلماء على استحالة نقل القرآن الكريم إلى لغة غير لغته وعدّوا ذلك تفسيراً له وليس قرآناً، ذلك أن الترجمة تفقده معناه المرتبط بنظام لغته العربية المبيّنة المرتبطة بنظام العقيدة الإسلامية، سواء كانت هذه الترجمة حرفية أو نصية، مهما كان المترجم على دراية باللغات وأساليبها وتراكيبها.

وقد اتخذ بعض المنافقين ذلك شبهة كونه خطاباً للناس جميعاً وليس للعرب وحدهم^(١٩).

(١٧) القرآن وعلم القراءة، جاك بيرك: ص ١٠١.

(١٨) الجانب الروحي في اللغة العربية: ص ٢٣. (١٩) شبهات حول القرآن وتفنيدها، د. غازي غانية (موقع)، وينظر: اعجاز القرآن وترجمته، د. جعفر دك الباب (بحث) مجلة التراث العربي ع ٧، ص ٢ نيسان ١٩٨٢.

إن لكل لغة نظامها والترجمة النصية هي نقل نظام اللغة المرتبط بنظام المجتمع وثقافته إلى النظام الآخر. ولنضرب لذلك مثلاً من اللغة الانكليزية فنقول إن الجملة الانكليزية: Arab Student Aid International ترجمتها الحرفية: العبارة الأولى Arab Student تدل على الطالب العربي أو الطلبة العرب أو تلاميذ أو دارس ودراسة ودارسين. والعبارة الثانية Aid International تدل على مساعدة «عالمية» ومعانٍ آخر مقاربه لها.

فتكون الترجمة الحرفية من غير النظام الذي يفهمه المتكلمون بالانكليزية في ضوء نظامهم اللغوي المرتبط بمجتمعهم وثقافتهم وتاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم: طالب عربي مساعدة عالمية. إما الترجمة إلى اللغة العربية فتكون: المؤسسة العالمية لمساعدة الطلبة العرب. وعليه إننا لا نعرف هذا المعنى إلا من خلال صياغته على وفق نظام اللغة العربية.

يتصف نظام اللغة العربية بالسعة والمرونة والتماسك ما يجعله أنجح وسيلة للتعبير عن المعاني التي تتصف بالتعقيد والتغير والتطور المستمر، ليواكب حركة الحياة المستمرة وضعفه وخفائه ورقته وصلته بالنظم الاجتماعية والنفسية الأخرى، وتفرّعه من أصول إلى فروع واختلافه من شخص إلى آخر ومن مستوى لغوي إلى آخر، واختلاف الأساليب في التعبير عن المشاعر والمعاني المادية والروحية، وعن المعاني المطلقة العالية التي اشتمل عليها القرآن الكريم والمعاني الثانية والأسرار البيانية والدلائل الإعجازية.

إن الوقوف على هذا النظام واتخاذ منهجاً في الدراسات اللغوية والنحوية والأسلوبية والدلالية والترجمة وغيرها يضعنا في المسار العلمي الرصين في دراسة اللغة العربية والنص القرآني. وتكمن أهمية دراسة أسلوبية ذلك هو في ارتباط نظام اللغة العربية واسلوبها بدلالة النصّ ولاسيما الدلالة البلاغية والفنية. وهذا مما تعنى به الأسلوبية الحديثة وإن كنا لم نقلد مناهجها؛ لأنها وضعت لأنظمة لغوية تنأى كثيراً عن نظام العربية الخاص بها. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين هو حسبنا ونعم الوكيل.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الأسلوبية والأسلوب، نحو بديل ألسني في نقد الأدب، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٧٧.
- أيهما أولى بالترجمة: أترجمة معاني القرآن الكريم أم تفسر العلماء له؟ د. محمد بن صالح بن عبد الله الفوزان
- دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من خمسين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً، ميحان الرويلي، د. سعد البازعي، ط ٢، المركز الثقافي العربي، بيروت، «د.ت».
- في النقد اللساني، دراسات ومثاقفات في مسائل الخلاف، د. سعد عبد العزيز مصلوح، ط ١، عالم الكتب ٢٠٠٤.
- القرآن، نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، بلاشير، نقله إلى العربية، رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت «د.ت».
- القرآن وعلم القراءة، جاك بيرك، ترجمة د. منذر عياش، ط ١، دار التنوير، بيروت ٢٠٠١.
- مشكلة البنية، فؤاد زكريا، مكتبة مصر بالفجالة، دار مصر للطباعة ١٩٧٦.
- من أسرار اللغة، د. إبراهيم انيس، ط ٦، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨.
- الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت ط ١٤٠٤-١٤٢٧هـ.
- الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم، الناشر: دار الفكر، لبنان، ط الأولى، ١٤١٦هـ.
- الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة.



أدب المبلِّغ في القرآن الكريم

د. الشيخ نعمة الحبيب

جامعة المصطفى العالمية



المقدمة

تعدّ عملية التبليغ من العمليات المهمّة التي تركز عليها أيديولوجية وفكر الإسلام، ولا بد لهذه العملية من منهج تقوم على أساسه، فالسائر على بصيرة من أمره يصل إلى مبتغاه. ويمكن القول: بأنّ منهج التبليغ يركز على ثلاث ركائز، أو ثلاثة أركان، وهي:

١ - المبلِّغ «بالكسر» «المرسل».

٢ - المبلِّغ «بالفتح» «الرسالة».

٣ - الوسيلة التي يبلغ بها.

والركيزة الثالثة، أو الركن الثالث، هي مقصدنا وغايتنا، والتي نريد الوقوف عندها، والتكلّم حولها، وعن أهم أدواتها وآلاتها، ألا وهو اللسان الذي ينطق به المبلِّغ، ويتكلّم فيه، ولا بد له من آداب وضوابط، وهذه الآداب والضوابط هي التي تمكّنه من الوصول إلى غايته، وخير مؤدب وخير ناصح هو القرآن الكريم، فحينما نقرأ ونتدبر ونتأمل في كلامه تعالى نجد الكثير من الآداب والمثل والمبادئ التي تكلم عنها في جوانب مختلفة، سواء كانت واجبة أو مستحبة، وما يهمنا هو أدب الكلام في القرآن الكريم.

فالكلام له أهمية كبيرة، فعلى أثر كلامك تترتب الكثير من القضايا، فربّ كلمة تؤدي إلى القطيعة بين شخصين، وربّ كلمة تصلح بينهما وتجبر وتطيّب خاطر إنسان مكسور.

يقول الشاعر:

كم في المقابر من قتل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان

وعن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من صدق لسانه زكا عمله...»^(١).

ولا ننسى بأن هناك دوراً كبيراً للقلب في استقامة اللسان، فكلما كان القلب مستقيماً كان اللسان أكثر استقامة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه»^(٢).

ويعتبر اللسان سلاحاً ذا حدين قد يفوق إطلاقه البندقية، أو قنبلة المدفع في الدفاع عن الحق، وما فعله ابن السكيت في ديوان المتوكل خير دليل على ذلك، حيث أُنْذِبَ لتعليم أولاد المتوكل، وجاء يوم جمعهم في مجلس واحد، فنظر المتوكل إلى ولديه المعتز والمؤيد وخاطب ابن السكيت قائلاً له: من أحب إليك؟ هما - يعني ولديه المذكورين - أو الحسن والحسين؟ فقال: قنبر - مولى علي عليه السلام - خيرٌ منهما، فأمر حينئذ الأتراك فداسوا بطنه حتى مات. وقيل: أمر باستلال لسانه فاستلوه حتى مات^(٣).

وليس هذا غريباً على أمثال ابن السكيت، فقد قال كلمة حق عند سلطان جائر، فهذا من أعظم الجهاد، كما ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله «من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»^(٤).

(١) الخصال، القمي:

٢١ - ٨٧.

(٢) ألف حديث في

المؤمن، النجفي:

ص ٢٥٦.

(٣) أمان ألامة من

الاختلاف، الصافي:

ص ٤٨.

(٤) عوالي اللئالي، ابن

أبي جمهور الإحسائي،

ج ١، ص ١٣٣.

الأدب الذي ينبغي مراعاته

هناك مجموعة من الآداب التي ذكرها القرآن الكريم والتي لابد للمبلغ والخطيب مراعاتها والالتزام بها؛ كي يكون مبلغاً ناجحاً ويترك أثراً واضحاً وبيّناً في نفوس جالسيه ومستمعيه، ويمكن ذكر أهمها:

الأول: ابتداءه بالبسملة.

حينما نقرأ في كتاب الله تعالى، نجده يبدأ في كل سورة بالبسملة باستثناء سورة التوبة، والهدف من ذلك الابتداء بحلول البركة في عمل الإنسان وإبعاد وساوس الشيطان عنه؛ ليكون مؤهلاً للهداية والتزام أمر الله ونهيه، فحينما يبدأ المولى تعالى وخالق الخلق أجمعين كتابه الكريم بالبسملة فهو دليل على أهميتها الكبرى.

(٥) العلق: ١.

(٦) هود: ٤١.

(٧) الأمثل في تفسير

كتاب الله المنزل،

الشيرازي: ج ١، ص ٢٦.

(٨) النمل: ٣٠.

من هنا أمر الله نبيه في أول آية أنزلها عليه أن يبدأ مهمته الكبرى باسم الله، مخاطباً: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾^(٥).

وكذلك نبي الله نوح عليه السلام، حينما ركب السفينة في ذلك الطوفان العجيب، وأخذ يمحّر عباب الأمواج الهادرة، ويواجه ألوان الأخطار على طريق تحقيق هدفه، فطلب من أتباعه أن يرددوا البسملة في حركات السفينة وسكناتها: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾^(٦).

وانتهت هذه السفرة المليئة بالأخطار بسلام وبركة،^(٧) كما يذكر القرآن الكريم: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾^(٨).

وكذلك سليمان عليه السلام يبدأ رسالته إلى ملكة سبأ بالبسملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ^(٩).

عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «كل أمر ذي بالٍ لم يذكر فيه بسم الله فهو أبتر» ^(١٠).

والعياشي بسنده عن الرضا عليه السلام قال: «إنها أقرب إلى اسم الله الأعظم من ناظر العين إلى بياضها» ^(١١).

وعن الباقر عليه السلام قال: «سرقوا آية من كتاب الله بسم الله الرحمن الرحيم وينبغي الإتيان بها عند افتتاح كل أمر عظيم أو صغير ليبارك فيه» ^(١٢).

وبالمسألة لا ينبغي أن تنحصر في اللفظ والصورة، بل لابد أن تتعدى ذلك إلى الارتباط الواقعي بمعناها، وهذا الارتباط يخلق الاتجاه الصحيح ويصون من الانحراف، ويؤدي حتماً إلى نتيجة مطلوبة مباركة.

وطبيعي أن البدء باسم الله الذي تفوق قدرته كل قدرة، يبعث فينا القوة، والعزم، والثقة، والإندفاع، والصمود، والأمل، أمام الصعاب والمشاكل، والإخلاص والنزاهة في الحركة.

لذلك على المبلِّغ وصاحب الدعوة إلى الله سبحانه، أن يأخذ بهذا الأدب ويبدأ به، كي تكون البركة والنعمة في انطلاقته لهداية الناس، لأن من أصعب الصعاب هو ترويض الإنسان، فلذلك ينبغي على من يمارس هذا العمل أن يسخر كل ما يملك من طاقات لإجل ذلك.

(٩) النمل: ٢٧.

(١٠) الخوئي، أبو القاسم،

البيان في تفسير القرآن،

ص ٢٩٥.

(١١) الكاشاني، الفيض،

التفسير الصافي، ج ١،

ص ٨٣..

(١٢) المصدر نفسه،

ج ١، ص ٨٣.

الثاني: أن يكون كلامه مقترناً بالقرآن

فكلام الله سبحانه خير كلام، وله وقع في نفوس السامعين، ليس على المسلمين خاصة، بل حتى على غيرهم، وهذا الأمر بدا جلياً منذ الوهلة الأولى للإسلام، حينما كان الرسول الأكرم ﷺ يتلوه على مرآى ومسمع من المشركين، فلما سمعوا به واختلط الأمر عليهم، أرسلوا أحد أفرادهم، ويدعى الوليد بن المغيرة لغرض سماعه وتشخيصه من أي أنواع البيان، وكان من حكماء العرب ويتحاكمون إليه في مثل هكذا أمور، ويتشدونه الأشعار فما اختاره من الشعر كان مختاراً، وقد كان من المستهزئين برسول الله ﷺ، وكان عما لأبي جهل فقال له: يا أبا عبد شمس ما هذا الذي يقول محمد أسحراً أم كهانة أم خطب؟

فقال: دعوني أسمع كلامه، فدنا من رسول الله ﷺ وهو جالس في الحجر، فقال: يا محمد أنشدني من شعرك، قال: ما هو بشعر، ولكنه كلام الله الذي به بعث أنبيائه ورسله، فقال: اتل عليّ منه، فقرأ عليه رسول الله: «بسم الله الرحمن الرحيم» فلما سمع الرحمن استهزأ فقال: تدعو إلى رجل باليمامة يسمى الرحمن، قال: لا، ولكنني أدعو إلى الله وهو الرحمن الرحيم، ثم افتتح سورة حم السجدة، فلما بلغ إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَنُوحٍ﴾^(١٣) وسمعه فاقشعرّ جلده، وقامت كل شعرة في رأسه ولحيته، ثم قام ومضى إلى بيته ولم يرجع إلى قريش. فقالت قريش: يا أبا الحكم، صبا^(١٤) أبو عبد شمس إلى دين

(١٣) فصلت: ١٣.

(١٤) إذا خرج من دين

إلى دين غيره.

محمد، أما تراه لم يرجع إلينا وقد قبل قوله ومضى إلى منزله، فاعتمت قريش من ذلك غماً شديداً، وغداً^(١٥) عليه أبو جهل فقال: يا عم نكست برؤوسنا وفضحتنا، قال: وما ذاك يا ابن الأخ؟

قال: صبوت إلى دين محمد، قال: ما صبوت وإنني على دين قومي وآبائي، ولكنني سمعت كلاماً صعباً تقشعر منه الجلود، قال أبو جهل: أشعر هو؟ قال: ما هو بشعر، قال: فخطب هي؟ قال: لا، إن الخطب كلام متصل، وهذا كلام منشور، ولا يشبه بعضه بعضاً، له طلاوة^(١٦)، قال: فكهانة، هي؟ قال: لا، قال: فما هو؟ قال: دعني أفكر فيه، فلما كان من الغد قالوا: يا أبا عبد شمس ما تقول؟ قال: قولوا هو سحر، فإنه آخذ بقلوب الناس، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ إلى قوله: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾^(١٧).

ولا يقتصر تأثير القرآن على الإنس والملائكة فقط، بل حتى على سائر المخلوقات الأخرى ومنها الجن، حيث قال القرآن الكريم: ﴿قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾^(١٨)، فقد صعق وتعجب حينما سمع ذلك.

وليس الإنس والجن والملائكة تخشع من سماع القرآن فحسب، بل الأمر يتعدى إلى الجماد أيضاً، وهذا يتضح من خلال قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(١٩).

فينبغي للإنسان صاحب الرسالة أن ينطلق بكلامه من ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كي تكون

(١٥) جاء إليه صباحاً.

(١٦) والطلاوة بالكسر

والفتح: الروتق والحسن.

(١٧) المدثر: ١١-٣٠.

(١٨) الجن: ١.

(١٩) الحشر: ٢.

دعوته ذات تأثير كبير على المخاطبين. فهو كما عبر عنه الرسول الأكرم ﷺ: «القرآن مأدبة الله فتعلموا مأدبته ما استطعتم»^(٢٠).

الثالث: ابتعاده عن التكلف.

تعتبر ظاهرة التكلف من الظواهر السلبية في عملية التبليغ، فلا ينبغي للمبليغ أن يكون متكلفاً في حديثه، ويبحث عن المصطلحات العلمية الصعبة لدى المجتمع، ومن ثم يلقيها في محاضراته، فالناس تميل إلى البساطة وإلى عدم التعقيد في الكلام، فمثل الكلام البسيط كمثل الأكلة البسيطة فهي تشبع الجسد ولا تضره، كذلك الكلام البسيط يؤدي الغرض نفسه، فلا يؤدي إلى نفور الناس عن الاستماع، أو تثاقلهم عن ذلك.

وكان الرسول ﷺ أفصح القوم لساناً في تبليغ رسالته، فمراعاة البساطة هي السرُّ في نجاح عملية التبليغ عند الأنبياء، والله سبحانه وتعالى أنزل كتابه الكريم إلى الناس بهذه الشاكلة، حيث جعل حقائقه تمتاز بالبساطة والفهم على لسان نبيه الخاتم ﷺ، من خلال قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^(٢١). حيث كرر هذه الآية المباركة أربع مرات من نفس السورة، وهذا يشير إلى التوكيد.

والرسول الكريم ﷺ كان معروفاً بذلك حتى قيل له: «يا رسول الله ما أفصحك، وما رأينا الذي هو أفصح منك، فقال: وما يمنعني من ذلك وبلساني نزل القرآن «بلسان عربي مبين»»^(٢٢).

(٢٠) بحار الأنوار،

المجلسي: ج ١٩، ص ٦.

(٢١) القمر: ١٧.

(٢٢) القمي، محمد بن

علي، معاني الأخبار،

ج ٢، ص ١.

ففي مهمة التبليغ لابد للفرد أن يتعد عن التكلف والتعالي في الكلام؛ لأن له نتائج مذمومة كما عبّر عنه الصادق الأمين عليه السلام، حيث قال: «إن هذا الدّين متين فأوغلوا فيه برفق، ولا تكرّوها عبادة الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبت الذي لا سقراً قطع، ولا ظهراً أبقي»^(٢٣).

الرابع: أن يكون صاحب بينة وبرهان.

لقد أكد القرآن الكريم على المطالبة بالدليل بالنسبة لمعارضيه في أكثر من مرة، وهذه سنة أرادها الله سبحانه وتعالى أن تجري في خلقه، سواء كانوا من الرسل أو من غيرهم، فحينما يتكلم المتكلم لابد له من دليل وبرهان بين، وشاهد على كلامه، فدين الإسلام الحنيف بُني على أساس الدليل، وقد ذكر تعالى ذلك في أكثر من مورد في كتابه الكريم، فنجد إبراهيم عليه السلام الذي أعطاه الله القوة في المحاججة والمناظرة، كما في قصته مع النمرود بن كنعان، الذي ادعى الربوبية حيث قال له إبراهيم عليه السلام: إن ربي هو يهب ويعطي الحياة لمن يشاء، ويميت من يشاء، فأجابه النمرود على أنه يحيي ويميت، بعد أن جيء له بشخص فقتل أحدهما، وأطلق سراح الآخر^(٢٤)، فطلب منه إبراهيم دليلاً آخر على صدق دعواه، وهو الإتيان بالشمس من المغرب، بعد أن أتى الله بها من المشرق، فعجز عن ذلك؛ لأنه لا يملك الحجة والبرهان على صدق ما ادعى، ولقد أشار الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ

(٢٣) المجلسي، محمد

باقر، بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢١٢.

(٢٤) التبيان في تفسير

القرآن، ج ٢، ص ٣١٥.

إِبْرَاهِيمَ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾.

ولقد وردت شواهد عدة في كتاب الله تعالى، تكلمت عن البرهان والبيّنة، سنقتصر على ذكر البعض منها:

الآية الأولى: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٦).

الآية الثانية: ﴿أَمْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٧).

الآية الثالثة: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٨).

الآية الرابعة: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٩).

الآية الخامسة: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (٣٠).

الآية السادسة: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (٣١).

ولقد اشتملت هذه الآيات الست، على كلمتي «البرهان والبيّنة» (٣٢).

وهذا الإلحاح والتأكيد من الشارع الإسلامي حول قضية البرهان والبيّنة، لأجل أن يكون ذلك سلاحاً للمبطل يدافع به عن

(٢٥) البقرة: ٢٥٨.

(٢٦) القصص: ٧٥.

(٢٧) النمل: ٦٤.

(٢٨) الأنبياء: ٢٤.

(٢٩) البقرة: ١١١.

(٣٠) هود: ٢٨.

(٣١) محمد: ١٤.

(٣٢) الدليل: هو إثبات

واقعي ملموس، على

حدوث شيء ما، أو

نفي حدوثه، أو صحة

قول ما أو بطلانه.

نستعمله في إثبات ما

لا يمكننا إثباته.

البرهان: هو إثبات

أقوى أو شهادة أقوى

من الدليل ومن الحجة،

لأن البرهان شيء قاطع،

لا يقبل مجرد الشك،

نظراً لشدة وضوحه

أمام الجميع. نستعمله

في نفي أو إثبات ما

قد عجزنا بكل الطرق

عن إثباته.

الأفكار التي يطرحها، خشية اتهامه بالكذب والافتراء، وكذلك هداية للناس في مختلف طبقاتهم ومكوناتهم وحجة لهم يدافعوا بها عن عقائدهم وآرائهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٣٣).

الخامس: أن يكون مشجعاً ومحفزاً

تعد ظاهرة التشجيع من الظواهر المحمودة والممدوحة عند البشرية كافة، حيث يعطي المشجع «بالكسر» إلى المشجع «بالفتح» من خلال تشجيعه العزم والإصرار، للمضي في ما هو فيه من عمل. وهذا التشجيع إما أن يكون بالجانب القولي، أو الفعلي، وحينما نتدبر في الكتاب والسنة، نجد كلاهما قد تطرق إلى ذلك في مواقف عديدة. فالقرآن حينما يقول: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَبْرًا﴾ (٣٤).

فالله سبحانه يكافئ هؤلاء الذين يعملون الصالحات، سواء كانت تلك الصالحات في القول والفعل، ونلاحظ ذلك في عدة مواضع في القرآن الكريم وسنقتصر على موضعين منها: أولاهما: في الآية التي تقدمت، ولو كان ذلك العمل بقدر ما ينقر على ظهر النواة.

وثانيهما: في الآية السابعة والثامنة من سورة الزلزلة، فهي تدل على نفس مضمون الآية التي سبقتها، من إعطاء الأجر لفاعل الخير بغض النظر عن مقدار هذا الفعل، الذي يقوم به الفاعل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٣٥).

(٣٣) يونس: ١٠٨.

(٣٤) النساء: ١٢٤.

(٣٥) الزلزلة: ٨.

وَأَمَّا فِي السُّنَّةِ الْمُبَارَكَةِ، فَنَجِدُ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ وَقَفَ فِي أَكْثَرِ
مِنْ مَوْقِفٍ، وَهُوَ يَشْجَعُ الْمُسْلِمِينَ، وَيُعَدِّهِمْ، وَيَمْنِيهِمْ، وَيُبَشِّرُهُمْ،
لِقَاءَ الْعِبَادَةِ الَّتِي يَقُومُونَ بِهَا تَجَاهَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَيَقُولُ ﷺ: «أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ عَشَقَ الْعِبَادَةَ فَعَانَقَهَا وَأَحْبَبَهَا
بِقَلْبِهِ، وَبَاشَرَهَا بِجَسَدِهِ، وَتَفَرَّغَ لَهَا، فَهُوَ لَا يَبَالِي عَلَى مَا أَصْبَحَ مِنْ
الدُّنْيَا عَلَى عَسْرِ أَمْ عَلَى يَسْرٍ»^(٣٦).

وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَنْ آبَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ
لَأَصْحَابِهِ: أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ فَعَلْتُمُوهُ تَبَاعَدَ الشَّيْطَانُ مِنْكُمْ
كَمَا تَبَاعَدَ الْمَشْرِقُ مِنَ الْمَغْرِبِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: الصَّوْمُ يَسْوِدُ
وَجْهَهُ، وَالصَّدَقَةُ تَكْسِرُ ظَهْرَهُ، وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْمُؤَاظَرَةُ^(٣٧) عَلَى
الْعَمَلِ الصَّالِحِ يَقْطَعُ دَابِرَهُ، وَالِاسْتِغْفَارُ يَقْطَعُ وَتِينَهُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ
زَكَاةٌ، وَزَكَاةُ الْأَبْدَانِ الصِّيَامُ»^(٣٨).

وَحِينَمَا نَقَرْنَا فِي عِلْمِ النَّفْسِ نَجِدُ بَأْنَ لِلتَّشْجِيعِ دَوْرًا كَبِيرًا،
وَهَذَا الْأَمْرُ بَيِّنٌ فِي الْفِطْرَةِ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، فَظَاهِرَةُ التَّشْجِيعِ
لَهَا دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي رَقِيِ الْمَجْتَمَعَاتِ وَتَطَوُّرِهَا.

وَهَذَا الْأَمْرُ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى الْكِبَارِ، بَلْ عَلَى الصِّغَارِ أَيْضًا، يَقُولُ
أَحَدُ عُلَمَاءِ النَّفْسِ الْمَعَاصِرِينَ: «إِنْ جَمِيعَ الْأَطْفَالِ دُونَ اسْتِثْنَاءٍ فِي
حَاجَةٍ إِلَى التَّشْجِيعِ، وَتَحْفِيزِ الشُّعُورِ بِالاعْتِمَادِ عَلَى النَّفْسِ أَكْثَرَ
مِنْ حَاجَتِهِمْ إِلَى الْخَشُونَةِ وَالْعُقُوبَةِ، وَمَا أَكْثَرَ الْأَطْفَالَ الَّذِينَ
ظَلُّوا جَاهِلِينَ بِالطَّاقَاتِ وَالْمَوَاهِبِ الْمَوْدَعَةِ فِيهِمْ عَلَى أَثَرِ فَقْدَانِ
الْمَحْفِزَاتِ وَالْمَشْجَعَاتِ لَهُمْ، فِي حِينٍ أَنْ تَذْكَيرًا بَسِيطًا أَصْبَحَ
قَادِرًا عَلَى إِظْهَارِهَا»^(٣٩).

(٣٦) بحار الأنوار،
المجلد: ج ٦٧،
ص ٢٥٣.

(٣٧) قوله: «والمؤازرة»
يقال: وأزرتة موازرة، أى:
أعنته وقويته ومنه الوزير.
وقوله: «دابر» أى: آخره
بحيث لم يبق منه شيء
ويمكن أن يقال: المراد
بالدابر ههنا تابعه وجنده
أو كناية عن الاستيصال،
والوتين: عرق في القلب
إذا انقطع مات صاحبه.
(٣٨) الكافي، الكليني:
ج ٤، ص ٩١، رقم
الحديث: ٦٢٧٦.

(٣٩) عالم نفس اجتماعي
أمريكي، (١٨٧١-١٩٣٨)،
الضبط الاجتماعي،
خليل معن: ص ٣٠.

ويضيف أحد العلماء التربويون: «إن الجانب الأعظم من الإضطرابات الفكرية والعصبية للأطفال ناشيء من السلوك المصحوب بالشدة والغلظة تجاههم، هذه الأمراض العصبية تظل ملازمة للإنسان مدى العمر»^(٤٠).

لذلك ينبغي على المبلغ أن يكون كلامه مشجعاً، ومحفزاً، إليه لكي يساهم في إظهار طاقاتهم وقابلياتهم، والتي تساهم في بناء مجتمعاتهم بشكل صحيح وقويم.

السادس: أن يكون لينا وطيباً.

أن التبليغ للدين الإسلامي كغيره من النظريات والإيدلوجيات، يحتاج إلى مرونة وليونة في ذلك؛ لأنّ القول اللين يقع أثره في القلوب أكثر من غيره، وتلك الليونة تناسب ودعوة الدين الإسلامي الحنيف، لأنه دين سلام، ومحبة ووئام، لا دين عنف وقتل وتكفير وسب وشتم، كما يصوره البعض.

وحيثما نبحت عن شواهد في آيات الكتاب الكريم، نجد الأمر جلياً واضحاً كظهور الشمس في رابعة النهار، ويمكن أن نذكر البعض منها: قوله سبحانه: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾^(٤١).

على الرغم من أنه طاغية إلا أن الله سبحانه أوصاهما بالبدا بالرفق معه، وأن يقولوا له القول اللين الذي يحمل الوقار والسكينة، لأنهما رسل من الله تعالى، ويحملون دعوة الحق فلا بد أن يتبعا هذا الأسلوب في دعوتهما.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ

(٤٠) الطفل بين الوراثة

والتربية، فلسفي: ج ٢، ص ٢٣٧.

(٤١) طه: ٤٣-٤٤.

مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ
عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٢﴾.

وتعتبر الليونة نوع من الحكمة، التي أشار الله سبحانه وتعالى إليها في كتابه الكريم، حينما خاطب نبيه الأكرم محمد ﷺ وكيف رسم له خطوط الدعوة وأدبها، فلا بد أن تكون الدعوة إلى الله متممة بنوع من الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن بعيداً عن الازدراء والقسوة.

ونقرأ في التاريخ بأن الإمام الكاظم عليه السلام كيف تعامل بحكمة وموعظة مع أحد أعداءه، فعن يحيى بن الحسن: «أن رجلاً كان بالمدينة يؤذيه ويشتم عليه، وكان قد قال له بعض حاشيته: دعنا نقتله، فنهاهم عن ذلك أشد النهي، وزجرهم أشد الزجر.

وسأل عن العمري فذكر له أنه يزرع بناحية من نواحي المدينة، فركب إليه في مزرعته فوجده فيها، فدخل المزرعة بحماره، فصاح به العمري: لا تطأ زرعنا، فوطأه بالحمار حتى وصل إليه، فنزل فجلس عنده وضاحكه، وقال له: كم غرمت في زرعك هذا؟ قال له: مائة دينار، قال: فكم ترجو أن يصيب؟ قال: أنا لا أعلم الغيب، قال: إنما قلت لك: كم ترجو أن يجيئك فيه؟ قال: أرجو أن يجيئي مائتا دينار، قال: فأعطاه ثلاثمائة دينار، وقال: هذا زرعك على حاله، قال: فقام العمري فقبل رأسه وانصرف» (٤٣).

وهذا مصداق لقوله الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٤٤).

(٤٢) طه: ٤٧.

(٤٣) الإمام الكاظم
عند أهل السنة،

الحسن: ص ١٥.

(٤٤) النحل: ١٢٥.

فالحكمة - كما يقول البعض - تشعر بالبعد العقلي، والموعظة تشعر بالبعد العاطفي.

وهذه الليونة في الكلام لابد أن تشتمل على الطيبة، فالكلام الطيب مرضي عند الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٤٥)، لذلك ورد في الحديث المنقول عن رسول الله ﷺ: «الكلمة الطيبة صدقة»^(٤٦).

ومما ورد في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إنكم إن لم تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»^(٤٧).

السابع: أن يكون الخطاب مناسباً لمستوى السامعين بطبيعة الحال أن ثقافة الأفراد في فهم أي موضوع وخطاب تختلف من شخص إلى آخر، وكل منهم يفسر الخطاب الذي يسمعه وفقاً لما يملكه من ثقافة أو فهم في ذلك الموضوع، وهذا نابع من الطبيعة التكوينية التي خلق الله سبحانه فيها الأفراد، وكذلك ما اكتسبوه من خبرات وتجارب في مختلف الميادين التعليمية.

وهذا المعنى قد أشار القرآن الكريم إليه حتى في الثواب والعقاب، فهو يثيب ويحاسب خلقه على قدر عقولهم، والرسول الكريم ﷺ أفصح عن ذلك في خطبته المباركة، حيث قال «إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم»^(٤٨).

وقال ﷺ: «ما أحد يحدث الناس بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم»^(٤٩).

فرسول الله ﷺ هو الصادق المصدق، والمعصوم من الزلل والخطأ، والذي يخبر وينطق عن السماء: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ *

(٤٥) فاطر: ١٠.

(٤٦) بحار الأنوار

المجلسي، ج ٨٠،

ص ٣٦٩.

(٤٧) البحار: ج ١٥

باب حسن الخلق.

(٤٨) بحار الأنوار،

المجلسي، ج ١، ص ٨٥.

(٤٩) شرح أصول

الكافي، المازندراني:

ج ٣، ص ٣٣٥.

إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيِي يُوحَى ﴿٥٠﴾. أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم، ولا يقتصر ذلك على الجانب التشريعي، بل حتى الجانب التكويني، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٥١). ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٥٢). ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٥٣).

فلا بد أن يكون كلام المبلّغ بقدر محسوب؛ لأن قليله قد يترك أثراً سلبياً، وكذلك كثيرة.

الثامن: أن يتلائم مع المناسبة

المناسبة: في اللغة هي المقاربة والمشكلة (٥٤).

يقال: فلان يناسب فلاناً، أي يقاربه ويشاكله. ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل بغيره، كالأخ وابن العم.

وتعدّ قضية الملائمة بين الأشياء من القضايا التكوينية التي جبلت عليها الفطرة، فالله سبحانه وتعالى حينما خلق الطبيعة جعل فيما بين عناصرها تجانساً بمختلف أطيافها، وألوانها، وأشكالها، فيقول سبحانه: ﴿كَتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (٥٥).

فكذلك الكلام لابد أن يكون متلائماً مع المناسبة وإلا عدّ غير مرغوب فيه، وفقد محتواه وهدفه المأمول من ورائه.

فحينما يُدعى الخطيب، أو المبلّغ، أو المحاضر إلى مناسبة ما، لابد من التكلّم بشيء ينسجم وتلك المناسبة، فلا يتكلّم مثلاً في حفل مسابقي القرآن عن واقعة كربلاء، أو عندما يكون مجلساً

(٥٠) النجم: ٣.

(٥١) القمر: ٤٩.

(٥٢) الحجر: ٢١.

(٥٣) الشورى: ٢٧.

(٥٤) تاريخ الخلفاء،

السيوطي: ج ٢، ص ١٣٩.

(٥٥) هود: ١.

تأبيناً لشيخ كبير، لا يتكلم عن عبد الله الرضيع عليه السلام، أو يتكلم عن فضائل شهر رمضان في شهر محرم، أو بالعكس.

التاسع: أن لا يكون كلامه طويلاً ومملّاً

أن الغاية الأساسية من الكلام هو أن يصل إلى السامع، ولا بد أن يتلقى السامع كلام الخطيب وهو في منتهى الراحة والانسجام معه، فلذلك لا بد للخطيب أن ينتبه إلى ذلك ولا يكون ضيقاً ثقيلاً على مضيفه، فحريٌّ به أن يختار أقصر العبارات لإيصال أكثر الأفكار من خلالها، فكلّما كان الكلام طويلاً، كان مملاً، ولو كان من أعلى المراتب، فسواء صدر من العالي إلى الداني، أو من الشخص المماثل لإقرانه، أو من الداني إلى العالي، والتاريخ مليء بالشواهد، فقد ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد أن الحجاج كان يخطب الجمعة فأطال، فقام إليه رجل، فقال: أن الوقت لا ينظرك والرب لا يعذرك فأمر به إلى الحسب، فأتاه آل الرجل وقالوا: انه مجنون، فقال: أن أقرّ على نفسه بما ذكرت من خليت سبيه، فقال: الرجل لا والله، لا أزعج انه ابتلاني وقد عافاني ^(٥٦). فهذا الرجل ضحية بني مروان، بحيث أرداه تضجّره وتذمره من إطالة الخطبة لأنها أصبحت مملة.

ولذلك حتى كتابه الكريم أجمل فيه أحكامه، وتشريعاته، وترك تفصيلاتها للنبي صلى الله عليه وآله فالله أعلم بالمصلحة.

فالكلام كما يقال: إذا طال اختل، وإذا اختل اعتل، ولذلك قيل في خلاصة الكلام وفائده في الحديث المنقول عن علي عليه السلام: «خير الكلام ما لا يملُّ ولا يقلُّ» ^(٥٧).

(٥٦) العقد الفريد، ابن

عبد ربه: ج ٤، ص ٢١١.

(٥٧) ميزان الحكمة،

ري شهري، ج ١، ص ٢٩١.

وقيل: خير الكلام ما أغنى اختصاره عن إكثاره^(٥٨).
لذلك قال الشاعر: خَيْرُ الكلام قَلِيلٌ ... على كَثِيرٍ دَلِيلٌ.

العاشر: أن يكون شمولياً ومستوفياً

إنَّ عملية نقل الأفكار إلى الآخرين، لا تتم ولا تُستقبل من المتلقي، إلا إذا كانت تامةً ومستوفيةً، وإلا يبقى ذلك الطرف ينتظر منك تنمة لتلك الأفكار، فلا يحق لك أن تطرح فكرة أو موضوعاً على المنبر مثلاً، وتتركه دون أن تتمه، لأن السامع سيغادر المكان وذهنه مشوّش، وبالتالي بدلاً من تنفعه قد تضره، وهذه طبيعة المجتمع فهم متفاوتون في الفهم والثقافة والاطلاع، فلا بد من إكمال الفكرة التي تطرح، ويتم بحثها بشكل جيد ومشبع كما يقال، فالقرآن حينما تكلم عن قضية برّ الوالدين، نجد الشمولية واضحة من خلال قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾^(٥٩).

وفي آية أخرى يستوفي الفكرة بطرح آخر: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلَحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٦٠).

فقد بين الشارع المقدس كيف أن الأم تحمل ولدها، وترضعه، وبين أن الحمل والرضاع إنما هما عبارة عن مشقة وكرهاً على الأم، ومع ذلك تحمله وتغذيه وتدفعه بعاطفتها.

(٥٨) الكامل في اللغة

والأدب، المبرّد:

ج ٢، ص ٢٣١.

(٥٩) لقمان: ١٤.

(٦٠) الأحقاف: ١٥.

ولا يكتفي بما تقدم، بل يعطي قاعدة كلية أخرى، تلزم الفرد المؤمن باحترام الأباء والأمهات، بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٦١).

فالمفروض أن ينزل المبلغ إلى مستوى السامع في طرح لموضوعه، ويكون ذات طبيعة شمولية، كي يستطيع الجالس فهم ذلك الموضوع الذي تم طرحه، وبالتالي يتحقق الهدف المأمول، وهو هداية الناس، خاصة إذا كان الموضوع غريباً على مسامع المتلقين.

المصادر

(٦١) الإسراء: ١٤.

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- القمي، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه، الخصال، تحقيق: علي أكبر الغفاري، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم: ١٤٠٣ هـ.
- ٣- النجفي، هادي، ألف حديث في المؤمن، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، الطبعة ١، ١٤١٦ هـ.
- ٤- الصافي، لطف الله، أمان الأمة من الاختلاف، الطبعة ١، المطبعة العلمية - قم: ١٣٩٧ هـ.
- ٥- الإحسائي، ابن أبي جمهور، عوالي اللئالي، انتشارات سيد الشهداء (عليه السلام)، قم: ١٤٠٥ هـ.

- ٦- الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مؤسسة البعثة، قم: ٢٠٠٠م.
- ٧- الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، دار الزهراء، بيروت - لبنان.
- ٨- الكاشاني، الفيض، التفسير الصافي، مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، ط ١، قم: ١٤١٨ - ١٣٧٦ ش.
- ٩ - المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، ط ٢، بيروت: ١٤٠٣ - ١٩٨٣م.
- ١٠- القمي، محمد بن علي، معاني الأخبار، تحقيق، علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم: ١٣٧٩ - ١٣٣٨ ش.
- ١١- الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، جامعة المدرسين، قم: ١٣٧١ - ١٤١٣ ق.
- ١٢ - الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، دارالكتب الإسلامية، ط ٣، طهران: ١٣٦٣ ش.
- ١٣- فلسفي، تقى، الطفل بين الوراثة والتربية، دار المرتضى.
- ١٤- الحسون، فارس، الإمام الكاظم عند أهل السنة، مركز الأبحاث العقائدية.
- ١٥- المازندراني، مولى محمد صالح، شرح أصول الكافي، دار إحياء التراث، بيروت: ٢٠٠٠م.
- ١٦- ابن عبد ربه، شهاب الدين بن محمد، العقد الزيد، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت: ١٤٠٤هـ.



موقف الذكر الحكيم من عقيدة رؤية الله تعالى

(ق١)

الشيخ أحمد المحمداوي
باحث إسلامي



المقدمة

يهتم المسلمون اهتماماً كبيراً بالعقيدة الصحيحة؛ لأنها تشكّل حجر الزاوية في سلوكهم، ولهذا كرّس رسول الله ﷺ في الفترة المكيّة من حياته الرّسالية نفسه لإرساء أسس التوحيد الخالص، ومكافحة الشرك والوثنية، ثم بنى عليها في الفترة المدنية صرح النظام الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والعقائدي.

وتعتبر عقيدة رؤية الله سبحانه وتعالى من المسائل العقلية الكلامية المهمّة جداً والتي طال الجدل والكلام حولها حتى قال المثبتون لها: إن الذي لا يؤمن بهذه العقيدة قد خرج من ربة الإسلام ويُنتع بأشدّ النعوت ويُنسب إلى فرق الضلال.

رغم أن هذه العقيدة مخالفة للمسلّمات العقلية السليمة، والإيمان بها يمسّ صميم التوحيد الخالص من تجسيم أو تشبيه، لذا كان القرآن أول من واجه هذه العقائد المنحرفة وتصدّى لإبطالها.

فجاءت مقالاتنا وهي لبنة أخرى مع ما سبقها في هذا الطريق بإسم «موقف الذكر الحكيم من عقيدة رؤية الله سبحانه وتعالى». وقبل الشروع في بحث الآيات التي استدل بها المثبتون على الرؤية لابد لنا من الوقوف على الآيات المحكمة التي تصف الله سبحانه بصفات جلالية وجمالية تهدف جميعها إلى تنزيهه سبحانه عن الجسم والجسمانية، وأنه ليس له مثل ولا نظير، ولا ندّ ولا كفؤ، وأنه محيط بكل شيء، ولا يحيطه شيء، إلى غير ذلك من الصفات التنزيهية، وهنا نشير إلى بعض منها:

١- قال سبحانه: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١).

٢- قال سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢).

٣- قال سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾^(٣).

٤- قال سبحانه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٤).

٥- قال سبحانه: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٥).

٦- قال سبحانه: ﴿فَاطَرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٦).

٧- قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٧).

(١) سورة الحشر: ٢٤.

(٢) سورة الأنعام: ١٠٣.

(٣) سورة الحديد: ٣.

(٤) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٥) سورة الحشر: ٢٣.

(٦) سورة المجادلة: ٧.

(٧) سورة الشورى: ١١.

٨- قال سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾^(٨).

٩- قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٩).

إن المتمعن بهذه الآيات المباركة يجد بأن الله عز وجل هو الخالق المصور الذي لا تدركه أبصار الناظرين ولا تصل له أوهام المخلوقين، وهو باطن كل شيء كما هو ظاهره، لا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض، قد أحاط بكل شيء جليلها وصغيرها، وكلها فقيرة محتاجة إليه، ومعها في كل مكان وزمان، ولا يمكن أن يحاط به ولا يمكن أن يغادره شيء أو يغيب عنه سبحانه وتعالى، ومن ذلك فهو أحدي لا ند له ولا كفؤ له ولا شريك ولم يلد ولم يولد، بل هو أزلي. وبما أنه أزلي الوجود، فهو قبل وبعد كل شيء، وأوله وآخره.

هذه صفاته سبحانه في القرآن ذكرناها بإيجاز وأوردناها بلا تفسير.

والمعلوم أن من سمات العقيدة الإسلامية كونها عقيدة سهلة ومحكمة لا إبهام فيها، فلو وجدنا شيئاً في السنة يصطدم مع تلك الصفات فيحكم عليه بالتأويل إن صحَّ السند، أو بالضرب عرض الجدار إن لم يصح.

(٨) سورة الحديد: ٤.

(٩) سورة فصلت: ٥٤.

فمن تلا هذه الآيات وتدبر فيها يحكم بأن الله سبحانه فوق أن يقع في وهم الإنسان وفكره ومجال بصره وعينه، وعند ذلك لو قيل له: إنه جاء في الأثر: أنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا «البدر» لا تضامون في رؤيته^(١٠)، فسيجد أن هذا الكلام يناقض الآيات، وسيشكك ويقول: إذا كان الخالق الباري الذي هو ليس بجسم ولا جسماني، ولا يحويه مكان ومحيط بالسموات والأرض، فكيف يرى يوم القيامة كالبدر في جهة خاصة وناحية عالية مع أنه كان ولا علو ولا جهة، بل هو خالقهما، وأين هذه الرؤية من وصفه سبحانه بأنه لا يحويه مكان ولا يقع في جهة وهو محيط بكل شيء؟! ولا يكون هذا التناقض بين الوصفين بأقل من التناقض الموجود في العقيدة النصرانية من أنه سبحانه واحد وفي الوقت نفسه ثلاثة.

(١٠) صحيح البخاري،

البخاري: ج ٤ ص ٢٠٠.

وكلما حاول القائل بالرؤية الجمع بين العقيدتين، لا يستطيع أن يرفع التعارض بين المعرفتين في أنظار المخاطبين بهذه الآيات، ومن جرّد نفسه عن المجادلات الكلامية والمحاولات الفكرية للجمع بين المعرفتين يرى التعريفين متضادين، فأين القول بأنه سبحانه بعيد عن الحس والمحسوسات منزّه عن الجهة والمكان محيط بعوالم الوجود؟ وفي نفس الوقت تنزله سبحانه منزلة الحس والمحسوسات، واقعاً بمرأى ومنظر من الإنسان يراه ويبصره كما يبصر البدر ويشاهده في أفق عال، فالجمع بين المعرفتين كجمع النصارى بين كونه واحداً وثلاثاً.

كيف وقف القرآن الكريم من سؤال الرؤية؟

لقد وقف القرآن الكريم من الرؤية موقفاً صلباً، وتعددت تعبيرات القرآن الكريم عن رفضه الصريح لسؤالها، وقد صرحت بذلك جملة من الآيات، نستعرضها تميماً للفائدة ونجعلها مفتاحاً للدخول في الموضوع، وهذه الآيات كالاتي:

١- قال سبحانه: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتَّهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (١١).

٢- قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّن السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ (١٢).

٣- قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرْنِي أَنظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرَاكَ وَلَكِن نُنْظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣).

٤- قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٤).

فالمتدبر في هذه الآيات يلاحظ أن القرآن الكريم يستعظم أمر الرؤية، ويستفزع سؤالها ويقبحه، ويعتبر الإنسان قاصراً في

(١١) سورة الأعراف: ١٥٥.

(١٢) سورة النساء: ١٥٣.

(١٣) سورة الأعراف: ١٤٣.

(١٤) سورة البقرة: ٥٥-٥٦.

نيلها حتى وصل الأمر أن ينزل سبحانه وتعالى العذاب على الذين سألوها، ومقتضى رحمته أن لا يعذب عباده لو كانت الرؤية ممكنة ولو بعد أجل - أي: في الآخرة - ولكننا نرى أن الله أنزل عليهم الصاعقة فأحرقتهم وماتوا وأحياهم بدعاء نبيه موسى عليه السلام. فإمعان النظر والتدقيق في الآيات وما ورد فيها من عتاب وتنديد، بل وإماتة وإنزال عذاب، يدل بوضوح على أن الرؤية فوق قابلية الإنسان، وطلبه لها أشبه بالتطلع إلى أمر محال، فعند ذلك لو قيل للمتدبر في الآيات «إنه روى قيس بن أبي حازم أنه حدثه جرير وقال: خرج علينا رسول الله ليلة البدر فقال: إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته»^(١٥)، يجد الحديث مناقضاً لما ورد في هذه الآيات ويشك أنه كيف صار الأمر الممتنع أمراً ممكناً، فيحكم على الرواية أنها إما أنها لم تصدر عن رسول الله ﷺ - كما يتبين لاحقاً إن شاء الله ضعف جميع الروايات - أو يحكم بتأويلها.

الآيات التي استدل بها مثبتو الرؤية ومناقشتها

لقد استدل مثبتو الرؤية بآيات في القرآن الكريم ونحن هنا نأتي على ذكرها ثم نقوم بمناقشتها.

الآية الأولى: قال سبحانه: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١٦).

قال سبحانه: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۖ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١٧)، والاستدلال بالآية يتوقف على توضيح مبشرين:

- (١٥) البخاري، محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، ج ٤، ص ٢٠٠.
- (١٦) سورة الانعام: ١٠٣.
- (١٧) سورة الانعام: ١٠٢.

المبحث الأول: في بيان مفهوم الدرك لغة:

الدرك في اللغة: اللحق والوصول، وليست بمعنى الرؤية، ولو أريد منه الرؤية فإنما هو باعتبار قرينية المتعلق.

قال ابن فارس: الدرك، الدال والراء والكاف، أصل واحد، «أي معنى واحد» وهو لحق الشيء بالشيء ووصوله إليه، يقال: أدركت الشيء، أدركه إدراكاً، ويقال: أدرك الغلام والجارية إذا بلغا، وتدارك القوم: لحق آخرهم أولهم، فأما قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبُصَارُ﴾ (١٨)، فهو من هذا، لأن علمهم أدركهم في الآخرة حين لم ينفعهم.

فإذا قال سبحانه: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبُصَارُ﴾ يتعين ذلك المعنى الكلي «اللحق والوصول» بالرؤية، ويكون معنى الجملة: أنه سبحانه تفرّد بهذا الوصف تعالى عن الرؤية دون غيره.

المبحث الثاني: في بيان مفهوم الآيتين:

جاء في تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي رحمته الله أنه قال في معرض حديثه عن هذين الآيتين المباركتين: «وأما قوله: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبُصَارُ﴾ فهو لدفع الدخول الذي يوهمه قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ بحسب ما تتلقاه أفهام المشركين الساذجة والخطاب معهم، وهو أنه إذا صار وكيلاً عليهم كان أمراً جسمانياً كسائر الجسمانيات التي تتصدى الأعمال الجسمانية، فدفعه بأنه تعالى لا تدركه الأبصار لتعالیه عن الجسمية ولوازمها، وقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْبُصَارُ﴾ دفع لما يسبق إلى أذهان هؤلاء المشركين الذين اعتادوا بالتفكير المادي، وأخلدوا إلى الحس والمحسوس

وهو أنه تعالى إذا ارتفع عن تعلق الأبصار به خرج عن حيلة الحس والمحسوس وبطل نوع الاتصال الوجودي الذي هو مناط الشعور والعلم، وانقطع عن مخلوقاته فلا يعلم بشيء كما لا يعلم به شيء، ولا يبصر شيئاً كما لا يبصره شيء فأجاب تعالى عنه بقوله: ﴿وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، ثم علّل هذه الدعوى بقوله: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ واللطيف هو الرقيق النافذ في الشيء، والخبير من له الخبرة، فإذا كان تعالى محيطاً بكل شيء بحقيقة معنى الإحاطة كان شاهداً على كل شيء لا يفقده ظاهر شيء من الأشياء ولا باطنه، وهو مع ذلك ذو علم وخبرة، كان عالماً بظواهر الأشياء وبواطنها من غير أن يشغله شيء عن شيء أو يحتجب عنه شيء بشيء، فهو تعالى يدرك البصر والمبصر معاً، والبصر لا يدرك إلا المبصر.

(١٩) تفسير الميزان،

الطباطبائي: ج ٧ ص ١٦١.

وقد نسب إدراكه إلى نفس الأبصار دون أولي الأبصار لأن الإدراك الموجود فيه تعالى ليس من قبيل إدراكاتنا الحسية حتى يتعلق بظواهر الأشياء من أعراضها كالבصر مثلاً الذي يتعلق بالأضواء والألوان ويدرك به القرب والبعد والعظم والصغر والحركة والسكون بنحو، بل الأغراض وموضوعاتها بظواهرها وبواطنها حاضرة عنده مكشوفة له غير محجوبة عنه ولا غائبة فهو تعالى يجد الأبصار بحقائقها وما عندها وليست تناله.

ففي الآيتين من سطوح البيان وسهولة الطريق وإيجاز القول ما يحير اللب وهما مع ذلك تهديان المتدبر فيهما إلى أسرار دونها أستاذ^(١٩). غير أن للرازي ومن لفّ لفه تشكيكات وشبهات تأتي بها مع تحليلها:

الشبهة الأولى:

قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢٠)، حيث قال: «في هذه الآية مسائل ولكننا نورد المسألة الأولى لمساسها بموضوعنا، وأما المسائل الأخرى تأتي بها على شكل شبهات تحتاج إلى شيء من البيان أقرب مما هي مسائل: المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى تجوز رؤيته والمؤمنون يرونه يوم القيامة.

أما المقام الأول: فتقريره: أنه تعالى تمدح بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، وذلك مما يساعد الخصم عليه، وعليه بنوا استدلالهم في إثبات مذهبهم في نفي الرؤية.

وإذا ثبت هذا، فنقول: لو لم يكن تعالى جازر الرؤية لما حصل التمدح بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ ألا ترى أن المعدوم لا تصح رؤيته، فثبت أن قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ يفيد المدح، وثبت أن ذلك إنما يفيد المدح لو كان صحيح الرؤية، وهذا يدل على أن قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ يفيد كونه تعالى جازر الرؤية.

وتمام التحقيق فيه: أن الشيء إذا كان في نفسه بحيث يمتنع رؤيته، فحينئذ لا يلزم من عدم رؤيته مدح وتعظيم للشيء.

أما إذا كان في نفسه جازر الرؤية، ثم إنه قدر على حجب الأبصار عن رؤيته وعن إدراكه كانت هذه القدرة الكاملة دالة على المدح والعظمة.

فثبت أن هذه الآية دالة على أنه تعالى جازر الرؤية بحسب ذاته^(٢١).

(٢٠) سورة الأنعام: ١٠٣

(٢١) مفاتيح الغيب

(تفسير الرازي)، الرازي:

ج ١٣، ص ١٢٥.

وقد أجاد السيد الجليل العلامة عبد الحسين شرف الدين رحمته الله في الرد على كلام الرازي بعدما أورده ملخصاً قال: «قلت: لا يخفى أن التمدّح في الآية الكريمة لم يكن بمجرد قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، وإنما كان بمجموع الأمرين المذكورين في الآية اللذين تعالى الله «عزّ وجلّ» بمجموعهما على جميع مخلوقاته، فحقّ له أن يتمدّح بعلوه. كما أوضحناه في توجيه دلالة الآية على امتناع الرؤية، على أن رؤية الله عزّ سلطانه إنّما امتنعت لامتناع الإحاطة بعظمته وجلاله وقصور الخلائق عن إدراك الكنه من ذاته، وبهذا يكون مجرد امتناع الرؤية سبباً للمدح ومنشأ للتمدّح، فقياس الحي القيوم على المعدوم والطعوم قياس مع فارق كما يعلمه هذا الإمام وأصحابه.

على أنا نقض عليه بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا﴾^(٢٢) ونحوه من الكتاب والسنة، فإنّ الحمد هنا على عدم اتخاذ الولد والشريك والولي من الذلّ مع كون كل منها ممتنعاً مستحيلًا في نفسه.

فهل يستطيع هذا الإمام أن يقول إن هذا الحمد لا وجه له، أو يقول: إن كلاً من الولد والشريك والولي جائز في نفسه؟ كلا بل لا يفوه بهذا ولا بذاك»^(٢٣).

وأما المقام الثاني «أن نقول: المراد بالأبصار في قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ ليس هو نفس الإبصار، فإنّ البصر لا يدرك شيئاً البتة في موضع من المواضع.

(٢٢) سورة الإسراء: ١١١.

(٢٣) كلمة حول الرؤية،

العامل: ص ١٠-١٧.

بل المدرك هو المبصر فوجب القطع بأن المراد من قوله: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ هو أنه لا يدركه المبصرون وإذا كان كذلك كان قوله: ﴿وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ المراد منه وهو يدرك المبصرين. ومعتزلة البصرة يوافقوننا على أنه تعالى يبصر الأشياء فكان هو تعالى من جملة المبصرين فقوله: ﴿وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ يقتضي كونه تعالى مبصراً لنفسه، وإذا كان الأمر كذلك كان تعالى جائز الرؤية في ذاته، وكان تعالى يرى نفسه.

وكل من قال: إنه تعالى جائز الرؤية في نفسه، قال: إن المؤمنين يرونه يوم القيامة، فصارت هذه الآية دالة على أنه جائز الرؤية وعلى أن المؤمنين يرونه يوم القيامة»^(٢٤).

وما أروع ما نقض به عليهم العلامة شرف الدين رحمته الله إذ قال:

«قلت: خرج الإمام الرازي في هذا الوجه عن محل البحث في المسألة كل الخروج، فإن محل النزاع فيها إنما هو إدراك غير الله لحقيقة ذات الله عز وجل، أما إدراك الله لحقيقة ذاته فمما لا خلاف فيه ولا ريبه لأحد. وأيُّ مسلم أو غير مسلم من أهل الأديان يقول بأنه يمتنع على الله أن يدرك كنه ذاته تعالى وقد ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ باتفاق أهل التوراة والإنجيل والفرقان العظيم، وما أغناها عن إقامة البرهان على ذلك.

وإذا استطل الشيء قام بنفسه وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

لكن الإمام الرازي احتج هنا بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ وفي احتجائه هذا نظر بل منع، لأن لفظ الأبصار في الآية منصرف عن الله تعالى إلى ذوي الأبصار من مخلوقاته،

(٢٤) مفاتيح الغيب
(تفسير الرازي) ج ١٣،
ص ١٢٥.

ضرورة أن المراد من الأبصار التي نصّت الآية على أنه يدركها، هو المراد من الأبصار التي نصت أولاً على أنها لا تدركه، وهذا هو المتبادر إلى الأذهان من الآية الكريمة، والإمام الرازي في فهمه وعلمه لا يخفى عليه ذلك لكنه شاء التشكيك، وإلا فأين الإجماع المركب عن مدلول هذه الآية: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، وأي عبارة في العربية أو غيرها أصرح منها في الدلالة على أنه لا يدركه أحد من جميع ذوي الأبصار من مخلوقاته وأنه تعالى يدركهم جميعاً. على أن الإجماع هنا لا يصلح حجة - لو تم - سواء أكان مركباً أم بسيطاً، ولعل الإمام الرازي لا يخفى عليه ذلك عفا الله عنا وعنه»^(٢٥).

الشبهة الثانية:

وهذه الشبهة عند الرازي أتت بعنوان الوجه الثالث ولكننا أتينا بها بعنوان شبهة لينسجم والعنوان الأول الذي وضعناه أعلاه، فقال: «أن لفظ الأبصار صيغة جمع دخل عليها الألف واللام فهو يفيد الاستغراق، فقلوه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ بمعنى لا تراه جميع الأبصار، وهذا يفيد سلب العموم ولا يفيد عموم السلب.

إذا عرفت هذا فنقول: تخصيص هذا السلب بالمجموع يدل على ثبوت الحكم في بعض أفراد المجموع، ألا ترى أن الرجل إذا قال: إن زيدا ما ضربه كل الناس فإنه يفيد أنه ضربه بعضهم. فإذا قيل: إن محمداً ﷺ ما آمن به كل الناس أفاد أنه آمن به بعض الناس، وكذا قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ معناه: أنه لا تدركه جميع الأبصار، فوجب أن يفيد أنه تدركه بعض الأبصار.

(٢٥) كلمة حول الرؤية،

العاملي: ص ١٠ - ١٧

أقصى ما في الباب أن يقال: هذا تمسك بدليل الخطاب. فنقول: هَبْ أنه كذلك إلا أنه دليل صحيح لأن بتقدير أن لا يحصل الإدراك لأحد البتة كان تخصيص هذا السلب بالمجموع من حيث هو مجموع عبثاً، وصون كلام الله تعالى عن العبث واجب»^(٢٦).

وقد أجاب عن هذا الكلام السيد شرف الدين رحمته الله بقوله: «قلت: النفي في الآية إنما أفاد عموم السلب لا سلب العموم، ضرورة أن عموم السلب هو المتبادر إلى الأذهان من إطلاق الآية الكريمة وأمثالها في كلام العرب، فقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ نظير قولهم: لا تشبه عليه الأصوات واللغات ولا تغشاه الظلمات والسنوات ولا يبرمه الملحون عليه بالحاجات والطلبات، إلى ما لا يحصى من أمثالها مما يكون السلب فيه عاماً شاملاً لكل فرد من أفراد الجمع المحلى بالألف واللام الواقع في سياق النفي، نحو قولنا: لا يحب الله المفسدين، ولا يكره المصلحين، ولا ينسى من فضله المحسنين، إلى ما لا نهاية له من أمثال ذلك.

ولا أدري من أين جاء بالتبويض وأين الدليل على سلب العموم. أن المتبادر في المقام كما في نظائره هو عموم السلب، أي: لا يدركه أحد من ذوي الأبصار»^(٢٧).

الشبهة الثالثة:

قال الرازي في تفسيره عند الوجه الرابع: «سلمنا أن الأبصار البتة لا تدرك الله تعالى فلم لا يجوز حصول إدراك الله تعالى بحاسة سادسة مغايرة لهذه الحواس كما كان ضرار بن عمرو يقول به؟ وعلى هذا التقدير فلا يبقى في التمسك بهذه الآية فائدة»^(٢٨).

(٢٦) مفاتيح الغيب

(تفسير الرازي)، الرازي:

ج ٦، ص ٤١٨.

(٢٧) كلمة حول الرؤية،

العالمي: ص ١٠-١٧.

(٢٨) مفاتيح الغيب مصدر

سابق: ج ٦، ص ٤١٨.

قال السيد العلامة شرف الدين رحمته الله:

«قلت: رجع هذا الإمام الهمام في هذا الوجه إلى رأينا بأن الله تعالى لا يُرى بالعين وأن سائر الحواس الموجودة الآن لا تصلح لرؤيته تعالى، معترفاً بثبوت ذلك، يرسل ثبوته إرسال المسلمات بكل قبول ورضى وطمأنينة.

وبهذا هدم كل ما بناه في الوجوه الثلاثة المتقدمة، وكأنه الآن قد اعترف بأن تلك الوجوه كانت مجرد تلفيق بعيدة عن الحق كل البعد.

أما دعواه بأن الله يُرى يوم القيامة بحاسة سادسة، فقد خرج بها عن محل النزاع في المسألة، على أنها مما لا دليل عليه إلا ما لفقه بقوله: إن الآية الكريمة ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ قد دلت على تخصيص نفي إدراك الله تعالى بالبصر، قال: وتخصيص الحكم بالشيء يدل على أن الحال في غيره بخلافه.

وهذا التلفيق لا يخفى فساده، إذ لا تخصيص في قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ كما لا تخصيص في نظائرها، نحو قولنا: ما كلمته بفمي ولا شممت عرفه بأنفي ولا وطأت برجلي أرضه، فكما أن قولنا: ما وطأت برجلي أرضه لا يدل على أنه وطأها بغير رجله، كذلك قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لا يدل على أنه يدرك بغير الأبصار، وأنا والله لا أدري كيف رضي هذا الإمام لنفسه هذه الفلسفات البعيدة كل البعد عن ظاهر الآية: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ وعن معناها المتبادر منها إلى أذهان أهل اللغة والعرف كافة، حتى كأنه في منتزح عن العربية وأهلها، وأنه

لا يرى ظواهر الألفاظ ونصوصها حجة فيما يخالف فلسفته، وما كان أولاه بأن يربأ بفضله وإمامته عن ذلك^(٢٩).

الشبهة الرابعة:

هذه الشبهة ذكرها ابن حزم في «فصله» والرازي في «مفاتيح الغيب»، وابن القيم في كتاب «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»، وقد أسهبوا الكلام في تطوير الشبهة، ولا يسع المقام لنقل عباراتهم كلها، وإنما نشير إلى المهم من كلماتهم.

وبما أن الأساس لكلام هؤلاء هو ابن حزم الظاهري نذكر نص كلامه أولاً: قال «إن الإدراك في اللغة يفيد معنى زائداً عن النظر، وهو بمعنى الإحاطة، وليس هذا المعنى في النظر والرؤية، فالإدراك «الإحاطة» فيض عن الله تعالى على كل حال في الدنيا والآخرة، والدليل على ذلك قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾^(٣٠).

ففرق الله عز وجل بين الإدراك والرؤية فرقاً جلياً، لأنه تعالى أثبت الرؤية بقوله: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ﴾ وأخبر تعالى بأنه رأى بعضهم بعضاً فصحت منهم الرؤية لبني إسرائيل، ولكن نفى الله الإدراك بقول موسى عليه السلام لهم: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾^(٣١)، فأخبر تعالى أنه رأى أصحاب فرعون بني إسرائيل ولم يدركوهم، ولا شك في أن ما نفاه الله تعالى غير الذي أثبتته، فالإدراك غير الرؤية والحجة لقولنا قول الله تعالى^(٣٢).

(٢٩) كلمة حول الرؤية،

العاملي: ص ١٠ - ١٧.

(٣٠) سورة الشعراء: ٦١.

(٣١) سورة الشعراء: ٦٢.

(٣٢) الفصل في الملل

والنحل، ابن حزم: ج ٣

ص ٣٣؛ ولاحظ، حادي

الأرواح إلى بلاد

الأفراح، ابن القيم،

ص ٢٢٩.

وقال الرازي ما محصله: «أن الرؤية جنس تحتها نوعان، رؤية مع الإحاطة ورؤية لا مع الإحاطة، والرؤية مع الإحاطة هي المسماة بالإدراك، فنفي الإدراك يفيد نفي نوع واحد من نوعي الرؤية، ونفي النوع لا يوجب نفي الجنس، فلم يلزم من نفي الإدراك عن الله تعالى نفي الرؤية عن الله»^(٣٣).

وحاصل الكلام: أن اللفظة إذا اقترنت ببعض أدوات الإدراك كالbصر والسمع يحمل المعنى الكلي - أي اللقوق والوصول - على الرؤية والسماع، سواء كان الإدراك على وجه الإحاطة أو لا، وأما إذا تجردت اللفظة عن القرينة تكون بمعنى نفس اللقوق، قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَآئِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣٤).

وقال سبحانه: ﴿فَاضْرِبْ لَهُم مَّصَرَفًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾^(٣٥)، أي لا تخاف لقوق فرعون وجيشه بك وبمن معك من بني إسرائيل.

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾، فأثبت الرؤية ونفي الدرك، وما ذلك إلا لأن الإدراك إذا جُرد عن المتعلق لا يكون بمعنى الرؤية بتاتاً، بل بمعنى اللقوق. نعم، إذا اقترن بالبصر يكون متمحّضاً في الرؤية من غير فرق بين نوع ونوع، وتخصيصه بالنوع الإحاطي لأجل دعم المذهب إفتراء على اللغة كما يذكره في مفاتيح الغيب بهذا القول «المرئي إذا كان له حدٌّ ونهاية وأدركه البصر بجميع حدوده وجوانبه ونهاياته، صار كأن ذلك الإبصار أحاط به فتسمى هذه الرؤية

(٣٣) مفاتيح الغيب،

الرازي: ج ١٣، ص ١٢٧.

رؤية الله، السبحاني:

ص ٥٨-٦١.

(٣٤) سورة يونس: ٩٠.

(٣٥) سورة طه: ٧٧.

إدراكاً، أما إذا لم يحط البصر بجوانب المرئي لم تسم تلك الرؤية إدراكاً»^(٣٦).

تناقض آراء المثبتين للرؤية في فهم الآية

استدل المثبتون بعدد من الآيات القرآنية لإثبات عقيدة الرؤية، وسوف نلاحظ التخبُّط والتناقض الذي وقع فيه هؤلاء القوم، وأنه ناتج عن عدم وجود أدلة رصينة يأوي إليها أولئك، أو يستطيعوا من خلالها أن يتمسكوا بهذه العقيدة إلا آراء محصلتها نسج الخيال، الذي تسم منه رائحة التجسيم ولا يمتُّ إلى التوحيد الخالص بأي صلة. وهذه الأدلة هي:

الآية الأولى:

قال سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٣٧).

ولا بأس أن نمرَّ على آراء المثبتين في تفسير هذه الآية الشريفة ونرى مدى الاختلاف الحاصل فيما بينهم.

قال ابن عاشور عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٣٨): «وذلك تعريض بانتفاء الإلهية عن الأصنام التي هي أجسام محدودة محصورة متحيّزة، فكونها مدركة بالأبصار من سمات المحدثات لا يليق بالإلهية ولو كانت آلهة لكانت محتجبة عن الأبصار»^(٣٩).

من هذا القول نفهم: أن الألوهية موجبة حجب الأبصار عن الذات العلية.

(٣٦) مفاتيح الغيب

(تفسير الرازي)، الرازي:

ج ٦، ص ٤١٧.

(٣٧) سورة الأنعام: ١٠٣.

(٣٨) سورة الأنعام: ١٠٣.

(٣٩) تفسير (التحرير

والتنوير)، ابن عاشور:

ج ٦، ص ٢٥٠.

والألوهية لا تجري عليها أحوال البشر فتغير من صفاتها الذاتية، فما لا يجوز وصفها به في الدنيا فكذلك لا يجوز وصفها به في الآخرة.

وأوضح ابن عاشور حقيقة الإدراك بقوله: «والإدراك حقيقته الوصول إلى المطلوب. ويطلق مجازاً على شعور الحاسة بالمحسوس أو العقل بالمعقول. يقال: أدرك بصري وأدرك عقلي تشبيهاً لآلة العلم بشخص أو فرس وصل إلى مطلوبه تشبيه المعقول بالمحسوس»^(٤٠).

فمن هذين النصين نعرف حقيقتين يقرُّ بهما النافون والمثبتون للرؤية: الألوهية والكبرياء تحجب الأبصار عن الذات العلية^(٤١). وبعد هذا الإقرار من قبل المثبتين للرؤية أخذت الأفهام في الترويج لفكرة رؤية الله سبحانه وتعالى المزعومة على حساب التنزيه ومقتضيات اللغة العربية.

ولم يمض على ابن عاشور طويل من الوقت حتى أخذ في الخلط بين الحق الذي أقرَّ به والباطل الذي عابه على عبّاد الأصنام، حيث قال:

«والمقصود من هذا بيان مخالفة خصوصية الإله الحق عن خصوصيات آلهتهم في هذا العالم، فإن الله لا يُرى وأصنامهم تُرى، وتلك الخصوصية مناسبة لعظمته تعالى، فإن عدم إحاطة الأبصار بالشيء يكون من عظمته فلا تطيقه الأبصار، فعموم النكرة في سياق النفي يدل على انتفاء أن يدركه شيء من أبصار المبصرين في الدنيا كما هو السياق»^(٤٢).

(٤٠) المصدر السابق:

ج ٦، ص ٢٥١.

(٤١) راجع أقوال

المثبتين للرؤية عند

شرحهم للرواية التي

فيها «... وما بين القوم

وبين أن ينظروا إلى

رهبهم لإرداء الكبير على

وجهه في جنة عدن».

(٤٢) التحرير والتنوير،

ابن عاشور: ج ٦، ص ٢٥١.

ومع إعادته لخصائص التقديس، إلا أنه أخذ يتراجع عن أقواله.

فقد فسّر إدراك الأبصار هنا بالإحاطة، ولكنه فسّره سابقاً بالوصول إلى المطلوب.

وتحديده لكلمة «الدنيا» هنا فيه إشعار بأن صفات الألوهية التي تقتضي حجب الأبصار عن رؤية الباري جلّ وعلا تجري على خصوصياتها تقلّبات الزمن، والعياذ بالله.

وهذه الأقوال التي نقلناها هنا عن ابن عاشور تعطي مثلاً واحداً من أمثلة عديدة لتناقضات معتقدي رؤية الله سبحانه وتعالى عند تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾.

وإذا أخذنا الجانب اللغوي لمعنى كلمة «تدركه» من كتاباتهم، وبحثنا عن فهمهم وتطبيقاتهم لها لو وجدنا العجب العجائب.

فقد حاول الإمام الرازي جاهداً توجيه معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ﴾ لتتفق مع ما ذهب إليه هو وغيره من إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى - كما مرّ أعلاه ونذكره ملخصاً هنا لبيان التناقض الذي وقع فيه - حيث قال: «المرئي إذا كان له حدٌّ ونهاية وأدركه البصر بجميع حدوده وجوانبه ونهاياته، صار كأن ذلك الإبصار أحاط به فتسمى هذه الرؤية إدراكاً، أما إذا لم يحيط البصر بجوانب المرئي لم تسم تلك الرؤية إدراكاً»^(٤٣).

وقال الرازي قبل هذه الفقرة:

«لا نسلم أن إدراك البصر عبارة عن الرؤية والدليل عليه: أن لفظ الإدراك في أصل اللغة عبارة عن اللحق والوصول، قال

(٤٣) مفاتيح الغيب،

الرازي: ج ١٣، ص ١٢٧.

تعالى: ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرَكُونَ﴾، أي: لملحقون، وقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾، أي: لحقه، ويقال: أدرك فلان فلاناً، وأدرك الغلام، أي: بلغ الحلم، وأدركت الثمرة، أي: نضجت. فثبت أن الإدراك هو الوصول إلى الشيء^(٤٤).
فبعد أن قال: «لا نسلم أن إدراك البصر عبارة عن الرؤية»، نجده يناقض نفسه حين قال: «والرؤية مع الإحاطة هي المسماة بالإدراك».

وبعد أن حدد الإدراك بالرؤية مع الإحاطة نجده يناقض هذا المفهوم ويثبت «أن الإدراك هو الوصول إلى الشيء».
وتفسير إدراك البصر بالإحاطة لا تقره لغة العرب وإن تحمس لهذا المعنى كثير من المفسرين وشرّاح الأحاديث، وكل الذين ذهبوا إلى هذا التفسير اعتمدوا على روايات ضعيفة منسوبة إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٤٤) تفسير الرازي،
الرازي: ج ١٣، ص ١٠٤.

وأما تفسير إدراك البصر برؤية الأبصار للشيء فهو الصحيح الثابت في لغة العرب الذي قالت به أم المؤمنين عائشة وتناقلته كتب اللغة قاطبة.

والحافظ ابن حجر - على رغم ادعائه ثبوت أدلة رؤية الله سبحانه وتعالى - إلا أنه وقف وقفة يشكر عليها حينما رد معنى كلمة الإدراك إلى قواعد اللغة واستعمالاتها في لسان العرب، حين قال:
«واستدل القرطبي في «المفهم» على أن الإدراك لا ينافي الرؤية بقوله تعالى حكاية عن أصحاب موسى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرَكُونَ﴾ ﴿قَالَ كَلَّا...﴾ وهو

استدلال عجيب لأن متعلق الإدراك في آية الأنعام البصر، فلما نفاه كان ظاهره نفي الرؤية، بخلاف الإدراك الذي في قصة موسى عليه السلام، ولولا وجود الأخبار بثبوت^(٤٥) الرؤية ما ساغ العدول عن الظاهر^(٤٦).

وأما قوله: «إن عائشة تمسكت بهذه الآية في نفي الرؤية، فنقول: معرفة مفردات اللغة إنما تكتسب من علماء اللغة، فأما كيفية الاستدلال بالدليل فلا يرجع فيه إلى التقليد»^(٤٧). فيرد عليه: أولاً: الذي ندعو إليه هو ما أقر به الرازي هنا من أن التقليد لا أساس له عند الاستدلال، فأقوال الناس لا بد لها من أن ترد إلى الثابت الصحيح من الأدلة.

ثانياً: من المعلوم قطعاً، وكما تشهد به كتب اللغة العربية، أن مادة كتب مفردات اللغة العربية أصلها من أفواه العرب الأقحاح من الصحابة وغيرهم من سكان الجزيرة العربية.

وأم المؤمنين عائشة من أساطين اللغة وقد تربت في بيت الفصاحة ومعدن اللسان وينبوع البلاغة، فإذا لم تكن هي مصدر اللغة فممن نأخذ اللغة العربية إذن؟

ثالثاً: أن علماء اللغة الذين يلجأ إليهم الرازي هم أنفسهم من فسّر إدراك الأبصار بالرؤية البصرية.

قال ابن منظور: «درك: الدرك: اللحاق، وقد أدركه... وأدركته ببصري أي رأيته...»^(٤٨).

وقال الجوهري: «الإدراك: اللحوق. يقال: مشيت حتى أدركته، وعشت حتى أدركت زمانه. وأدركته ببصري، أي رأيته»^(٤٩).

(٤٥) لم تثبت أدلة الرؤية، والدليل ما نقله ابن حجر نفسه من تضعيف لرجال أسانيد روايات الرؤية، وما نقله هو بنفسه من أقوال مضطربة في شرحه لرواية الصورة كما يأتي في الفصل الثالث.
(٤٦) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، العسقلاني: ج ٩، ص ٥٨٩.
(٤٧) تفسير الرازي، الرازي: ج ١٣، ص ١٠٥.
(٤٨) لسان العرب، ابن منظور: ج ٤، ص ٣٣٤، مادة (دَرَك).

(٤٩) تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري: ج ٤، ص ١٥٨٢.

وقال الراغب: «والرؤية إدراك المرئي»^(٥٠).

وجاء في المعجم الوسيط: «أدرك الشيء: بلغ وقته... والشيء ببصره: رآه. والمعنى بعقله: فهمه»^(٥١).

وقال أحد شراح الحديث وهو صاحب «عون المعبود»: «لم ينظر الله إليه يوم القيامة النظر حقيقة في إدراك العين للمرئي وهو هنا مجاز عن الرحمة أي: لا يرحمه الله»^(٥٢).

وقال أحد الفقهاء وهو محمد بن علي بن الطيب البصري: «أنه لا فرق بين قول القائل «افعل» وبين قوله: «أريد منك أن تفعل». يفهم أهل اللغة من أحدهما ما يفهمونه من الآخر. ويستعمل أحدهما مكان الآخر. فجرى مجرى إدراك البصر ورؤية البصر، في أن المفهوم من أحدهما هو المفهوم الآخر»^(٥٣).

وقال فقيه آخر وهو ابن رشد القرطبي: «... وعلم مقدار ذلك من منتهى رؤية العين الصحيحة، فأعطاه قدر ذلك من الدية. ويختبر صدقه في مسافة إدراك العين العليلة والصحيحة بأن يختبر ذلك منه مراراً شتى في مواضع مختلفة»^(٥٤).

وأهل الهندسة استعملوا إدراك البصر بمعنى الرؤية، قال صديق بن حسن القنوجي: «إدراك البصر يكون بمخروط شعاعي رأسه يقطعه الباصر، وقاعدته المرئي»^(٥٥).

وأهل الطب استخدموا إدراك الأبصار بمعنى النظر والرؤية، قال ابن القيم:

«... كما يرتفع من الأرض إلى الجو بخاران: أحدهما حار يابس، والآخر حار رطب، فينقعدان سحاباً متراكباً، ويمنعان

(٥٠) المفردات في

غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ص ١٨٩.

(٥١) المعجم

الوسيط، إبراهيم

مصطفى، وأحمد

حسن الزيات: ج ١،

ص ٢٨١..

(٥٢) عون المعبود في

شرح سنن أبي داود،

العظيم آبادي: ج ١١

ص ١٤١.

(٥٣) المعتمد في أصول

الفقه، البصري: ج ١

ص ٦٩.

(٥٤) بداية المجتهد

ونهاية المقتصد،

القرطبي: ج ٢، ص ٦٦٧.

(٥٥) أبجد العلوم،

القونجي: باب الميم،

ص ٥٢٣.

أبصارنا من إدراك السماء فكذلك يرتفع من قعر المعدة إلى منتهاها مثل ذلك، فيمنعان النظر»^(٥٦).

فإدراك البصر للمرئي عند علماء اللغة العربية، وحسب استعمالات الفقهاء وأهل العلوم الهندسية والطب، هو رؤيته للمرئي. ولم يأت عندهم معنى إدراك الأبصار بالإحاطة.

والذين فسروا الإدراك بـ «الرؤية على نعت الإحاطة بجوانب المرئي»^(٥٧). وقد اعتمدوا على رواية ضعيفة منسوبة إلى ابن عباس عن طريق عطية العوفي المدلس الضعيف، بحسب موازينهم الرجالية!

وقد اعترف الشوكاني بضعف عطية العوف^(٥٨) ولكنه مع هذا اعتمد على روايته التي نسبها إلى ابن عباس حين قال: «... وإدراك الشيء عبارة عن الإحاطة به... فالمنفي هو هذا الإدراك لا مجرد الرؤية»^(٥٩).

من هذه النصوص ندرك أن الذين ذهبوا إلى تفسير «تَدْرِكُهُ» بالإحاطة قد خالفوا ما ثبت عن أم المؤمنين عائشة، وخالفوا علماء اللغة، واتبعوا الضعيف من الروايات.

فكان من نتائج ذلك أن أتوا بالاحتمالات والتخمينات في فهم كلام الله تعالى وربط صفات الباري سبحانه وتعالى بالدنيا والآخرة.

وبهذا البيان نصل إلى أن هذه الآية لا تدل على ما ذهبوا إليه وهو إثبات رؤية الله تعالى.

(٥٦) الطب النبوي، ابن قيم الجوزية: ص ٨٥.
(٥٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي: ج ٤، ص ٢٣١.
(٥٨) تفسير الشوكاني، الشوكاني: ج ٢ ص ٢٠٩.
(٥٩) المصدر السابق: ج ٢، ص ٢٠٨-٢٠٩.

الآية الثانية:

قال سبحانه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾^(٦٠).

استدل القائلون بجواز الرؤية بآيات متعددة والمهم فيها هو الآية الثانية، أعني قوله سبحانه: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾^(٦١).

وقد كانت معركة للآراء بينهم وبين أهل التنزيه المحض، تجد ذلك مفصلاً في المصادر الكلامية والتفسيرية من الفريقين^(٦٢)، خاصة هذه الآية التي كانت مورداً لنقض وإبرام مترامي الأطراف من الفريقين إلى الحد الذي يجعل الباحث يتساءل: هل أن ألفاظ الآية غامضة بحيث تسمح بظهور معركة فكرية واسعة حولها؟

وهذا السؤال بالذات جعلنا نبحت عن طريق أوضح وأكثر اختصاراً من الطريق الذي سلكه متكلمو ومفسرو الفريقين، وهو: أن حجة الأشاعرة من هذه الآيات تتم فيما لو دلت على وقوع الرؤية دلالة حتمية بنحو لا يحتمل وجهاً آخر، بينما لا يحتاج مخالفوهم في إثبات مطلوبهم إلى أكثر من بيان وجه محتمل في هذه الآيات يخالف الرؤية.

وسر الفرق بينهما: أن الأشاعرة يدعون أمراً مخالفاً للمألوف، وهو تحقق الرؤية بلا كيفية، فيحتاجون إلى الإثبات القطعي الذي لا يقبل احتمالاً مخالفاً، فإذا جاء مخالفوهم باحتمال معارض كان ذلك كافياً لاسقاط ادعاء الرؤية، وبسقوطه يكون مطلوب أهل التنزيه المحض قد تحقق، وهو انتفاء رؤية الله سبحانه وتعالى.

(٦٠) سورة القيامة: ٢٣.

(٦١) سورة القيامة:

٢٠-٢٥.

(٦٢) مثل: تفسير الفخر

الرازي، وشرح المقاصد

للتفتازاني، وشرح المواقف

للإيجي، وشرح الأصول

الخمس، والمغني.

فالأصل هو انتفاء رؤية ما لا جسم ولا كيفية له، والبيّنة على من يدّعي خلافه، فإذا أقامها بنحو لا يقبل الشبهة والترديد فهو المطلوب، وإذا أقامها بنحو يقبل الشبهة والترديد فهو كمن لم يقيمها، وكأنه أراد الادّعاء بالادّعاء، وقد قيل: إذا جاء الاحتمال بطل الاستدلال، وحينما يبطل الاستدلال نعود إلى الأصل وهو انتفاء الرؤية.

وبهذا الطريق يمكننا أن نختصر النقاش بين الطرفين، فإنّ الأشاعرة مهما تمسّكوا بهذه الآيات، فإنّهم ليس بوسعهم الادّعاء بأنّ هذه الآيات لا تقبل معنى آخر غير الرؤية البصرية، وغاية ما يمكنهم الادّعاء به هو: أنّ الرؤية البصرية هي الاحتمال الراجح في هذه الآيات، وهذا بحد ذاته لا يكفي لإثبات الرؤية البصرية ولا يعني أنّهم قد أقاموا الدليل القرآني عليها لوجود عدّة احتمالات معارضة له.

ونحن هنا نعتبرها احتمالات، تنزّلاً، وإلاّ فإنّ أصحابها من أهل التنزيه المحض يرونها هي المعنى الصحيح والمراد المطلوب من تلك الآيات.

ففي الآية الأولى هناك احتمال أن يكون المراد بـ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾ ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ انتظار رحمة الله وفضله وثوابه، وهناك شواهد قرآنية ولغوية كثيرة تؤيد أنّ النظر لا يلزم الرؤية، فقد يقترن بها، وقد يفترق عنها؛ لأنّ النظر هو مدّ الطرف نحو الشيء رآه أو لم يره، وإذا أصرّ الأشاعرة على التلازم بين النظر والرؤية، فإنّ التلازم المدّعى لا يدلّ حتماً على الرؤية البصرية،

لا احتمال أن يكون المراد بالرؤية حينئذ الرؤية القلبية التي هي من خواص المؤمنين في الدنيا والآخرة، ومن الممكن أن تكون رؤيتهم القلبية لله سبحانه وتعالى في يوم القيامة أشد وأجلى بحيث تكون من أكبر النعم التي سينعمون بها.

وقد أحسن الشيخ محمد مهدي النراقي المتوفى سنة «١٢٠٩ هـ» تصوير وتقرير هذا المعنى في بحث رائع ضمن كتابه «جامع السعادات» نقتطف منه ما يناسب المقام، حيث يقول:

«ثم أهل السنة قالوا: إنّ الرؤية في الآخرة - مع تنزهها عن التخيل والتصوير والتقدير بالشكل والصورة والتحديد بالجهة والمكان - تكون بالعين دون القلب، وهو عندنا باطل.

إذ الرؤية بالعين محال في حق الله تعالى، سواء كانت في الدنيا أو في الآخرة، فكما لا تجوز رؤية الله سبحانه في الدنيا بالعين والبصر، فكذلك لا تجوز في الآخرة، وكما تجوز رؤيته في الآخرة بالعقل والبصيرة لأهل البصائر - أعني غاية الانكشاف والوضوح بحيث تتأدّى إلى المشاهد واللقاء - فكذلك تجوز رؤيته في الدنيا بهذا المعنى، والحجاب بينه وبين خلقه ليس إلّا الجهل وقلة المعرفة دون الجسد، فإنّ العارفين وأولياء الله يشاهدونه في الدنيا في جميع أحوالهم ومنصرفاتهم، وإن كان الحاصل في الآخرة أزيد انكشافاً وأشدّ انجلاء بحسب زيادة صفاء النفوس وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية، وقد ثبت ذلك من أئمتنا الراشدين العارفين بأسرار النبوة، روى شيخنا الأقدم محمد بن يعقوب الكليني وشيخنا الصدوق محمد بن علي بن بابويه - رحمهما

الله تعالى - بإسنادهما الصحيح عن الصادق عليه السلام: أنه سئل عما يروون من الرؤية، فقال: الشمس جزء من سبعين جزء من نور الكرسي، والكرسي جزء من سبعين جزء من نور العرش، والعرش جزء من سبعين جزء من نور الحجاب، والحجاب جزء من سبعين جزء من نور الستر، فإن كانوا صادقين فليملئوا أعينهم من نور الشمس ليس دونها سحب (٦٣)» (٦٤).

وفي الكافي بإسناده عن أحمد بن اسحاق قال: «كتبت إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام أسأله عن الرؤية وما اختلف فيه الناس، فكتب: لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء ينفذه البصر، فإذا انقطع الهواء عن الرائي والمرئي لم تصح الرؤية وكان في ذلك الاشتباه، لأن الرائي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه، وكان ذلك التشبيه، لأن الأسباب لا بد من اتصالها بالمسببات» (٦٥).

وعن أبي بصير عن الصادق عليه السلام قال: «قلت له: أخبرني عن الله - عز وجل - هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قال: نعم! وقد رأوه قبل يوم القيامة»، فقلت: متى؟ قال: حين قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى...﴾، ثم سكت ساعة، ثم قال: وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة، ألسن تراه في وقتك هذا؟ قال أبو بصير: فقلت له: جعلت فداك! فأحدث بهذا عنك؟ فقال: لا! فإنك إذا حدثت به فأنكره منكر جاهل بمعنى ما تقوله، ثم قدر أن ذلك تشبيه كفر. وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين، تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون» (٦٦).

(٦٣) الكافي، الكليني:

ج ١، ص ٩٨.

(٦٤) جامع السعادات،

النراقي: ج ٣، ص ١٢٤.

(٦٥) الكافي، الكليني:

ج ١، ص ٩٧.

(٦٦) التوحيد، الصدوق:

ص ١١٧.

وسئل أمير المؤمنين عليه السلام: «هل رأيت ربك حين عبدته؟ فقال: ويلك! ما كنت أعبد رباً لم أره.

قيل: وكيف رأيته؟ قال: ويلك! لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار، ولكن رآته القلوب بحقائق الإيمان» ^(٦٧).

بعدما ذكرنا أن المراد من الآية الشريفة هو انتظار الثواب والكرامة من الله سبحانه وتعالى نأتي إلى مناقشة آراء المثبتين للرؤية بهذه الآية ونعرض بعض آراء المفسرين ويكون ختام النقاش في هذه الآية المباركة.

يقول الشارح القوشجي في شرحه لتجريد الاعتقاد: «إن النظر إذا كان بمعنى الانتظار يستعمل بغير صلة ويقال انتظرته، وإذا كان بمعنى التفكير يستعمل بلفظة في، وإذا كان بمعنى الرأفة يستعمل بلفظة اللام، وإذا كان بمعنى الرؤية يستعمل بلفظة إلى، فيحمل على الرؤية» ^(٦٨).

وبالإمكان الرد على هذا الرأي كما ذكره الشيخ السبحاني، وهو: «الأول: أنه سبحانه استخدم كلمة وجوه لا عيون، فقسم الوجوه إلى قسمين: وجوه ناضرة، ووجوه باسرة، ونسب النظر إلى الوجوه لا العيون، فلو كان المراد هو الرؤية لكان المتعين استخدام العيون بدل الوجوه، والعجب أن المستدل غفل عن هذه النكتة التي تحدد معنى الآية وتخرجها عن الإبهام والتردد بين المعنيين، وأنت لا تجد في الأدب العربي القديم ولا الحديث مورداً نسب فيه النظر إلى الوجوه وأريد منه الرؤية بالعيون والأبصار، بل كلما أريد منه الرؤية نسب إليهما.

(٦٧) أصول الكافي،
الكليني: ج ١، باب إبطال
الرؤية.

الوافي، الفيض
الكاشاني: ج ١، ص ٦٩
باب إبطال الرؤية.

(٦٨) شرح التجريد،
القوشجي: ج ١، ص ٣٣٤.

الثاني: لا نشك أن الناظرة في قوله: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بمعنى الرائية، ونحن نوافق المثبتين بأن النظر إذا استعمل مع «إلى» يكون بمعنى الرؤية، لكن الذي يجب أن نلفت إليه نظر المستدل هو أنه ربما يكون المعنى اللغوي ذريعة لتفهم معنى كنائي، ويكون هو المقصود بالأصالة لا المدلول اللغوي، فلو قلنا: زيد كثير الرماد، فالجملة مستعملة في معناها اللغوي، ولكن كثرة الرماد مراد استعماله لا جدّي، والمراد الجدّي هو ما اتخذ المعنى الاستعمالي وسيلة لإفهامه للمخاطب، والمراد هنا: هو جوده وسخاؤه وكثرة إطعامه، فإذا قال الرجل: زيد كثير الرماد، فلا نقول: إن القائل أخبرنا عن كثرة الرماد في بيت زيد الذي يعدُّ أوساخاً ملوثة لبيته، فيكون قد ذمّه دون أن يمدحه، بل يجب علينا أن نقول: بأنه أخبر عن جوده وسخائه، والعبرة في النسبة المراد الجدّي لا الاستعمالي، وهذه هي القاعدة الكلية في تفسير كلمات الفصحاء والبلغاء... ويمكن لن أن تناقش هذه الآيات وذلك بالمقابلة بينها عن طريق الترتيب التالي:

١ - قال سبحانه: ﴿كَأَلَّا بَلَّ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾

يقابلها ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾

٢ - قال سبحانه: ﴿وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾

يقابلها ﴿وَوَجُودَ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾

٣ - قال سبحانه: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾

يقابلها ﴿تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾^(٦٩).

إن الذي ينظر بدقة ويرى التقابل الذي وقع بين الآيتين يشخص بأن المراد من الآية الأولى هو الشق الثاني الذي يقابل هذه الآية،

(٦٩) سورة القيامة:

٢١-٢٥.

(٧٠) سورة القيامة: ٢٥.

أي: ﴿تَظُنُّ أَنَّ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾^(٧٠)، فهو صريح في أن أصحاب

الوجوه الباسرة ينتظرون العذاب الكاسر لظهرهم، ويظنون نزوله. وهذا الظن لا ينفك عن الانتظار، فكل ظان لنزول العذاب منتظر، فيكون قرينة على أن أصحاب الوجوه المشرقة ينظرون إلى ربهم، أي يرجون رحمته، وهذا ليس تصرفاً في الآيات ولا تأويلاً لها، وإنما هو رفع الإبهام عن الآية بالآية المقابلة لها، وترى ذلك التقابل والانسجام في آيات أخرى، غير أن الجميع سبيكة واحدة.

١ - قال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾

يقابلها ﴿صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾.

٢ - قال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾

يقابلها: ﴿تَرَهَقَهَا قَتَرَةٌ﴾^(٧١) فإن قوله ﴿صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ قائم

مقام قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ فيرفع إبهام الثاني بالأول.

٣ - قال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾

يقابلها: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾^(٧٢)

٤ - قال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾^(٧٣)

يقابلها: ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ﴾ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾^(٧٤)

انظر إلى الانسجام البديع، والتقابل الواضح بينهما، والهدف الواحد، حيث الجميع بصدد تصنيف الوجوه يوم القيامة، إلى ناظر ومسفر وناعم وإلى باسر وأسود «غبرة» وخاشع.

أما جزاء الصنف الأول، فهو الرحمة والغفران، وتحكيه الجمل التالية: إلى ربها ناظرة، صاحكة مستبشرة، في جنة عالية.

(٧١) سورة عبس:

٤١-٣٨.

(٧٢) سورة الغاشية: ٢-٤.

(٧٣) سورة الحاقة: ٢٢.

(٧٤) سورة الغاشية:

١٠-٨.

وأما جزاء الصنف الثاني، فهو العذاب والابتعاد عن الرحمة، وتحكيه الجمل التالية: تظن أن يفعل بها فاقرة، ترهقها قفرة، تصلى ناراً حامية.

أبعد هذا البيان يبقى شك في أن المراد من: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ هو انتظار الرحمة !! والقائل بالرؤية يتمسك بهذه الآية، ويغض النظر عما حولها من الآيات، ومن المعلوم أن هذا من قبيل محاولة إثبات المدعى بالآية، لا محاولة الوقوف على مفادها. وجوه بها ليل الحجاز على الهوى إلى ملك كهف الخلائق ناظرة وآخر يقول:

وجوه ناظرات يوم بدر إلى الرحمن يأتي بالفلاح
فلا نشك أن قوله: وجوه ناظرات بمعنى رائيات، ولكن النظر إلى الرحمن هو كناية عن انتظار النصر والفتح.

إني إليك لما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغني الموسر
فلا ريب أن اللفظين في الشعر وإن كانا بمعنى الرؤية، ولكن نظر الفقير إلى الغني ليس بمعنى النظر بالعين، بل الصبر والانتظار حتى يعينه. وكذلك يمكن لنا نفي الرؤية من الاستدلال بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٥).

والمراد من قوله: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ هو طردهم عن ساحته وعدم شمول رحمته لهم وعدم تعطفه عليهم، لا عدم مشاهدته إياهم، لأن رؤيته وعدمها ليس أمراً مطلوباً لهم حتى يهددوا بعدم

نظره سبحانه إليهم، بل الذي ينفعهم هو وصول رحمته إليهم، والذي يصح تهديدهم به هو عدم شمول لطفه لهم، فيكون المراد عدم تعطفه إليهم، على أن تفسير قوله: ﴿لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ ب: «لا يراهم» يستلزم الكفر، فإنه سبحانه يرى الجميع ﴿وَهُوَ يَدْرِكُ الْبَصَارَ﴾. والحاصل: أن النظر إذا أسند إلى العيون يكون المعنى بالمراد الاستعمالي والجدي: هو الرؤية على أقسامها، وإذا أسند إلى الشخص كالفقير أو إلى الوجوه فيراد به: الرؤية استعمالاً والانتظار جداً^(٧٦).

ولو ألقينا نظرة سريعة على جملة من التفاسير السنية وما لها من أهمية وقيمة علمية في الوسط السني كتفسير أبي جعفر محمد بن جرير الطبري^(٧٧)، وتفسير الكاشف، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، والتفسير المروي عن التابعي مجاهد، وغيرهم فقد ذهبوا إلى أن «ناظرة» هو انتظار الثواب من الله ورحمته. وبهذا نستخلص من أن الآية المباركة لم تصلح دليلاً للمثبتين وهي بعيدة جداً عما ذهبوا إليه كما قدمنا بالأدلة والبراهين القاطعة بأنها بمعنى المنتظرة والمتأمللة والراجية إلى عطاء وكرم وإحسان الله سبحانه وتعالى لا بمعنى الرائية والباصرة له تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

(٧٦) رؤية الله،

السبحاني: ٨٤-٨٨.

(٧٧) تفسير الطبري،

الطبري: باب ٢٠، ج ٢٤

ص ٧٠-٧٣.

خاتمة

بعد أن مهّدنا بمقدمة تناولنا فيها سعي المسلم إلى الحصول على العقيدة السليمة والتي تمس دينه الذي يدين به لرب العالمين سبحانه وتعالى، وذكرنا خلالها العقيدة التي ذهب إليها غالبية المسلمين، وهي عقيدة سقيمة أسسها أعداء الإسلام والمسلمين، وأخذها المسلمون أخذ المسلمات.

وأخذت هذه العقيدة تصبح ميزان للإيمان والكفر، ومن أنكرها يخرج من ربة الإسلام، غير أن المثبتين لها لم يستطيعوا أن يثبتوا ما كفّروا المسلمين من أجله، ولم تثبت أدلتهم أمام البرهان والأدلة التي تنفي هذه العقيدة.

ولذلك نرى موقف كتاب الله عزّ وجلّ موقف الرفض والشجب لما ذهب إليه هؤلاء الناس، فكان حري بنا أن نأتي بجملته من الآيات التي تبين التوحيد الخالص والتي لا تعترىها صفات المخلوقين المحتاجين الناقصين، وبينا من خلالها موقف القرآن الكريم اتجاه من طلب الرؤية له سبحانه.

ثمّ جئنا بأدلة المثبتين وفصلنا القول فيها وعرضناها إلى النقاش ووضّعنا أيدينا على مواضع الوهن والضعف فيها وذكرنا ما يؤيد ما ذهبنا إليه من علماء التفسير السنيّ بشيء من الإيجاز وكذلك أشرنا إلى الآيات الأخرى على نحو الإشارة والاختصار.

وعرفنا من كل ذلك أنها فسرت بغير الظاهر منها، وبقيت للبحث تكملة تأتي لاحقاً بإذن الله تعالى.

المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم
- ٢- الألوسي البغدادي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود، تفسير الألوسي «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»، ضبط وتصحيح: علي عبد الباري عطية، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- ٣- الأندلسي، ابن حزم الظاهري، الفصل في الملل والأهواء والنحل مكتبة السلام العالمية.
- ٤- إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد القادر ومحمد علي النجار، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استنبول، تركيا.
- ٥- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، الطب النبوي، مراجعة عبد الغني عبد الخالق.
- ٦- ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير «التحرير والتنوير» مؤسسة التاريخ، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- ٧- ابن منظور، لسان العرب، نسقه وعلق عليه: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- ٨- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- ٩- البصري المعتزلي، أبو الحسن محمد بن علي بن الطيب، المعتمد في أصول الفقه، تقديم: خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- ١٠- التفازاني، مسعود بن عمر بن عبد الله، شرح المقاصد في علم الكلام، ط الأولى ١٤٠١ - ١٩٨١م، المطبعة: باكستان - دار المعارف النعمانية، الناشر: دار المعارف النعمانية.
- ١١- الثعالبي، عبد الرحمن بن مخلوف، تفسير الثعالبي «الجواهر الحسان في تفسير القرآن»، تحقيق: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- ١٢- الجوهرى، إسماعيل بن حماد الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق:

- أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٣، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- ١٣- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ضبطه وراجعته: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- ١٤- الرازي، فخر الدين، تفسير الرازي «التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب»، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- ١٥- السبحاني، جعفر، رؤية الله في ضوء الكتاب والسنة والعقل، مركز الأبحاث العقائدية.
- ١٦- الطباطبائي، محمد حسين علم الهدى، الميزان في تفسير القرآن مؤسسة الأعلمي بيروت لبنان.
- ١٧- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تفسير الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة.
- ١٨- العاملي، السيد عبد الحسين شرف الدين، كلمة حول الرؤية، مركز الأبحاث العقائدية، قم المقدسة، إيران.
- ١٩- الفيض الكاشاني، محمد بن مرتضى، الوافي، مكتبة الصدر، طهران، إيران الطبعة الثانية ١٤١٦هـ.
- ٢٠- القوشجي، الملا علي، شرح التجريد، الطبعة الحجرية.
- ٢١- الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، الطبعة: الخامسة، سنة الطبع: ١٣٦٣ ش، المطبعة: حيدري، الناشر: دار الكتب الإسلامية - طهران.
- ٢٢- النراقي، مهدي، جامع السعادات، ط دار الكتاب الإسلامي، طهران، إيران.
- ٢٣- العظيم آبادي، أبو الطيب محمد شمس الحق، عون المعبود شرح سنن أبي داود، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، الناشر المكتبة السلفية، ط ٣، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ٢٤- القرطبي الأندلسي، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، مصدر الكتاب ملتقى دار الحديث.
- ٢٧- القنوجي، صديق بن حسن، أبجد العلوم، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

الإسرائيليات في التفسير

بدايتها، أسبابها، آثارها السلبية على التفسير

د. فارس علي العامر

جامعة المصطفى العالمية

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على محمد المصطفى
وعلى آله الغرّ الميامين.

وبعد، فإنّ القرآن الكريم - وكما هو معلوم بالضرورة - معجزة
خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ودستور ديننا الإسلامي الحنيف،
الذي أمرنا بالتمسك به إلى جانب العترة؛ لنُعصم من الضلالة، كما
ورد عنه ﷺ بالحديث المتواتر، وهو قوله: «إني مخلف فيكم
الثقلين، كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا
علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»^(١).

لذا عكف المسلمون على تلاوته وحفظه ومدارسته، وكتبوا
وألقوا في علومه، ومن أشرفها علم التفسير.

ولكن تفسير كتاب الله - وهو أقدس كتاب - لم يسلم من
التشويه؛ إذ دخلته الإسرائيليات، والقصص الخرافية والأساطير
بعد صدر الإسلام الأول، وخصوصاً في عصر التابعين.

ومن ثمّ دخلت تلك الإسرائيليات إلى عشرات المؤلفات من كتب
التفسير. ومعلوم ما لتلك الإسرائيليات من آثار سلبية؛ كفهمه فهماً
خاطئاً، وبالتالي انعكس ذلك على تطبيقه بصورة خاطئة، وهو الكتاب
المعصوم ﴿الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(٢).

والبحث الذي بين يدي القارئ الكريم يسلط الضوء على
الإسرائيليات من خلال المحاور التالية: المقصود من مفهوم الإسرائيليات،
بداية دخول الإسرائيليات في التفسير، أسباب دخولها، آثارها السلبية
على التفسير، نماذج من الإسرائيليات، وجوب إبعادها عن التفسير.

(١) الأمالي، الصدوق:

ص ٦١٦.

(٢) فصلت: ٤٢.

المحور الأول: معنى الإسرائيليات

أ - معنى «الإسرائيليات» لغة:

الإسرائيليات: جمع مفردة «إسرائيلية» نسبة إلى «إسرائيل» وهو لقب أطلق على نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ﷺ، قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ﴾ (٣).

و«إسرائيل» اسم أعجمي، لذا مُنع من الصرف. قيل «في «إسرائيل»: أنه مركب من «إيل»، وهو «الله»، و«إسرا» وهو «عبد»، فيكون معناه: «عبد الله» وهذا مروي عن ابن عباس (٤). وقيل معنى «إسرا»: صفوة، أو قوة، أو مهاجر، فيكون معناه: «صفوة الله»، أو «قوة الله»، أو «المهاجر إلى الله» أو لأنه كان مجاهداً في الله مظفراً به (٥).

ب - معنى الإسرائيليات اصطلاحاً:

يدلّ لفظ «الإسرائيليات» على ما أصله يهودي أو نصراني، ولتغليب اللون اليهودي يُطلق عليه لفظ «الإسرائيليات»، بلا توسّع؛ لئلا يشمل الموضوع ما أضافه أعداء الإسلام، والقصاصون وغيرهم. أما حصر مصطلح «الإسرائيليات» بما أصله يهودي أو نصراني بلا توسّع فلا أمور التالية:

١ - أن أكثر الخرافات والأساطير، والانحرافات الفكرية والثقافية التي دخلت كتب التفاسير إنما جاءت من كتب «العهدين» المحرّفة، أو مما أصله يهودي أو نصراني.

(٣) آل عمران: ٩٣.
(٤) الإسرائيليات في التفسير والحديث، الذهبي: ص: ١٩، ٢٠. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج ١، ص: ٢٢٦. التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، معرفة: ج ٢، ص: ٧٩، ٨٠. مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي: ج ١، ص: ١٨٢.

(٥) روح المعاني، الألوسي: ج ١، ص: ٤٠. الكشف، الزمخشري: ج ١، ص: ١٥٩. الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي: ج ٣، ص: ٣٩٥. مع الأنبياء في القرآن الكريم، الشريف الرضي: ص: ١٥٤.

٢- أن هناك خصوصاً وعموماً بين لفظ الإسرائيليات و«الموضوعات»، «فالإسرائيليات» خاص، و«الموضوعات» عام، إذ كلُّ «إسرائيلية» موضوعة، وليس كلُّ «موضوعة» هي «إسرائيلية». وبعبارة أخرى: أن الإسرائيليات مفردة من مفردات الموضوعات.

٣- أن الكتاب المقدس يشمل العهدين: «العهد القديم» وهو «التوراة» الذي يتألف من «٣٩» سفرًا، و«العهد الجديد» وهو «الإنجيل» الذي يتألف من «٢٧» سفرًا، خصوصاً إذا ما علمنا بأن جميع كتاب «الكتاب المقدس» من الأمة اليهودية، ماعدا «لوقا» كاتب الإنجيل الذي سُمي باسمه فهو أُممي من مدينة انطاكية»^(٦).

٤- أن أقطاب رواة الإسرائيليات من اليهود؛ أمثال: عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، وغيرهما، ومن النصارى؛ أمثال: تميم بن أوس الداري، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج وغيرهم. ولعلَّ قائلًا يقول: إنَّ أبا هريرة، وعبد الله بن عمرو بن العاص من أقطاب رواة الإسرائيليات، وهما مسلمان فكيف ادعيتم بأنَّ جميع الإسرائيليات من اليهود والنصارى؟

نقول: صحيح أنهما كانا من أقطاب رواة الإسرائيليات، ولكنهما كانا يرويان تلك الإسرائيليات عن أهل الكتاب؛ فأقطاب أهل الكتاب هم الأساس لتلك الإسرائيليات.

(٦) التفسير والمفسرون،
الذهبي: ج ١، ص: ١١٢.
دراسة نقدية لكتاب
الإنجيل في القرآن للقس
يوسف حداد، داود،
عبد الرحيم سعد: ص:
٤٣٤ - ٤٤٦.

المحور الثاني:

بداية دخول الإسرائيليات في التفسير

لقد مرَّ تسرُّب الإسرائيليات إلى التفسير بمرحلتين: مرحلة الرواية، ومرحلة التدوين.

أما في مرحلة الرواية، فقد بدأ تسرُّب الإسرائيليات إلى التفسير والحديث في عهد الصحابة، إذ كانوا يرون ما في القرآن الكريم من قصص وأخبار موجزة مقتصرة على موضع العظة والعبرة، بينما يجدون ذلك مفصلاً في التوراة والإنجيل وبحكم جوارهم لأهل الكتاب، ودخول نفر منهم في الإسلام كانوا يراجعونهم^(٧)، حتى ورد النهي عن مراجعتهم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخَفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٨).

ومن ثمَّ أصدر النبي ﷺ أمره بالنهي الصريح عن مراجعة أهل الكتاب؛ لأنهم لا يصدقون، ولا يخلصون النصيحة^(٩).

فقد جاء عن جابر بن عبد الله الأنصاري: «أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضب، فقال: أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟! والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا، أو يبطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى عليه السلام كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني»^(١٠).

وقوله: «أمتهوكون»، أي: أترددون، أو متحIRON ومضطربون

(٧) التفسير والمفسرون،

الذهبي: ج ١، ص: ١١٤.

والإسرائيليات في

التفسير والحديث،

الذهبي: ص: ٢٦.

(٨) آل عمران: ١١٨.

«لا تتخذوا بطانة من

دونكم»: لا تتخذوا

أصحاب السر من

غيركم، «لا يألونكم

خبالاً»: لا يقصرون في

إفساد أذهانكم عن

الإسلام، «ودوا ما عنتم»:

يودون مشقتكم

الروحية والفكرية،

راجع معرفة، التفسير

والمفسرون: ج ٢،

ص: ٨١ - ٨٣.

(٩) التفسير والمفسرون

في ثوبه القشيب، معرفة:

ج ٢، ص: ٨٣.

(١٠) مسند أحمد،

أحمد بن حنبل: ج ٣،

ص: ٣٨٧.

النهاية في غريب

الحديث والأثر، ابن

الأثير: ج ٢، ص: ٩١٨.

أنتم في الإسلام^(١١)؟ ولحن الخطاب غاية في الاستنكار على عمل غير مقبول، لا يصدر عن مؤمن عاقل بصير متدبر.

وبعد اتساع رقعة الإسلام، ودخول كثير من اليهود والنصارى في الإسلام بدأت الإسرائيليات بالتسريب؛ حيث شرع كعب الأخبار، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو هريرة بنشر ما لديهم من الإسرائيليات، وأذن الخليفة عمر بن الخطاب لتميم بن أوس الداري بأن يقص قصصه قائماً في المسجد النبوي علانية^(١٢)، مع تشدد عمر على عدم القص والكتابة والقراءة من أهل الكتاب، وهكذا كان العقد الثاني بعد وفاة رسول الله ﷺ عهد رواج القصص الأسطورية والإسرائيليات، وهذا ما أشار إليه أيضاً الدكتور أبو شهبه «ت / ١٩٨٣م» بقوله: «وقد حدثت بدعة القص في آخر عهد القاروق عمر رضي الله عنه»^(١٣).

ثم جاء من بعده الخليفة عثمان فصار على نفس النهج، وجاء بعده معاوية فأجاز لكعب الأخبار بالقص على الناس؛ قال محمود أبو رية: «ت / ١٩٧٠م» «وإنما القص محدث، أحدثه معاوية حين كانت الفتنة»^(١٤). وقال أيضاً: «إنه - يعني كعب الأخبار - تحوّل إلى الشام في عهد عثمان، وعاش في كنف معاوية، فاستصفاه لنفسه، وجعله من خلصائه؛ لكي يروي من أكاذيبه وإسرائيلياته ما شاء أن يروي في قصصه؛ لتأييده، وتشيت قوائمه دولته»^(١٥).

أما موقف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من القصّاصين فقد كان موقفاً صارماً؛ حيث حاول طردهم من المساجد، وفي ذلك روي عن أبي البخري قال: «دخل علي رضي الله عنه المسجد، فإذا رجل يخوف الناس، فقال: ما هذا؟ قالوا: رجل يذكر الناس،

(١١) لسان العرب، ابن

منظور: ج ١٥، ص: ١٦٠.

(١٢) التفسير والمفسرون

في ثوبه القشيب، معرفة: ج

٢، ص: ١٢١ - ١٢٣.

(١٣) الإسرائيليات

والموضوعات في كتب

التفسير، أبو شهبه:

ص: ٨٧.

(١٤) أضواء على السنة

المحمّدية، محمود أبو

رية، ص: ١٢٤، ١٨١.

(١٥) المصدر السابق.

فقال: ليس برجل يذكر الناس، لكنه يقول: أنا فلان ابن فلان، فاعرفوني، فأرسل إليه، فقال: أتعرف الناس من المنسوخ؟ فقال: لا، قال: فاخرج من مسجدنا، ولا تذكر فيه»^(١٦).
و«المذكر» هو القاص في اصطلاحهم^(١٧)، وغير ذلك من مواقف الإمام عليه السلام من القصّاصين.

إذاً، كان عصر نشوء اليسرائليات هي فترة ما بعد وفاة رسول الله ﷺ وإلى عصر التابعين، وما بعدها، ومن ثمّ تسرّبت إلى التفسير والحديث، فضلاً عن التاريخ.

ومصدر تلك اليسرائليات هم أهل التوراة والإنجيل. وأما في مرحلة التدوين، فقد كانوا يدوّنون في أول الأمر التفسير والحديث مقروناً بالأسانيد، فدوّنوا كثيراً من اليسرائليات، وكان منهم محمّد بن جرير الطبري «ت/٣١٠هـ» في كتابه «جامع البيان في تأويل القرآن»، والذي يهوّن الأمر أنّها مستندة، حيث يمكن تمييز اليسرائليات من غيرها.

إلا أن الطبقة التي جاءت بعدهم ممن دوّنوا التفسير والحديث قد حذفوا الأسانيد، ولم يتحرّروا الدقة فيما يكتبون، فجمعوا الصحيح وغيره، وبذلك دخلت كثير من الروايات الإسرائيلية أيضاً لو كن لم يتم تمييزها لخلافهم أسانيدها.

وكلما تقدّم الزمان وجدنا الكثير ممن أغرم بالقصص «الإسرائيلي» لا يترك شاردة ولا واردة إلا ويذكرها، ومنهم أبو إسحاق أحمد بن محمّد الثعلبي «ت/٤٢٧هـ»^(١٨) في تفسيره «الكشف والبيان»، وكتابه «العرائس» في قصص الأنبياء عليهم السلام^(١٩).

(١٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج ٢، ص ٦٢.

(١٧) القرطبي، مصدر سابق، ج ٢، ص: ٤٣.

(١٨) اليسرائليات في التفسير والحديث، الذهبي: ص: ٣٠-٣٢.

(١٩) التفسير والمفسرون، الذهبي: ص ١٥٠.

المحور الثالث:

أسباب دخول الإسرائيليات في التفسير

لدخول الإسرائيليات في التفسير عدة أسباب نوجزها بالأمر التالية:
١ - اللقاءات مع أهل الكتاب:

لقد تسربت الثقافة الإسرائيلية إلى العرب قبل الإسلام، وذلك للقاءات الحاصلة بين العرب وأهل الكتاب بحكم المجاورة والمخالطة، والرحلات، وخاصة رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، حتى تهوّد قوم من العرب وتنصّر آخرون. وعبر تلك اللقاءات نقل أهل الكتاب من ثقافتهم المستمدّة من كتبهم وما توارثوه جيلاً بعد جيل إلى العرب، إلا أن استمداد العرب من تلك المعلومات كانت ضعيفة محدودة؛ لثقافتهم الضعيفة والمحدودة.

واستمرت تلك اللقاءات حتى بعد مجيء الإسلام، ومن الطبيعي أن تدور بينهم نقاشات ومحاورات عقائدية وتاريخية، ونتيجة لذلك تأثر كل طرف بالآخر، فمن اليهود من أسلم وحمل معه موروثاته من الأساطير الإسرائيلية، ومن المسلمين من تأثر بذلك وإن كان بصورة غير مباشرة بالإسرائيليات وانطباعها في ذهنه، كقصص الأنبياء، وبدء الخليقة، ولكن النهي الصادر عن النبي ﷺ عن مراجعة أهل الكتاب كان حاجزاً قوياً عن تسريب الإسرائيليات إلا أن دخولها بدأ في عهد الصحابة، بل كان الرجوع إلى أهل الكتاب لدى بعض الصحابة مصدراً من مصادر التفسير، فأخذوا منهم الأخبار والقصص الإسرائيلية^(٢٠).

(٢٠) الإسرائيليات
والموضوعات، أبو
شبهة: ص ٨٧ - ٩١.

٢- الميل إلى معرفة ما أجمله القرآن:

أنَّ الإيجاز والإجمال في القرآن، والتفصيل والبسط في التوراة والإنجيل دفع بعض الصحابة إلى الرجوع إلى أهل الكتاب لمعرفة تفاصيل جزئيات الوقائع والأحداث التاريخية، وبدء الخليفة، وخاصة القصص، فدخلت من خلال ذلك الأباطيل الإسرائيلية^(٢١).

٣- دخول بعض العلماء وأخبار اليهود والنصارى في الإسلام: لما دخل أمثال كعب الأحرار، وعبد الله بن سلام، ووهب بن منبه، وتميم الداري في الإسلام حملوا معهم الكثير من الروايات المكذوبة والخرافات الباطلة من التوراة والإنجيل وشروحهما، وكتبهم القديمة التي تلقوها عن أحبارهم ورهبانهم وأغلبها مما يتعلق بالقصص وأخبار الأمم الماضية وبدء الخليفة، وأسرار الكون، وأحوال القيامة وغيرها.

٤ - تشجيع القصاصين وفسح المجال لهم:

ظهرت فئة تقصُّ على الناس بالمساجد القصص، وتذكِّرهم بمواعظها، وترغبهم وترهبهم، وهؤلاء لم يكونوا من أهل العلم والدراية إنما غرضهم استمالة العوام، فجعلوا يختلقون القصص والأساطير الخرافية وفيها الكثير من الأباطيل واليسرائيليات، تلقفها العوام منهم لطبيعة ميلهم إلى العجائب والغرائب، وأمَّا مآربهم من ذلك فتختلف باختلاف نياتهم واتجاهاتهم؛ فمنهم من كان يبتغي بذلك الشهرة والجاه بين الناس، ومنهم من يقصد الحصول على المال، ومنهم من يقصد إفساد عقائد الناس وتشويه

(٢١) التفسير
والمفسرون، معرفة:
ج ٢، ص: ٨١ - ٨٤.

جمال القرآن بأن فيه تفاسير باطلة وخرافات تنافي العقل، ومنهم من اتخذها أداة سياسية كما في عهد معاوية ومن جاء بعده.

٥ - منع تدوين الحديث:

لمنع تدوين الحديث - الذي بدأ بعد وفاة رسول الله ﷺ في عهد الخليفين أبي بكر وعمر - أثر خطير في ترويج وانتشار الإسرائيليات؛ لأنَّ المنع غيَّب السنَّة الشريفة، وهي المفسر للقرآن، فأدى ذلك إلى ضياع الكثير من روايات التفسير للكتاب العزيز، وأصبحت في طي النسيان، وحرم بذلك المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، فترك بذلك فراغاً ميدانياً فاحتلته مجموعة من أخبار وقصاصي أهل الكتاب يروجون أساطيرهم وأكاذيبهم، وفي عصر المنع برز كعب الأخبار على منبر الخطابة يقصّ ويروج الأكاذيب والأساطير الإسرائيلية^(٢٢).

٦ - حذف الأسانيد:

عندما دوّن التفسير منفصلاً عن الحديث - حيث بدأ التدوين في نهاية القرن الأول^(٢٣) - كان مسنداً ولكنه مملوء بالإسرائيليات المنكرة الغريبة، ولكن الطامة الكبرى أن جاء بعد ذلك من حذف الأسانيد، فجمعوا في مصنفاتهم الصحيح والسقيم، وفيها ما فيها من الإسرائيليات، وكلّما تقدّم الزمان كلما ازداد تساهل من تصدّوا للكتابة في التفسير، حتى لم يتركوا شاردة ولا واردة من الأساطير إلا وذكروها حتى ملئت بالإسرائيليات^(٢٤).

٧ - الابتعاد عن أئمة أهل البيت عليه السلام:

أن ابتعاد بعض الصحابة وغيرهم عن الأئمة المعصومين عليهم السلام - وهم

(٢٢) تدوين السنة

الشريفة، الجلالى:

ص: ٢٦٣، ٤٧٢، ٤٧٣.

علوم الحديث

ومصطلحه، صبحي:

ص: ٣٠ - ٣٦.

(٢٣) الذهبى،

الإسرائيليات، ص: ٢٨.

(٢٤) التفسير

والمفسرون، الذهبى:

ص: ١٣٥، ١٣٦.

أبواب الله التي منها يُوتى، وهم عدل القرآن وحملته، وحرّاسه، وتراجمته - أدّى إلى إنسداد باب العلم عليهم، فأصبحوا يشعرون بالفراغ الفكري والعقائدي، فلبّجوا إلى فتح باب آخر منهى عنه، وهو الرجوع إلى أهل الكتاب الذين تزوّدوا منهم بالخرافات والأساطير، والقصاص الإسرائيلي، البعيد عن نور القرآن وجماله^(٢٥).

المحور الرابع:

آثار اليسرائليات على التفسير

أنّ اليسرائليات التي اعتمدها بعض المفسرين في تفسير كتاب الله المعصوم أثراً سيئاً على التفسير؛ حيث خلطت الأكاذيب الإسرائيلية بالتفسير والحديث الوارد عن النبي ﷺ، وعن خيار صحابته، فشوّهت وجه التفسير فضلاً عن التاريخ والحديث، ومن تلك اليسرائليات طامات وظلمات، أصبحت ماثراً للشك والطعن، والتقول على الإسلام ومقدساته. والآثار السلبية كثيرة نوجزها بالنقاط التالية:

- ١ - أنّها تشوّه صورة الإسلام، وتعطي الانطباع على أن الدين ليس إلا مجموعة خرافات وأساطير، كما يروى في صفة آدم عليه السلام من أن رأسه يبلغ السحاب فأصابه صلع.
- ٢ - أنّها تفسد عقائد المسلمين، وتخلط الأكاذيب والأباطيل مع العقائد الإسلامية؛ كما ينطوي بعضها على تشبيه وتجسيم الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

(٢٥) التفسير
والمفسرون، معرفة: ج ٢،
ص: ٨٥، ٨٦.

٣ - أوجدت الإسرائيليات المبنوثة في كتب التفسير منفذاً للمستشرقين وأعداء الدين للطعن في الإسلام ورسوله الخاتم ﷺ.
٤ - اغترَّت بتلك الروايات «الإسرائيلية» مَنْ لا معرفة لهم بعلم الحديث ورجاله فأوردوها في كتاباتهم ومناظراتهم، وأذاعوها بين الناس، فتقبلوها على أنها روايات صحيحة صادرة عن النبي ﷺ، ولا غبار عليها، وهذه طامة كبرى.

٥ - صارت تلك الإسرائيليات أشواكاً وعقبات في طريق المشتغلين بالتفسير، فاستنزفت طاقاتهم بوقوفهم متبهمين ومحدّرين من خطرهما، واضعين قواعد رجالية كضوابط لمعرفة المقبول من المرفوض بدلاً من الانشغال بالقرآن والإبداع بما في آياته الشريفة.
٦ - شغلت أذهان المسلمين، بحيث صارت الإسرائيليات جلّ أسئلتهم، حتى غطّت على ما في القرآن الكريم من مبادئ وأحكام، ووصايا هي جوهر القرآن.

٧ - أوجدت الاختلاف بين المسلمين؛ حيث احتوت على عقائد فاسدة، مما أدى إلى موجة من الجدل العنيف بين المسلمين.

٨ - عزل وإبعاد أئمة أهل البيت المعصومين ﷺ عن الناس؛ حيث أن بعض الصحابة والتابعين التفؤوا حول القصاصين، ومروّجي الإسرائيليات واعتقدوا بهم وبتخرّصاتهم، وتركوا المعين الصافي لأقوال وتفسير أهل البيت، معدن العلم، ومهبط الوحي والتنزيل ﷺ، وهذا ما ركزت عليه السلطة الأموية كما هو معلوم^(٢٦).

(٢٦) لقد استفدنا في استنتاج هذه النقاط من المصادر الآتية: الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير، نعناعة: ص ٤٢٨، ٤٢٩. أثر التطور الفكري في التفسير، في العصر العباسي، مساعد مسلم: ص ١٢٤، و ١٢٥، وغيرهما من المصادر.

المحور الخامس: نماذج من الإسرائيليات

وكنماذج على ما ورد في كتب التفسير من إسرائيلييات نقوم
بنقل شاهدين على ذلك:

أ- قال تعالى ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا
رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ *
فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٢٧).

روى ابن جرير الطبري «ت / ٣١٠هـ» بسنده، عن وهب بن منبه
قال: «لما أسكن الله آدم وزوجته الجنة، ونهاه عن الشجرة، وكانت
الشجرة غصونها متشعب بعضها في بعض، وكان لها ثمر تأكله
الملائكة لخلدهم، وهي الثمرة التي نهى الله آدم عنها وزوجته، فلما
أراد إبليس أن يستزلهما دخل في جوف الحية - وكانت للحية أربع
قوائم كأنها بختية من أحسن دابة خلقها الله - فلما دخلت الحية الجنة
خرج من جوفها إبليس، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم
وزوجته، فجاء بها إلى حواء، فقال: انظري إلى هذه الشجرة، ما أطيب
ريحها، وأطيب طعمها، وأحسن لونها، فأخذت حواء فأكلت منها، ثم
ذهبت بها إلى آدم، فقالت: انظر إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها،
وأطيب طعمها، وأحسن لونها، فأكل منها آدم، فبدت لهما سوأتها.
فدخل آدم في جوف الشجرة، فناداه ربُّه: يا آدم، أين أنت؟
قال: أنا هنا يا رب، قال: ألا تخرج؟ قال: استحيي منك يا رب،
قال: ملعونة الأرض التي خلقت منها لعنة يتحول ثمرها شوكة،

(٢٧) البقرة: ٣٥ - ٣٦.

قال: ولم يكن في الجنة ولا في الأرض شجرة كان أفضل من الطلح، والسدر، ثم قال: يا حواء، أنتِ غررتِ عبيدي، فإنك لا تحملين حملاً إلا حملته كرهاً، فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفت على الموت مراراً، وقال للحية: أنت التي دخل الملعون في جوفك حتى غرَّ عبيدي، ملعونة أنت لعنة تتحول قوائمك في بطنك، ولا يكون لك رزق إلا التراب، أنتِ عدوة بني آدم، وهم أعداؤك، حيث لقيت أحداً منهم أخذت بعقبه، وحيث لقيك شذخ رأسك. قال عمر: قيل لو هب: وما كانت الملائكة تأكل؟ قال: يفعل الله ما يشاء»^(٢٨).

وذكر السيوطي «ت / ٩١١هـ» في «الدُر المنثور» هذا المعنى^(٢٩).

ويرد على ذلك باختصار:

أولاً - لم يُشر الطبري إلى كذب وبطلان ما سرده في تفسيره.

ثانياً - يُلاحظ على الخبر:

أ - أن السند يرجع إلى وهب بن منبه، وهو أحد أقطاب الإسرائيليات.

ب - أن متن الخبر غير تام؛ وذلك:

١ - أن الملائكة لا تأكل ولا تشرب؛ لأنها أرواح، لذا لما سئل وهب - راوي الخبر - قال: يفعل الله ما يشاء؛ تهرباً من الإشكال، وعجزاً عن تصحيح الكذب.

٢ - أن وسوسة إبليس لا تتوقف على دخوله بطن الحية؛ لأن الوسوسة لا تحتاج إلى القرب والمشاهدة.

٣ - أن الحية هكذا خلقت، ولم يكن لها قوائم كالبُخْتِي.

(٢٨) جامع البيان في

تأويل القرآن، الطبري:

ج ١، ص ٥٢٦.

(٢٩) الدُر المنثور في

التفسير بالمأثور،

السيوطي: ج ١،

ص ١٢٩ - ١٣١.

- ٤ - كيف دخل آدم جوف الشجرة؟
- ٥ - هل الرب سبحانه لا يعلم بمكان آدم حتى يسأله أين أنت؟
- ٦ - لماذا تُلعن الأرض والحية، وقد خلقهما الله تعالى على هذه الحال؟ وبأي ذنب استحقا تلك اللعنات؟
- ٧ - معاقبة المرأة بالعادة الشهرية، وبشدة الحمل، وصعوبة الولادة غير معقول؛ لأنها أمور طبيعية تقتضيها طبيعة خلقه المرأة.
- ٨ - يُشعر الخبر بأن المرأة هي سبب المعصية بينما القرآن ذكر آدم وحواء معاً ﴿فَازْلَمَ الشَّيْطَانُ عُنَهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾^(٣٠).
- ٩ - هذا الخبر موجود في التوراة مع اختلاف في الألفاظ فقط^(٣١).
- ب - جاء في تفسير الكشف والبيان عند قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(٣٢): «وذلك أن آدم كان في الجنة وَحِشاً، ولم يكن له مَنْ يجالسه ويؤانسه، فنام نومة، فخلق الله زوجته من قَصِيرَاهُ^(٣٣)، من شَقِّهِ الأيسر من غير أن يحسَّ آدم بذلك، ولا يوجد له أُلْمٌ، ولو أُلِمَ من ذلك لما عطف رجل على امرأة، فلما هبَّ آدم من نومه إذا هو بَحَوَّاءَ جالسة عند رأسه، كأحسن ما خلق الله تعالى، فقال لها: مَنْ أنت؟ قالت: أنا زوجتك، خلقتني الله لك؛ لتسكن إليَّ، وأسكن إليك، فقالت الملائكة عند ذلك امتحاناً لعلم آدم: يا آدم، ما هذه؟ قال: امرأة، قالوا: ما اسمها؟ قال: حواء قالوا: لِمَ سُمِّيت حواء؟ قال: لأنها خُلقت من حيٍّ، قالوا: تحبها يا آدم؟ قال: نعم، فقالوا لحواء: أتحبينه؟ قالت: لا، وفي قلبها أضعاف ما في قلبه من حبه، قالوا: فلو صدقت امرأة في حبها لزوجها لصدقت حواء»^(٣٤).

(٣٠) البقرة: ٣٦.

(٣١) الكتاب المقدس،

العهد القديم، سفر

التكوين، ص: ٧٤.

(٣٢) البقرة: ٣٥.

(٣٣) قَصِيرَاهُ: أحد

أضلاع، كما في لسان

العرب، مادة «قَصُر».

(٣٤) الكشف والبيان

عن تفسير القرآن،

التعلي: ج ١، ص ١٨١، ١٨٢.

ويرد على ذلك باختصار:

١ - لماذا أخذ الله تعالى أحد أضلاع آدم ﷺ بتلك الطريقة؟ أو ليس الله تعالى بقادر على أن يخلق حواء من تراب كما خلق آدم ﷺ؟
٢ - كذب حواء على الملائكة بعدم حبها لآدم، وفي قلبها أضعاف ما في قلبه من حبه.

٣ - يظهر من ذلك أن المرأة لا تصدق في حبها أبداً، وهذا خلاف الواقع أولاً، وفيه حط من كرامة المرأة ثانياً.

٤ - رد الإمام الصادق ﷺ على قولهم: «خلق الله تعالى حواء من ضلع آدم الأيسر» قال ﷺ: «سبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، أيقولون؟ مَنْ يقول هذا؟ إن الله تبارك وتعالى لم يكن له من القدرة ما يخلق لآدم زوجته من غير ضلعه»^(٣٥).

٥ - أثبت العلم تساوي عدد أضلاع الرجل والمرأة خلاف ما ذهبوا إليه من أن أضلاع الرجل أنقص من أضلاع المرأة بواحد، ليثبتوا تلك النظرية.

٦ - المهم أنها إسرائيلية أخذت من التوراة المحرفة؛ حيث جاء هناك: «فأوقع الربُّ الإله سباتاً عميقاً على الإنسان، فنام، فأخذ إحدى أضلاعه، وسدَّ مكانها بلحم، وبنى الربُّ الإله الضلع التي أخذها من الإنسان امرأة، فأتى بها الإنسان، فقال الإنسان: هذه المرأة هي عظم من عظامي، ولحم من لحمي، هذه تسمَّى امرأة؛ لأنَّها من امرئ أخذت، ولذلك يترك الرجل أباه وأمه، ويلزم امرأته، فيصيران جسداً واحداً»^(٣٦).

وغيرها من الإسرائيليات الكثيرة الموجودة في التفاسير.

(٣٥) علل الشرائع،
الصدوق: ج ١، ص ١٧.
(٣٦) الكتاب المقدس،
العهد القديم، سفر
التكوين: ص ٧٢.

المبحث السادس:

وجوب إبعاد التفسير عن الإسرائيليات

بعد أن اتضح لنا طائفة من الآثار السلبية للإسرائيليات في تفسير كتاب الله المجيد نقول:

يجب إبعاد التفسير عن الإسرائيليات وهو رأي جميع العلماء الواعين، وكل غيور على القرآن، وذلك لخطورة تلك الأباطيل والأساطير الفظيعة التي تنافي العقل والفطرة والمروءة، وتتجاوز على الذات الإلهية المقدسة؛ حيث تصف الخالق عز وجل بأوصاف المخلوق الضعيف المحتاج، كما تتجاوز على قدسية الأنبياء عليهم السلام وطهارتهم وتخدش في عصمتهم، وتصفهم بأوصاف لا تليق بساحتهم، إضافة إلى العجائب والغرائب الخرافية الكثيرة، ويكفي لإيضاح ذلك نظرة سريعة على قصص الأنبياء في كتب التفسير بالمأثور، كجامع البيان لابن جرير الطبري «ت / ٣١٠هـ»، والدر المنثور، للسيوطي «ت / ٩١١هـ»، وغيرهما.

وفي ذلك يقول أبو شعبة «ت / ١٩٨٣هـ»: «وفي كتب التفسير من هذه الإسرائيليات طامات وظلمات، والكثير منها لم ينبه ناقلوه على أصله، ولم يوقف على قائله، فكانت مثاراً للشك والطعن، والتقول على الإسلام ونبيه»^(٣٧).

ثم يذكر بأن هذه الإسرائيليات لو وقفت عند قائلها لكان الأمر محتملاً لبعض الشيء، ولكن الشناعة وكبر الإثم أن بعض الزنادقة والوضاعين وضعفاء الإيمان رفعوا تلك الإسرائيليات إلى المعصوم، ونسبوا إليه صراحة فيكمن بذلك الضرر الفاحش والجنابة الكبرى

(٣٧) الإسرائيليات
والموضوعات في
كتب التفسير، أبو
شعبة: ص ٩١.

على الإسلام، والتجني الآثم على النبي ﷺ؛ لأن نسبة الخطأ أو الكذب إلى الراوي - أياً كان - أهون بكثير من نسبتها إلى النبي ﷺ.

هذا إضافة إلى ما اشتملت عليه تلك الإسرائيلية من الخرافات والأباطيل التي اعتبرت مادة مهمة للقساوسة والمستشرقين ليوجهوا من خلالها طعونهم للإسلام ونبيه؛ ولكي ينظر إلى الإسلام نظر الشك والارتياب، فيصدّ عن الدخول فيه»^(٣٨).

ومن الجدير بالذكر أن تلك الأباطيل والخرافات مهما بلغ إسنادها من السلامة من الطعن إلا أن النبي ﷺ برئ منها؛ لأنه ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٣٩).

وقال العك: «ت / ١٩٩٩م» «لابدّ من موقف حازم لتمييز الصحيح من السقيم، والأفضل أن يُعرض عن تلك الأخبار»^(٤٠).

وقد بيّن الذهبي «ت / ١٩٧٧م» موقفه بشكل واضح من خلال نصيحته للمفسر بقوله: «على أن من الخير للمفسر أن يعرض كل الإعراض عن هذه الإسرائيلية، وأن يمسك عما لا طائل تحته مما يُعدّ صارفاً عن القرآن، وشاغلاً عن التدبّر في حكمه وأحكامه، وبديهي أن هذا أحكم وأسلم»^(٤١).

وللشيخ معرفة «ت / ٢٠٠٦م» موقف صارم من الإسرائيلية وواضح من خلال قوله: «ويل لتلك الفئة من المنتحلين الإسلام، يتركون القرآن العربي الفصيح ويستمعون إلى سفاسف عبرية، يفسرها ذوو الأحقاد من أهل الكتاب»^(٤٢).

(٣٨) التفسير والمفسرون
في ثوبه القشيب،
مصدر سابق.

(٣٩) النجم: ٣-٤.

(٤٠) أصول التفسير
وقواعده، العك: ص ٢٦٢.

(٤١) التفسير والمفسرون
ص: ١٢٣.

(٤٢) المصدر السابق.

الخاتمة

وفي الختام أود الإشارة إلى ثلاث مسائل:

الأولى: من الضروري أن يجتنب المثقفون المسلمون وخصوصاً المحاضرين والكتاب الاستشهاد بالروايات الإسرائيلية في محاضراتهم وكتاباتهم وأن يتحرّوا الصحة سنداً ومتناً عند نقلهم أي رواية من الروايات؛ لئلا يغترّ بالإسرائيليات مَنْ لا علم له بذلك ولا قدرة له على التمييز بين الروايات الصحيحة من غيرها، وأغلب الناس - كما هو معلوم - لا خبرة لهم بعلم الدراية والرجال.

الثانية: ينبغي الحذر من الإسرائيليات الموجودة في بعض التفاسير وخاصة التفاسير الروائية «التفسير بالمأثور».

الثالثة: المصدر الرئيس للتفسير بالمأثور روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام الصحيحة السند؛ لأنهم أحد الثقلين اللذين أوصى النبي صلى الله عليه وآله بالتمسك بهم إلى جانب القرآن الكريم؛ إذ أن تفسيرهم يشفي الغليل لأنهم أعلم وأعرف بالقرآن وتفسيره من غيرهم، وإلى هذا المعنى يشير الإمام زين العابدين عليه السلام بقوله: «اللهم إنك أنزلته على نبيك صلى الله عليه وآله مجملاً، وألهمته علم عجائبه مكملًا، وورثتنا علمه مفسراً، وفضلتنا على مَنْ جهل علمه، وقويتنا عليه لترفعنا فوق مَنْ لم يطق حمله، اللهم فكما جعلت قلوبنا له حمله، وعرفتنا برحمتك شرفه وفضله، فصلّ على محمد الخطيب به، وعلى آله الخزان له...» (٤٣).

والحمد لله أولاً وآخراً

(٤٣) الصحيفة السجادية
في معانيها الجليلة، دعاؤه
عند ختمه القرآن، نبيل
شعبان: ص: ٢٩٨، ٢٩٩.

المصادر والمراجع

- (١) الصدوق، محمد بن علي، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم، الطبعة: الأولى ١٤١٧ هـ. ق.
- (٢) الذهبي، محمد حسين، الأسرائيليات في التفسير والحديث، دار الإيمان، سوريا، ط ٢، ١٤٠٥ هـ.
- (٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣ هـ.
- (٤) معرفة، محمد هادي، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب. الآستانة الرضوية، ط ٢، ١٤٢٥ هـ.
- (٥) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، الأعلمي، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩ م.
- (٦) الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢١ هـ.
- (٧) الزمخشري، الكشاف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٤٢١ هـ.
- (٨) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، الأعلمي، بيروت، ط ١، ١٤١٧ هـ.
- (٩) الشريف الرضي، مع الأنبياء في القرآن الكريم، ط ١، ١٤١٣ هـ، وغيرها.
- (١٠) وداد، عبد الرحيم سعد، دراسة نقدية لكتاب الإنجيل في القرآن للقسّ يوسف حداد. المعاونة الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام)، ط ١، ١٤٢٨ هـ، وأممي: تطلق في الكتاب المقدس على الشعوب غير العبرانيين، كما جاء في قاموس الكتاب المقدس، ط ١٠، دار الثقافة، القاهرة - مصر، ١٩٩٥ م.

- (١١) ابن حنبل، مسند أحمد، دار صادر بيروت، بدون تاريخ .
- (١٢) ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: خليل مأمون شيخان، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- (١٣) ابن منظور، لسان العرب، حرف الهاء، والمعجم الوسيط، حرف الهاء.
- (١٤) أبو شهبة، محمد بن محمد، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة، القاهرة - مصر، ط ٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.
- (١٥) أبو ريّة، محمود، أضواء على السنة المحمدية، أو دفاع عن الحديث، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، قم - إيران، ط ٢، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- (١٦) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، تحقيق: عبد الأمير المهنا، مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- (١٧) الجلال، محمد رضا، تدوين السنة الشريفة، المطبعة: مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، ط ٢، ١٤١٨ - ١٣٧٦ ش.
- (١٨) الصالح، صبحي، علوم الحديث ومصطلحه، ط ٤. دار العلم للملايين ١٣٨٥هـ ١٩٦٦م .
- (١٨) د. مساعد مسلم آل جعفر، أثر التطور الفكري في التفسير، في العصر العباسي، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م، ص ٣٨٨.
- (١٩) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ٢٠٠٠م.
- (٢٠) السيوطي، عبد الرحمن، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.
- (٢١) السيوطي، الدر المنثور، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.

- (٢٢) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- (٢٣) الثعلبي، أحمد بن محمد، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
- (٢٤) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر التكوين، دار المشرق، ش. م. م، بيروت، ط٢، ١٩٩١.
- (٢٥) العك، خالد بن عبد الرحمن، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس، بيروت - لبنان، ط٣، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- (٢٦) نبيل شعبان، الصحيفة السجادية في معانيها الجليلة.



الرد على المستشرق (غيرد بُوين)

مكتشف مخطوطات صنعاء

الشيخ أركان الخزعلي
ماجستير تفسير وعلوم القرآن



المقدمة

بعد انتشار الإسلام في بلدان عديدة، خصوصاً بعد ما أثبت العلم التجريبي الحديث أنّ القرآن الكريم قبل ألف وأربعمائة سنة قد أخبر عن حوادث كونية وحقائق قرآنية من قبل نبي أمي - كما يقولون - في عصورٍ تسود فيها الجاهلية، وبطبيعة الحال أنّ هذا الانتشار يفرز في كل عصرٍ وجيل أعداء مدعومين من جهات أممية ودولية للطعن في هذا الدّين الحنيف وكتابه الشريف، ومن هنا كرّسوا جهودهم لتوفير كل السبل المادية والمعنوية للتفكير بزعة عقائد المسلمين.

وبالحقيقة: أنّ المسلمين ليس هم المعنيين أولاً وبالذات، وإنما الغرض هو الوقوف أمام إسلام باحثهم وعلمائهم الذين يشكلون قوام دولهم. فاستخدموا كل الطرق والوسائل ومن بينها الأسلوب التاريخي، أو ما يسمى بـ «النقد النصي»، ومن بين هؤلاء هو المستشرق الألماني «غيرد بوين» مكتشف مخطوطات صنعاء القرآنية عام «١٩٨٥»م، والذي أثار في مقالته المنشورة في موقعه الرسمي في الشبكة العنكبوتية وفي لقاءات تلفزيونية أيضاً تحريف القرآن والتشكيك في مصداقيته.

وعند متابعتنا للموضوع ومشاهدة اللقاءات معه، وقراءة ما كتب في هذا المجال، لم نجد رداً مناسباً وحازماً لشبهات هذا المستشرق حول تحريف القرآن الكريم.

والواجب يملئ علينا دفاعاً عن الإسلام وكتابه المبارك الردّ على هذه الشبهات، وبيان الموقف من تلك المخطوطات، وكيفية التعامل معها سواء المكتشفة سابقاً أو التي قد تُكتشف لاحقاً، خصوصاً أنّ الماكينة الإعلامية أخذت تُزمر وتطبل لمثل هذه الاكتشافات الحديثة.

لذا صار لزاماً علينا التصدي والرد على المستشرقين، وأن نثبت لهم أنّ القرآن معجزة العصر وهو عصيّ عن أن تناله يد المحرفين. فقدّمنا هذه الدراسة النقدية، وعلى الله التوفيق.

من هو غيرد بُوين

«غيرد روديجر بُوين» مواليد ١٩٤٠م مستشرق ألماني خبير في قواعد الكتابة القرآنية التاريخية، وباحث في دراسة وتفسير المخطوطات القديمة، وهو أيضاً متخصص باللغة العربية - الكتابات القديمة.

كان محاضراً في اللغة العربية في جامعة سارلاند في ساربروكن الألمانية ورئيساً لمشروع ترميم موكل من قبل الحكومة اليمنية، وقد قضى وقتاً طويلاً في فحص المخطوطات القرآنية القديمة المكتشفة في صنعاء من عام ١٩٨١ - ١٩٨٥م.

أنهى عمله وأنتج فحصه عن تسلسل غير شرعي للآيات القرآنية مع اختلافات في النص، ووجود خط نادر من الإملاء يفترق عن النسخ الشرعية اللاحقة.

واكتشافه هذا ينفي أن القرآن الذي بأيدينا هو كلام الله تعالى. وأن النسخ المكتشفة كتبت الآيات فيها بخط عربي حجازي مبكر. وهناك صور للخط القرآني كتبت فوق خطوط ممحاة أقدم. وما أكدته المخطوطات اليمنية هو وجود نص متطور «للقرآن» بدلاً من نص ثابت، وذلك منذ وفاة النبي محمد ﷺ^(١). لقد نُظِّفَتْ وعوملت وصُنِّفَتْ أكثر من «١٥٠٠٠» رقاً من المخطوطات اليمنية، كما أن «٣٥٠٠» صورة مكروفلمية قد استنسخت من المخطوطة.

فدوّن «غيرد بُوين» الملاحظات عن اكتشافاته في مقاله المُعَنون: «نتائج فحص لمخطوطات قرآنية مبكرة في صنعاء»^(٢).

(١) www.hor3en.com/vb/showthread.php?t=١٢٦١٠٧
منتدى الحوار العبد.
(٢) المصدر السابق -
<https://www.youtube.com/watch?v=NczK6ISbZbE>
فضائية الحياة حلقة ٤١٧

وملخص ما قاله المستشرق الألماني غيرد بوين: «إن القرآن هو نوع من الكوكيتيل المصنوع من خلط النصوص والتي لم تكن كلها مفهومة حتى في زمن محمد. يدّعي القرآن لنفسه أنه مُبين، أي: واضح، ولكنك إن نظرت إليه ستجد أن بعد كل عبارة رابعة تقريباً، عبارة خامسة لا معنى لها.

وبالتأكيد إن العديد من المسلمين قد يخبروك بالعكس، ولكن الحقيقة هي أن خمس القرآن هو في الواقع غير مفهوم، فإذا كان لا يُفهم بالعربية، فهو إذن غير قابل للترجمة. وهذا ما يجعل المسلمين خائفين، وأن القرآن يدّعي تكراراً أنه مُبين ولكنه ليس كذلك»^(٣).

نبذة مختصرة عن المخطوطات

تعريفها وأهميتها

المخطوطات: هي مؤلفات العلماء ومصنفاتهم القديمة، وهي لفظة جاءت بعد حدوث الطباعة، لهذا لا تجد ذكراً لهذه الكلمة «المخطوط»، أو «المخطوطات» في كلام المتقدمين، وإنما حدثت هذه اللفظة بعد دخول الطباعة، فأصبحت الكتب قسمين: مخطوطات، ومطبوعات.

فما كان منها مكتوباً بخط اليد سُمي مخطوطاً، وما طُبِع منها سُمي مطبوعاً، تمييزاً له عن الأول.

وأما أهمية تلك المخطوطات، وهل نحن في حاجة إليها اليوم؟ نقول: إن أهمية المخطوطات كبيرة جداً، فعلم الأمة مدون

http://ibrahim-al-copti.blogspot.com/2009/07/ot.co.uk/html/10_blog-post
موقع مسيحيو الشرق الأوسط.

فيها من الفقه والتاريخ واللغة وغير ذلك، ومدون فيها أحاديث النبي ﷺ وشروحها، وعلم الأئمة عليهم السلام وأحاديثهم.

ولا شك أننا ما زلنا حتى اليوم في حاجة ماسة إليها، بل إنه كلما تقدمت بنا الأيام ازدادت حاجتنا إليها أكثر.

ولكن بعضها طبع وفيه تحريف وأخطاء، إما عن نسخة خطية سيئة، أو كان سبب ذلك خطأ المحقق واشتباهه وضعفه العلمي. وبعضها طبع طبعة جيدة متقنة مصححة.

وكل ذلك لا يغني عن المخطوطات، فالمخطوط يبقى شاهد عدل وصدق على سلامة المطبوع وصحته، وعدم تحريفه، أو تزويره، أو الزيادة فيه، أو النقص منه^(٤).

أما بخصوص المخطوطات القرآنية وما نحن بصددده، فلا بد أن يكون القارئ العزيز مطلعاً عليها ولو بشكل عام. فهناك مخطوطات قد لا تشكل قيمة أمام المخطوطات التي نشرت في المتاحف والمؤسسات التراثية، لقدمها وسلامتها ووضوحها، وقد استخدم فيها تقنية الكربون المشع لتحديد أعمار تلك المخطوطات. وأما عن تقنية «الكربون المشع» فقد اكتشفها العالم الكيميائي «ويلارد لبي» في منتصف القرن الماضي، ونال عليها جائزة «نوبل»، وقد مرّت بمراحل كثيرة، ولكنها الآن أصبحت معتمدة لدى علماء الآثار في تحديد عمر المواد المصنوعة من الكائنات الحية، من جلود ونباتات وغيرها، بعد أن أصبحت نسبة دقتها تفوق ٩٥٪. ذلك أن النبات، أو الحيوان ما دام على قيد الحياة، فإنه يتبادل الكربون مع محيطه، بحيث أن نسبة الكربون «- ١٤» التي

(٤) <http://www.alukah.net/22790/0/library>
شبكة الألوكة.

يحتويها ستكون لها نفس نسبة الكربون «- ١٤» في محيطه الحيوي، وبمجرد أن يموت فإنه يتوقف عن اكتساب الكربون «- ١٤» وعندها يبدأ في الاضمحلال بمعدل ثابت مع الزمن، ولا يتم تعويضه كما هو الحال للكائن الحي، وبقدر نسبة الاضمحلال تلك يمكن للعلماء أن يقدروا تاريخ المادة العضوية بدقة كبيرة^(٥).

مخطوطات صنعاء

العثور على مخطوطات صنعاء فتح آفاقاً أثرية جديدة، وجاء المستشرق «غيرد بوين» بأدلة وبمحاولة منه لكسر المعتقد الذي يعتقد به المسلمون: أن كل ما بين دفتي القرآن الذي بأيدينا هو كتاب مُنزل من الله تعالى بلا تحريف، حيث أوضح: أن القرآن تحوّر وتغيّر عبر الزمن.

فلقد عُثر على هذه المخطوطات القرآنية بالإضافة إلى مخطوطات أخرى غير قرآنية، بمحض الصدفة عندما كان مجموعة من العمال يُرمّمون حائطاً في مسجد صنعاء الكبير في اليمن عام ١٩٧٢م، حيث لم يكونوا مدركين لأهمية تلك المخطوطات، فقد كانت مهملة ومقطّعة إلى أجزاء، فقاموا بتعبئتها في أكياس للبطاطا وخزّنها في بيت السّلم في منارة المسجد.

ولأهمية هذه المخطوطات طُلب من الجهات الدولية تبني مشروع لفحص وحفظ تلك المخطوطات، وبالفعل قامت حكومة ألمانيا بتنظيم وتمويل مشروع ترميم المخطوطات في عام ١٩٧٩م.

(٥) <http://www.alukah.net/libr ary/91448/0/izzaygk/> مقالة محمد الأمين - الكربون المشع

وكان المشرف على مشروع الترميم هو الدكتور الألماني «غيرد بوين» من جامعة سارلاند الألمانية المختص بالخط العربي، وعلم الكتابات القديمة القرآنية. ودرس الدكتور «غيرد بوين» هذه المخطوطات لمدة أربع سنوات.

وتبين له أن هذه المخطوطات على قطع من الرق «جلد الحيوان»، وقد أظهر كربون «- ١٤» أن عمر هذا الرق يرجع إلى «٦٤٥-٦٩٠م».

أما الكتابة على المخطوطات تنطوي على كمية غير معروفة من الزمن - تكتب وتُمسح - لكن عمر الخط الموجود حالياً على بعض المخطوطات يرجع إلى «٧١٠-٧١٥م»، «سواء ما كُتِبَ على الرق، أو المخطوطات فإن جميعها كُتبت في سلسلة من الزمن»، أي: تعود إلى القرن الثامن الميلادي.

كذلك أظهرت العديد من هذه المخطوطات أنها احتوت على كتابة سابقة، بمعنى: أنه مُسح النص القديم وكتب فوقه النص الجديد، وبعبارة أخرى: أنه قد تمّ تعديل النص القرآني وإعادة كتابته على نفس الرق، ومن الصعب أن نقرأ الكتابة التي مُسحت لكن الأدوات الحديثة مثل التصوير فوق البنفسجي يمكن تسليط الضوء على هذه الكتابة السابقة.

فَحَصَلَت المفاجأة عندما تمت مقارنة هذه المخطوطة القرآنية المكتشفة مع القرآن الحالي، لاحظ «غيرد بوين» أن هذه المخطوطة القرآنية مختلفة، أي: هناك اختلافات نصية مهمة،

ومضمون ما قاله: أنَّ هذا القرآن «مخطوطة صنعاء» لا يشبه القرآن الحالي.

وقال أيضاً: هذا القرآن هو كوكتيل من النصوص غير المفهومة والتي ربما لم تكن مفهومة حتى في وقت محمد^(٦).



بعض الرقوق القرآنية على الهيئة التي وجدت فيها عند اكتشافها



صور لمعرض مصاحف صنعاء في اليمن عند افتتاحه في عام ١٩٨٥ يظهر تحت السهم الأول على اليسار رئيس مجلس الوزراء اليمني عبد العزيز عبد الغني، وعلى يمينه تحت السهم د. جيرد بوين الألماني، وعلى يمينه القاضي إسماعيل الأكوع، ويظهر في الصورة جانب من مخطوطات القرآن في صنعاء.

<https://www.youtube.com/watch?v=NczK6ISbZbE>
فضائية الحياة حلقة ٤١٧

الشبهات التي طرحها (غيرد بوين)

- ١- أن النص القرآني ما هو إلا تطوّر نصّي في الواقع، أي: أنّه تطوّر عبر الزمن، ولم يأتِ ككتاب كامل كما يزعم المسلمون.
 - ٢- القرآن الذي نعرفه لا يعود إلى زمن محمد ﷺ.
 - ٣- أنّ هذه المخطوطات لم تُكتب في لغة عربية، فهي عبارة عن مزيج من النصوص غير المفهومة.
 - ٤- هناك نص ممحو «باطن» قد كتب فوقه نص آخر «ظاهر»، والنص الأول مختلف تماماً عن النص الثاني.
- والنص الممحو «الباطن» يختلف عن نص القرآن الحالي.
- هذا أهم ما ألقاه «غيرد بوين» من شبهات وإشكاليات حول القرآن الكريم، ونحن نقدّم مجموعة من الأسئلة تمهيداً للإجابة على الشبهات، وهي: ما هي أقدم مخطوطة قرآنية لدينا؟ وكم عدد النسخ الموجودة منها؟ وأين هي الآن؟ هل هناك مخطوطات أخرى قديمة؟ وهل تتفق المخطوطات فيما بينهما؟

مناقشة شبهات (غيرد بوين)

- ١- قوله: بأنّ القرآن تطوّر عبر الزمن، أو إدعائه بأنّ هناك معاني قرآنية جديدة لم تكن مطروحة سابقاً. وعليه، لم يأتِ ككتاب كامل.
- نقول: أنّ مُكتشف المخطوطات بدأ بالبحث عن الكلمات الغريبة التي لم يفهمها ولم يعرفها، فذهب يبحث في جذور الكلمة في غير اللغة العربية، ليصل إلى معاني القرآن، لأنّ

المخطوطة كما هو معلوم كُتِبَتْ بخط غير منقط، فكرّس جهده على أن ينقط القرآن تبرّعاً، فمثلاً: كلمة «عين» لو غيّرت التنقيط ستعطيك معنى آخر، كلفظة: «عنب»، وبناء على ذلك قال: أن الكلمة الواحدة تعطي «٣٠» معنى إذا كانت غير منقطّة^(٧)، فجاء هو معانٍ جديدة، وقال: هناك معانٍ لا يعرفها المسلمون لحد الآن.

وغفل عن شيء مهم، وهو: أن التنقيط جاء على أساس اللفظ، فكانت حروف الكتابة آنذاك خالية من كل علامة مائزة بين الحروف وفق طبيعة الخط الذي كان دارجاً عند العرب، فلا تمييز بين الباء والتاء، ولا بين الياء والشاء، ولا بين الجيم والحاء والخاء، وهكذا كان الخط القرآني مجرداً عن الحركة والإعراب، وكان على القارئ بنفسه أن يُميّز بينهما عند القراءة، كما كان عليه أن يعرف هو بنفسه وزن الكلمة وكيفية إعرابها أيضاً، ومن ثمّ كانت قراءة القرآن في الصدر الأول موقوفة على مجرد السماع والنقل. ولولا الإسماع والإقراء لما نُقِطَ وشكّل بعدها النص القرآني، فمثلاً: كانوا يعرفون بسليقتهم الذاتية لفظة: «كُتِبَ» في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾^(٨) ولفظة: «كُتِبَ» في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾^(٩).

بمعنى: أنهم جعلوا اللفظ المعبر عن المعنى المراد مقياساً، ومن ثم تكون الكتابة مطابقة للفظ المنطوق به تماماً، فكان حفظ القرآن في صدور الرجال مأموناً من الخطأ واللحن. وكل ذلك يرجع إلى أن العرب كانت تقرأ صحيحاً حسب سليقتها الفطرية

(٧) المصدر نفسه.

(٨) الأنعام: ٥٤.

(٩) البقرة: ١٨٣.

التي كانت محفوظة لحد ذلك الوقت، ومن شدة عنايتهم بالأخذ والتلقي شخصاً بعد شخص وفرت الجو لحفظه وضبطه إلى يومنا هذا.

وأول من وضع النحو هو أبو الأسود الدؤلي، بأمر من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وكذلك هو أول من نقط المصاحف. قال أبو الأسود: «دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فوجدت في يده رقعة، فقلت: ما هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: إنني تأملت كلام العرب، فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء - يعني الأعاجم - فأردت أن أصنع شيئاً يرجعون إليه، ويعتمدون عليه، ثم ألقى إليّ الرقعة وفيها مكتوب: الكلام كله اسم، وفعل، وحرف، فالإسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ به، والحرف ما أفاد معنى. وقال لي: انح هذا النحو، وأضف إليه ما وقع إليك. و أعلم يا أبا الأسود، أن الأسماء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، واسم لا ظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر»^(١٠).

«كما أن أبا الأسود سمع قارئ يقرأ: إن الله بريء من المشركين ورسوله - بكسر اللام - فقال: ما ظننت أن أمر الناس آل إلى هذا، فرجع إلى زياد ابن أبيه - وكان والياً على الكوفة «٥٠-٥٣ هـ»، وكان قد طلب إليه أن يصنع شيئاً يكون للناس إماماً، ويُعرف به كتاب الله، فاستعفاه أبو الأسود، حتى سمع بنفسه هذا اللحن في كلام الله، فعند ذلك عزم على إنجاز ما طلبه زياد - فقال: أفعل ما أمر به الأمير، فليبع لي كتاباً مجيداً يفعل ما أقول.

(١٠) تلخيص التمهيد،
معرفة: ج ١، ص ١٩٣.

فأتوه بكتاب من عبد قيس فلم يرضاه، فأتوه بآخر وكان واعياً فاستحسنه.

قال أبو الأسود للكاتب: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه من أعلاه وإن ضمنت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف»^(١١). فمن هنا اشتبه وتوهم المستشرق بأن المسلمون الأوائل قد أخطأوا بالتنقيط فجاء هو لينقّط من عنده.

٢- قوله: أن القرآن لا يعود إلى زمن محمد ﷺ، هو نتيجة لما ذهب إليه من أن الخط الموجود في المخطوطة قريب جداً من اللغة السريانية. ومما لا شك فيه إن كان الخط النسخي «وهو أوسع الخطوط انتشاراً آنذاك» قريباً من الخط النبطي، أو الخط الكوفي قريباً من الخط السرياني، فهو لا يدل على أن النص القرآني جاء قبل بعثة نبينا الأكرم محمد ﷺ.

«نعم، كان بعض العرب ممن رحلوا إلى الشام والعراق في تجارة، أو سفارة جعلوا يتخلّقون بأخلاق تلكم الأمم المتحضّرة، فاقبّسوا منهم الكتابة والخط على سبيل الاستعارة، فعادوا وبعضهم يكتب بالخط النبطي، أو الخط السرياني، وظل الخطان معروفين عند العرب إلى ما بعد الفتح الإسلامي.

وقد تخلّف عن الخط النبطي الخط النسخي - وهو المعروف اليوم - وتخلّف عن الخط السرياني الخط الكوفي، وكان يسمى الخط الحيري، نسبة إلى الحيرة - مدينة عربية قديمة بجوار الكوفة اليوم - لأنّ التحوّل حصل فيها.

(١١) بناء المقالة
الفاطمية في نقض
الرسالة العثمانية، ابن
طاوس: ص ١٠٢.

ثم بعد بناء الكوفة وانتقال الحضارة العربية إليها، تحول اسم هذا الخط إلى الخط الكوفي وظل هذا الخط هو المعروف والمتداول بين العرب في فترة طويلة^(١٢).

٣- وقوله: أن المخطوطات لم تكتب بالعربية، وهو مزيج من النصوص غير المفهومة كما ادعاه المُستشرق.

نقول: إذا كان الكتاب المُنزل من الله تعالى إلى عباده من أجل الإخبار بتعاليم دينه بغير اللغة العربية - كما يزعمون - فلا يبقى حجية له عليهم، وهذا مما لا يقول به عاقل، فلا يعقل أن تكتب شيئاً لتخبر به آخر فتكتب له بغير لغته التي يفهمها! وهذه دعوى باطلة وضرب من الخيال والوهم، فالقرآن عربي ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١٣)، والمنزل إليهم عرب الجزيرة العربية، والواسطة في ذلك التنزيل هو نبي عربي.

٤- قوله: أنه عثر على نص ممحو كتب فوقه النص المكتشف، وأن النص الأول مختلف تماماً عن النص الثاني. نقول: لا نعلم أين المشكلة من أن تكتب شيئاً ثم تمحوه لتكتب شيئاً آخر!

إما للتعديل، وإما للتصحيح، وخصوصاً عند الدرس والتعلم، كما وجدوا هذه الأوراق بزاوية من زوايا المسجد، فقد كانت مخصصة لحفظ الأوراق التالفة، كما بين هو بلقائه بأنها كانت بأعداد كبيرة وفي أوقات مختلفة، بعضها كتب بخطوط مبعثرة وبعضها بخطوط منتظمة^(١٤).

(١٢) تلخيص التمهيد،

معرفة: ج ١، ص ١٩٠.

(١٣) يوسف: ٢.

(١٤) <https://www.youtube.com/watch?v=NczK6ISbZbE>

فضائية الحياة حلقة

٤١٧

وهذا خير دليل على أنها كانت للتعلّم في ذلك المسجد الكبير الذي يُعدُّ من أقدم المساجد في الإسلام، وأول مسجد يبنى في اليمن^(١٥)، فهناك الكثير من التلاميذ اليوم يكتبون القرآن ويخطّون فيه، وهذا ليس بدليل على أنّ الخطأ بالقرآن، أو هو محرّف، فخطأ الكاتب لا يدلّ على خطأ المكتوب، وقد ثبت في تاريخنا أن هناك نُسَخاً قد أخطأوا ولم يكتبوا النص القرآني كما هو، ولكن تم توحيدها واعتماد نسخة موحدة ومصححة، وكان ذلك بزمان عثمان بن عفان، كما هو معروف^(١٦).

وهذا الأمر لا يغيّر شيئاً بالنسبة لنا سواء كان النص الممحو يخالف النص الموجود بالمخطوطة، أم كان ذلك النص الظاهر فيها مخالف للنص القرآني الحالي، وسواء كانت تلك المخطوطات المكتشفة من تلك النُسخ التي تم إلغاؤها ولم يعتمد عليها «بزمان عثمان»، أو كانت نُسَخاً للتعلّم، وفي كلتا الحالتين كانوا يحفظونها لقدسيتها بما تحمله من نصوص قرآنية، وهو موافق لما وجدوه خلف جدار قد بُنيَ عليها لتبقى محفوظة ومخبأة من العيان، ولو كانت مما يُعتمد عليه فما الداعي لإخفائها!

مضافاً إلى ذلك أنّ الاحتفاظ بها وعدم إتلافها وتمزيقها مما أمر به الشرع لاشتغال الرقاق على كلمات قرآنية وإن كان في بعضها لحناً، وكان هذا حكم الشرع معروفاً لدى عامة الناس فضلاً عن علمائها.

أما بقية الأسئلة بشأن «المخطوطات» وعن أقدم مخطوطة قرآنية لدينا، وكم عددها، وهل يوجد اختلاف فيما بينها.

http://www. (١٥)
alarab.co.uk
/?id=٢٧٨٢١ العرب -
صحيفة عربية تأسست
في لندن.
(١٦) تلخيص التمهيد،
معرفة: ج ١، ص ١٧٢.

فيأتي الجواب ببساطة: أن القرآن لم يُحفظ عن طريق المخطوطات بشكل مباشر مثل بقية الكتب، وإنما حُفظ في الصدور من أول نزوله.

علاوة على ذلك أن النسخ الحالية وصلت إلينا بشكل متواترة، وهي النسخ التي تم توحيدها وتوزيعها في الآفاق. «أما المصاحف الأثرية التي تحتويها خزائن الكتب المصرية - ويقال عنها: أنها مصاحف عثمانية - فإننا نشك كثيراً في صحة هذه النسبة، لأن بها زركشة ونقوشاً موضوعة كعلامات للفصل بين الصور، ولبیان أعشار القرآن. ومن المعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا ومن النقط والشكل.

نعم، في خزانة المشهد الحسيني مصحفٌ منسوبٌ إلى عثمان، مكتوبٌ بالخط الكوفي القديم، مع تجويف حروفه وسعة حجمه جداً، ورسمه يوافق رسم المصحف المدني أو الشامي، حيث رسم فيه كلمة «من يرتدد» من سورة المائدة بدالين مع الفك، فأكبر الظن أن هذا مصحف منقول من المصاحف العثمانية»^(١٧).

ما هو موقفنا تجاه المخطوطات

المكتشفة سابقاً، أو التي قد تكتشف لاحقاً:

الصحيح في تقرير الجواب أن يقال: هل أن المخطوطات مقياس أساسي نقيس به عصمة القرآن الذي بين أيدينا أو تحريفه، أم أن المخطوطات تقاس على القرآن وتعرض عليه لمعرفة مدى موافقتها له ومخالفتها؟

(١٧) تلخيص التمهيد،
معرفه: ج ١، ص ١٨٤.

والصحيح هو: أن المنهج العلمي عند المسلمين يختلف عن
المنهج العلمي عند الغربيين، فالثاني يعود إلى القدم «أي يعتمد
على الزمان فقط، فإذا كان المخطوط قديماً زماناً فعليه المعول
دون لحاظ أمر آخر فيه». أما الأول فيعتمد على سؤالين:

١- من هو الكاتب؟ لأننا لا نأخذ ديننا من مجهول، فقد يكون
الكاتب عدوًّا أو جاهلاً، أو كتب من عنده أو دس ما ليس من
القرآن فيه عن قصد وعمد أو بدونهما.

ولا يهمنّا قدم كتابته، أو اكتشافه إلى أيّ عصر يعود. بمعنى:
نحن لا يهمنّا ما يقوله المستشرقون بأنه ظهرت نسخة كذا في
مكان كذا، وفيها اختلاف وما إلى ذلك، وبطبيعة الحال أننا لا
نعرف كاتب هذه المخطوطات، فهذا كله لا قيمة له عندنا من
ناحية استحصال اليقين بأنّ المُكشّف قرآناً وأنه تمّ اعتماده.

٢- على ماذا اعتمد في نسخ القرآن؟ أي: لابد أن يكتب ذلك
الكاتب من نسخة موثقة.

والقدر المتيقن أنّ ما عندنا هو موثق، ومتواتر الصدور والوصول
عند العلماء، فإن جاء ما يوافق القرآن الذي بأيدينا أخذنا به، وإن
خالف ما عندنا فلا يمكن عدّه قرآناً.

والخلاصة:

أننا لا نأبه بما يقولون ويكتشفون، بل نأخذ عقيدتنا وتعاليم ديننا ممن نثق بهم، وكل مخطوطة اكتشفت، أو قد تُكتشف لاحقاً، فنحن نعرضها على القرآن الحالي الذي بين أيدينا فإن وافقته فنعتز بها كمخطوطة أثرية مقدسة لما تحمله من آيات مباركة، وإن خالفت النص القرآني فلا تعني لنا شيئاً، وليست بالضرورة أن تكون من القرآن، فضلاً عن أن تكون القرآن نفسه؛ لما ذكرنا سابقاً من أن القرآن المتداول قد ثبت وتواتر عند المسلمين صدوراً وبقاءً، وأنه غير محرّف ولم تنل منه أيدي المحرّفين، لذا فهو يعتبر الأصل في غربلة سائر النسخ المستحصلة بالاكتشافات الحديثة.

تواتر القرآن

لإمعان النظر في إثبات سلامة القرآن الموجود بأيدينا من التحريف وأنه قد وصل إلينا بأيدٍ أمينة ولم يتعرض للدس والتحريف والزيادة لا بد لنا من التعرض إلى تواتره وقطعية صدوره حتى وصوله إلينا.

«أن مصطلح التواتر يعني: ما بلغ رجال إسناده في جميع الطبقات حداً في الكثرة والانتشار بحيث يؤمن تواطؤهم على مصانعة الكذب.

ومن ثمَّ يجب في الحديث المتواتر توفر الشروط التالية:

١- إتصال الإسناد من الراوي الأخير إلى مصدر الحديث الأول إتصلاً تاماً.

٢- يبلغ عدد الرواة والناقلين حداً من الكثرة والانتشار فوق الاستفاضة والاشتهار بما يؤمن تواطؤهم على الكذب.

٣- أن يحتفظ بنفس الحجم من كثرة النقلة في كل دور وطبقة، فالكثرة تنقل عن الكثرة وهكذا إلى المصدر الأول.

وعليه، فلو تضائل حجم العدد في طبقة من هذه الطبقات، أو انتهت إلى واحد، ثم أخذ أيضاً في الانتشار والتضخم، فإن هذا لا يسمى متواتراً في الاصطلاح، ويدخل في أخبار الآحاد^(١٨).

أما بخصوص تواتر القرآن، فهو: «مما يبعث على اعتزاز جانب هذه الأمة هو تحفظهم على كتاب الله نصاً واحداً كما أنزل على النبي محمد ﷺ طول التاريخ.

فالمسلمون اتفقوا على كلمة واحدة منذ الصدر الأول في عهد الصحابة الأولين وهكذا عبر الأجيال أمة بعد أمة حتى العصر الحاضر وسبقى مع الدهر على نص القرآن الأصيل في جميع حروفه وكلماته، ونظمه وترتيبه وقراءته.

تلقوه من الرسول الأعظم ﷺ وتوارثوه يداً بيد في حيلة كاملة وحذر فائق.

وما نقرأه اليوم هو الذي كان يقرأه المسلمون في العهد الأول. وما نجده اليوم من النص المثبت بين الدفتين هو الذي أثبتته السلف الصالح كما أخذوه من في رسول الله ﷺ بلا تحوير ولا تحريف قط^(١٩).

(١٨) المصدر نفسه،

ص ٢٣٥.

(١٩) المصدر نفسه،

ص ٣١٨.

أدلة نفي التحريف عن القرآن الكريم

نجد لزماً علينا التعرض إلى أدلة نفي التحريف عن القرآن الكريم؛ لارتباط هذا المبحث ارتباطاً جزئياً في البحث، إذ يشكل دليلاً أساسياً في إبطال الاستدلال بالمخطوطات المكتشفة لاثبات تحريف القرآن، ونذكرها باختصار: (٢٠)

١- ضرورة التاريخ: أن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار، والوقائع العظام، والكتب المشهورة، وأشعار العرب المسطورة. فإن العناية اشتدت والدواعي توفرت على نقله وحراسته، وبلغت «أي: صحة نقل القرآن» إلى حد لم يبلغه غيره.

لأن القرآن معجزة النبوة ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية.

٢- ضرورة كون القرآن متواتراً: في مجموعته وفي أبعاضه، في سورة وآياته، حتى في جملته التركيبية وفي كلماته وحروفه، بل وحتى في قراءته وهجائه.

فاتفقوا العلماء على أن ما نقل إلينا متواتراً من القرآن فهو حجة واستدلوا بأنه سند النبوة ومعجزاتها الخالدة فما لم يبلغ حد التواتر لم يمكن حصول القطع بالنبوة.

٣- إعجاز القرآن: مما يتنافى واحتمال التحريف في كتاب الله هي مسألة الإعجاز المتحدى به. وقد اعتبره العلماء من أكبر الدلائل على نفي التحريف.

٤- الآيات القرآنية في الحفظ: قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٢١).

(٢٠) صيانة القرآن من
التحريف، معرفة: ص ٣٥
(٢١) الحجر: ٩.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٢٣) هذه الآيات الكريمة وغيرها ضمنت بقاء القرآن وسلامته عن تطرّق الحداث عبر الأجيال وهو ضمان إلهي لا يختلف ولا يتخلف وعداً صادقاً من الله تعالى، وهذا هو مقتضى قاعدة اللطف، أي: أن الله وفق حكمته في التكليف فعل ما يوجب تقريب العباد إلى الطاعة وبعدهم عن المعصية. ولا شك أن القرآن هو عماد الإسلام وسنده الباقي مع بقاء الإسلام، وهو خاتمة الأديان السماوية الباقية مع الخلود، الأمر الذي يستدعي بقاء أساسه ودعامته قوية مستحكمة لا تتزعزع ولا تنل مع عواصف أحداث الزمان.

٥- العرض على كتاب الله: أن من الدلائل على ردّ شبهة التحريف هي مسألة عرض الأحاديث على كتاب الله، فما وافق فهو صادق، وما خالف فهو كاذب، كما جاءت بذلك الروايات الكثيرة. فإنّ العرض لابد أن يكون على ما هو متواتر ومقطوع عند عامة المسلمين.

٦- الأحاديث والروايات: لدينا وفرة من أحاديث مأثورة عن أهل البيت عليهم السلام تنصّ على صيانة القرآن من التحريف، إمّا تصريحاً أو تلويحاً، وأنه مصون عن التغير نصّاً، لم ينله مسّ سوء. وحديث الثقلين للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بدعوة المسلمين بالتمسك بالقرآن خير دليل على نفي التحريف عنه. فلو احتمل تحريفه لما صح الأمر بالرجوع إليه والتمسك به وهو أحد الثقلين «كتاب الله وعترتي أهل بيتي».

عقيدتنا في صيانة القرآن من التحريف

إنَّ صيانة القرآن الكريم من التحريف بمعنى الزيادة والنقيصة هي من الأمور الثابتة عند عموم المسلمين، ولا تحتاج إلى مزيدٍ من الاستدلال والتوضيح، ولكن ندرج ونذكر أقوال أئمة علمائنا ممن دارت عليهم رحي الاعتبار في هذا المجال، فكانت أقوالهم حجة وآراؤهم بالنسبة لنا سند القبول، فهم قد أفنوا أعمارهم بالتدقيق والتحقيق، فهؤلاء هم الذين يمثلون الأمة وتتجلى في نظراتهم معالم المذهب الحق.

وفيما يلي بعض تصريحات أعلام الطائفة المأخوذة من كتاب تلخيص التمهيد: (٢٣)

١- شيخ المحدثين، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسن الصدوق رحمته الله «ت ٣٨١».

قال- في رسالته التي وضعها لبيان وتقرير معتقدات الشيعة الإمامية حسب ما وصل إليه من النظر والتمحيص:- اعتقادنا أنَّ القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلوات الله عليه هو ما بين الدفتين. وهو ما في أيدي الناس ليس بأكثر من ذلك.

وعدد سوره على المعروف «١١٤» سورة.

وقال: ومن نسب إلينا إنّا نقول: أنّه أكثر من ذلك فهو كاذب.

٢- عميد الطائفة، محمد بن النعمان المفيد رحمته الله «ت ٤١٣»

قال: وأما الزيادة فيه فمقطوع على فسادها، إن أُريد بالزيادة زيادة سورة على حدّ يلبس على الفصحاء، فإنه متنافٍ مع تحدي القرآن بذلك.

وإن أُريد زيادة كلمة، أو كلمتين، أو حرف، أو حرفين. ولست أقطع على كون ذلك، بل أميل إلى عدمه وسلامة القرآن عنه.

٣- الشريف المرتضى، علي بن الحسين علم الهدى رحمته الله «ت ٤٣٦» قال- في رسالته الجوابية الأولى عن المسائل الطرابلسيات- :
إنَّ العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب المسطورة.
فإنَّ العناية اشتدَّت والدواعي توفَّرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حدٍّ لم يبلغه فيما ذكرناه، لأنَّ القرآن معجزة النبوة ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية. وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية، حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته، فكيف يجوز أن يكون مُغيَّراً ومنقوصاً، مع العناية الصادقة والضبط الشديد! .

٤- شيخ الطائفة، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي رحمته الله «ت ٤٦٠» يقول - في مقدمة تفسيره الأثري الخالد «التبيان»:- وأما الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق بهذا الكتاب المقصود منه بمعاني القرآن، لأنَّ الزيادة منه مُجمع على بطلانها والنقصان منه، والظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا.

٥- جمال الدين، أبو منصور الحسن بن يوسف ابن المطهر العلامة الحلي رحمته الله «ت ٧٢٦». العلامة الحلي

في أجوبة المسائل المهنأوية، عندما سأله السيد المهنة: ما يقول سيدنا بالكتاب العزيز هل يصح عند أصحابنا أنَّه نقص منه

شيء، أو زيد فيه، أو غيّر ترتيبه، أم لم يصح عندهم شيء من ذلك؟ إفدنا أفادك الله من فضله وعاملك بما هو من أهله.

قال العلامة في الجواب: الحق أنه لا تبديل ولا تأخير ولا تقديم فيه، وأنه لم يزد ولم ينقص، ونعوذ بالله تعالى من أن يُعتقد مثل ذلك وأمثال ذلك فإنه يوجب التطرق إلى معجزة الرسول ﷺ المنقولة بالتواتر.

٦- وقال خاتمة المحدثين المتعهدين، محمد بن الحسين بن علي المشتهر بالحر العاملي رحمته الله، صاحب الموسوعة الحديثية الكبرى - وسائل الشيعة - «ت ١١٠٤» - في رسالة كتبها بالفارسية، دحضاً لسفاسف بعض معاصريه ما تعريبه: - أن من تتبّع أحاديث أهل البيت عليهم السلام وتصفّح الأحاديث والأخبار عِلِمَ علماً يقيناً أن القرآن قد بلغ أعلى درجات التواتر، قد حفظه الألوف من الصحابة ونقلته الألوف، وكان منذ عهده عليه السلام مجموعاً مؤلفاً.

٧- الإمام السيد شرف الدين العاملي رحمته الله «ت ١٣٨١»

قال - رداً على من حاول إلصاق تهمة القول بالتحريف إلى جماعة الشيعة، ظلماً وزوراً وتفريقاً بين المسلمين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله -: وكل من نسب إليهم تحريف القرآن فإنه مُفتر عليهم ظالم لهم، لأنّ قداسة القرآن الحكيم من ضروريات دينهم الإسلامي ومذهبهم الإمامي، ومن شك فيها من المسلمين فهو مرتد بإجماع الإمامية.

٨- العلامة المفسر السيد محمد حسين الطباطبائي رحمته الله «ت ١٤٠٢»

له بحث وافٍ بإثبات صيانة القرآن عن التحريف في جميع

أشكاله وصوره، ذكره في سبعة فصول، في استدلال قوي وبرهان حكيم، لا يستغني الباحث عن مراجعته.

٩- السيد الإمام الخميني (رحمته الله) «ت ١٤٠٩»

قال: إنّ الواقف على عناية المسلمين بجمع الكتاب وحفظه وضبطه، قراءةً وكتابةً، يقف على بطلان تلك المزعومة. وما ورد فيه من أخبار - حسبما تمسكوا - أما ضعيف لا يصلح للاستدلال به، أو مجعول تلوح عليه أمارات الجعل، أو غريب يقضي بالعجب. أما الصحيح منها فيرمي إلى مسألة التأويل والتفسير، وأنّ التحريف إنما حصل في ذلك لا في لفظه وعباراته.

١٠- السيد الإمام الخوئي (رحمته الله) «ت ١٤١٣»

له بحث تفصيلي مستوفٍ بإثبات صيانة القرآن من احتمال كل زيادة، أو نقصان في كتابه «البيان في تفسير القرآن»، وقد اقتدى بمنهجه العلامة محمد هادي معرفة الذي أخذ عنوان هذا البحث من بيانه وأفكاره.

(٢٤) القيامة: ١٦-١٧-

١٨

الخاتمة

لم يحظَ كتاب بالعناية والاهتمام كما حظي القرآن الكريم، فمنذ بدء الوحي وتلقي النبي ﷺ هذا الخطاب الإلهي المقدس، كان اهتمامه ﷺ به عظيماً، وشغفه به فريداً، وحبّه له منقطع النظير.

وقد خلّد الوحي الإلهي هذا الاهتمام النبوي بنص قوله: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قُرَأَتْهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (٢٤).

فكان النبي ﷺ يُدَوِّن كل ما ينزل عليه من وحي. وكان حريصاً على نشر سور القرآن بين المسلمين بمجرد نزولها، مؤكداً عليهم حفظها ودراستها وتعلّمها، مبيّناً فضل ذلك وثوابه وفوائده في الدنيا والآخرة.

أما ما نراه ونسمع به من ظهور حملة شرسة تطعن في القرآن الكريم وعصمته من خلال عدد من المخطوطات القرآنية المكتشفة في صنعاء، أو من خلال ما يسمى بـ «النقد النصّي للقرآن». ما هي إلا محاولة بائسة لا تُسمن ولا تُغن عن جوع، لذلك نقول لهم: لو ضاعت جميع مصاحف الأرض لن يضيع القرآن الكريم، بل سنكتفي بإحضار أصغر أطفالنا من حُفّاظ القرآن الكريم ليقروّوه علينا بما حفظوه في صدورهم.

(٢٥) فصلت: ٤١ - ٤٢.

فالقرآن محفوظ في الصدور قبل السطور.

وقول الله تبارك وتعالى خير دليل على نفي كل باطل عنه ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٢٥).

والتحريف من أظهر مصاديق الباطل المذكور في الآية، وعليه، فالقرآن مصونٌ عن التحريف وعن أن تناله يد التغيير منذ نزوله وإلى يوم القيامة، لأنه تنزيلٌ من لدنّ حكيم حميد، كذلك أن الآية وصفت الكتاب بالعزّة، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾.

وعزّة الشيء تقتضي المحافظة عليه من التغيير والضياع والتلاعب، ومن التصرف فيه بما يشينه ويُحطّ من كرامته إلى الأبد.

المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- ابن طائوس، أحمد بن موسى، بناء المقالة الفاطمية في نقض الرسالة العثمانية، الناشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم- إيران، ١٤١١ ق.
- ٣- معرفة، محمد هادي، تلخيص التمهيد، الناشر: مؤسسة التمهيد، منشورات ذوي القربى، ط٣، قم- إيران، ١٤٣٥ هـ.
- ٤- معرفة، محمد هادي، صيانة القرآن من التحريف، الناشر: مؤسسة التمهيد، منشورات ذوي القربى، ط٤، قم- إيران، ١٤٣٧ هـ.
- ٥- www.hor3en.com/vb/showthread.php?t=١٢٦١٠٧ = منتدى الحور العين.
- ٦- <https://www.youtube.com/watch?v=NczKISbZbE>
- فضائية الحياة حلقة ١٧.
- ٧- <http://ibrahim-al-copti.blogspot.co.uk> [٧/٢٠٠٩]
- ١٠_blog-post/ موقع مسيحيو الشرق الأوسط.
- ٨- <http://www.alukah.net/library/> [٢٢٧٩٠/٠] شبكة الألوكة.
- ٩- <http://www.alukah.net/library/> [٩١٤٤٨/٠] izz4yggk
- مقالة محمد الأمين - الكربون المشع.
- ١٠- <https://www.youtube.com/watch?v=NczKISbZbE> = فضائية الحياة حلقة ١٧.
- ١١- <https://www.youtube.com/watch?v=NczKISbZbE> = فضائية الحياة حلقة ١٧.
- ١٢- <http://www.alarab.co.uk/?id=٢٧٨٢١> = العرب - صحيفة عربية تأسست في لندن.

علاقات الأمة بالقيادة الربّانية داخل الكيان الإسلامي

دروس من سورة الحجرات

د. منى عبد الأمير الخفاجي

المقدمة

إن المنهج القرآني ليس مجرد منهج تفكير وتدبر، أو منهج خشوع وتضرع إلى الله تعالى للفوز بالجنان والنجاة من النار، وإنما هو منهج حركة وعمل وعلاقات تنشأ من الارتباط بالله تعالى، وتقوم على أساس الاحترام والتكريم والطاعة للقيادة الربانية، وإقامة العلاقات مع الآخرين على أساس التكافل والتراحم والأمانة والمودة، وتجنّب كل فعل أو موقف يعكّر صفو هذه العلاقات.

اخترت هنا أحد السور القرآنية وهي سورة الحجرات التي تطرقت إلى العلاقة بين المسلمين والقيادة الربانية المتمثلة برسول الله ﷺ، وهو الشخصية الكاملة في إيمانها وإخلاصها ووعيتها وحركتها العملية، والعلاقة المطلوبة هي علاقة الاحترام والطاعة والتسليم المطلق.

وتطرقت إلى الاحتياط في الحكم على الآخرين وعدم الانسياق وراء الخبر الكاذب الذي يخلق الاضطراب في العلاقات، وإلى الإصلاح بين المتنازعين، وإلى حقيقة الانتماء والولاء للجماعة الإسلامية أو للكيان الإسلامي، وإلى التعارف، وإلى حرمة الممارسات السلبية التي تؤدي إلى التنافر والتقاطع والتدابير في المجتمع الواحد.

التسليم المطلق للقيادة الربانية

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

والمراد: أن لا يُقترح على الله ورسوله في الأمور، وترك العجلة والإسراع أمام أمر الله ورسوله، وأن لا يتقدّموا عليهما في أي عملٍ

(١) سورة الحجرات: ١.

وقول ولا يعجل أحد عندهم ، بل ينبغي أن يترك الأمر للقائد نفسه، لا سيما إذا كان القائد معصوماً لا يغفل عن أي شيء، كما لو سئل المعصوم فإنه لا يحق للآخرين أن يجيبوا السائل قبل أن يردّ عليه المعصوم، وفي الحقيقة أن الآية جمعت كل هذه المعاني في طيّها^(٢).

والآية القرآنية الكريمة تأمر المؤمنين بالتسليم المطلق لله ولرسوله عن قناعة وقبول ورضى لا عن جزع وإكراه أو إجبار، وهو تجسيد للتقوى الحقيقية.

والطاعة والانقياد المطلق لم يأت من فراغ أو من مجرد طاعة سلسلة المراتب كما هو الحال في مؤسسات الدول الوضعية، بل هي طاعة لمن كان يتمتع بأرقى خصائص ومؤهلات الشخصية الكاملة المعصومة في سكناتها وحركاتها، والمعصومة في وعيها وإدراكها وتخطيطها، والمعصومة في معرفة الشخصيات والتيارات والأحداث والمواقف، والمعصومة في تحديد الأولويات ومعرفة القدرات الممكنة والإنجازات المتحققة، والمعصومة في كشف الأخطاء في بدايتها والتعرف على حقيقتها، والمعصومة في اتخاذ القرار المناسب في الظرف والوقت المناسب.

ومثل هذه القيادة غير محتاجة إلى رأي الآخرين ومشورتهم واقتراحاتهم، ولذا يجب على المؤمنين عدم التقدم عليها في كل شيء، باستثناء ما تريده هي، فقد تستشير الآخرين تطبيقاً لخواطرهم وتدريبهم على المشاركة في الرأي والتخطيط، أو استطلاع استعدادهم للعمل والمواصلة والتضحية، وفي هذه الحالة يجوز

(٢) الأمثل في كتاب
الله المنزل، ناصر مكارم
الشيرازي: ج ١٣، ص ٩١.

الاقتراح والاستشارة؛ لأنها من مصاديق الطاعة.

ويلحق بهذه الطاعة طاعة من نصّبه الله تعالى ورسوله ﷺ وهم أئمة أهل البيت عليهم السلام.

قال الإمام علي عليه السلام: «... وكيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم! وهم أئمة الحق، وأعلام الدين، وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، ورُدُّوهم ورود الهيم العطاش»^(٣).

وقال عليه السلام: «انظروا أهل بيت نبيكم، فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا»^(٤).

وكل ذلك مستنبط من أحاديث رسول الله ﷺ التي تؤكد قيادتهم للمسلمين، ثم يوضح الحقيقة تلك قائلاً: «وخلف فينا راية الحق، مَنْ تقدّمها مرق، ومَنْ تخلف عنها زهق، ومَنْ لزمها لحق... ألا إنّ مثل آل محمد ﷺ كمثل نُجوم السماء؛ إذا خوى نجمٌ طلع نجمٌ، فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع»^(٥).

وهي إشارة واضحة إلى النصّ على قيادتهم وأنهم عليهم السلام صنائع الله تعالى أدّخروهم لقيادة المسلمين على ضوء المنهج الذي رسمه للإنسانية. وأوضح عليه السلام حقهم في الولاية لوصية رسول الله ﷺ إليهم وقال: «لا يقاس بآل محمد عليه السلام من هذه الأمة أحد، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً؛ هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفى الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصية والوراثة»^(٦).

(٣) نهج البلاغة، الإمام علي عليه السلام، ص ١١٩-١٢٠، الخطبة ٨٧، تحقيق الدكتور صبحي الصالح.

(٤) نهج البلاغة، الإمام علي عليه السلام، ص ١٤٣، باب كلامه ٩٧. (٥) نهج البلاغة ١٤٦، الخطبة ١٠٠.

(٦) شرح نهج البلاغة ج ١ ص ١٣٨-١٣٩، ابن أبي الحديد المعتزلي.

وقال الإمام الحسن بن علي عليه السلام: «... فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة الله عز وجل ورسوله مقرونة؛ قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾» (٧) «...» (٨).

والطاعة المفروضة لم تكن مستندة إلى بيعة المسلمين للإمام الحسن عليه السلام بالقيادة، وإنما هي بنص قرآني واضح الدلالة، فالإمام عليه السلام يستشهد بالقرآن الكريم، ولو أراد الاستشهاد بالبيعة لقال «أنا»، فكان يتكلم بصيغة الجمع، ويستشهد بالقرآن الذي أورد آياته بصيغة الجمع.

وفي جميع الأحوال ينبغي التسليم في جميع الأمور سواء كانت أموراً عبادية بحتة أو أموراً اجتماعية أو سياسية، ومن الأخطاء التي ارتكبت هي التفريق بين الأمور العبادية البحتة والأمور السياسية.

التسليم للفقهاء المصلحين

وتترشح من قيادة أهل البيت عليهم السلام للأمة قيادة الفقهاء في عصر الغيبة بما يتمتعون به من نيابة عامة لأهل البيت عليهم السلام، فأهل البيت عليهم السلام قيادتهم شرعها الله تعالى، وقيادة الفقهاء شرعها أهل البيت عليهم السلام، مضافاً إلى أنهم مصداق لأولي الأمر في عصر الغيبة. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الفقهاء أمناء الرسل» (٩). فالفقهاء أمناء الرسل في كل ما يتعلق بشؤون الأمانة، والفقهاء العدول يجمعون بين السيادة والقيادة.

(٧) سورة النساء: ٥٩.

(٨) الأمالي، الشيخ

المفيد ٣٤٩.

(٩) بحار الأنوار،

المجلسي: ج ١ ص ٢١٦،

كتاب العلم، باب ٦،

حديث ٣١.

وعبّر رسول الله ﷺ عن الفقهاء بالخلفاء فقال: «اللهم ارحم خلفائي ... الذين يأتون بعدي ويروون حديثي وسنتي»^(١٠). وقال الإمام علي عليه السلام: «الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك»^(١١).

فالفقهاء في أحاديثه عليه السلام هم ورثة الأنبياء، وهم الحكام على الناس جميعاً بما فيهم الملوك.

وقال الإمام الحسين عليه السلام: «إن مجاري الأمور والأحكام على أيدي العلماء بالله الأمانة على حلاله وحرامه»^(١٢).

وحينما منع الإمام الصادق عليه السلام أتباعه من التحاكم إلى السلطان الجائر أرجعهم إلى الفقهاء، وقال: «... ينظران إلى من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكماً فإنني قد جعلته عليكم حاكماً فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه فإنما استخف بحكم الله وعلينا رد...»^(١٣).

وجاء في التوقيع الصادر من الإمام المهدي عليه السلام ما يؤكد الرجوع إلى الفقهاء في عصر الغيبة في مطلق الأمور: «... وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله عليهم»^(١٤).

فالعلماء والفقهاء - كما تقدّم - هم أئمة الرسل، وورثة الأنبياء، وحصون الإسلام، والحكام على الناس جميعاً، وهم خلفاء الرسول ﷺ، وهذه المنازل هي دليل على قيادتهم، لأن الإسلام دين شامل لجميع حياة الإنسان، بما فيها الحياة السياسية، فيكون الرجوع إليهم في المسائل السياسية دليلاً على ذلك.

(١٠) من لا يحضره

الفقيه، الصدوق: ج ٤،

ص ٤٢٠، حديث ٥٩١٩.

(١١) شرح نهج

البلاغة، ابن أبي

الحديد المعتزلي، ج ٢٠،

ص ٣٠٤؛ الحكمة ٤٨٤.

كنز الفوائد: ج ٢، ص ٣٣

عن الإمام الصادق عليه السلام.

(١٢) تحف العقول،

الحراني: ص ١٦٩.

(١٣) الكافي، الكليني:

ج ١، ص ٦٧، كتاب

فضل العلم، باب

اختلاف الحديث،

حديث ١٠.

(١٤) كمال الدين

وتمام النعمة، الصدوق:

ج ٢، ص ٤٨٤، الباب ٤٥،

الحديث ٤.

احترام القيادة الربانية

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١٥).

رفع الصوت ينطوي على أمرين: إما نوع استخفاف به وهو الكفر، وإما إساءة الأدب بالنسبة إلى مقامه، وهو خلاف التعظيم والتوقير المأمور به.

وأن من التعظيم عند التخاطب أن يكون صوت المتكلم أخفض من صوت مخاطبه، فمطلق الجهر بالخطاب فاقد لمعنى التعظيم، فخطاب العظماء بالجهر فيه كخطاب عامة الناس لا يخلو من إساءة الأدب والوقاحة (١٦).

إن احترام القيادة الربانية مسؤولية شرعية لا تقتصر على جانب دون آخر، ومن أبسط مصاديق الاحترام هو عدم رفع الصوت أمامها وعدم الجهر بالقول، كما هو المتعارف بالجهر بين الناس المتقاربين في الوعي والمعرفة والسلوك والمواقف، ويأتي الاحترام في غير هذه الأمور من باب الأولوية.

والقرآن الكريم حينما أوجب الاحترام وربط عدمه بإحباط الأعمال؛ أراد أن تكون العلاقة بين القيادة الربانية وقاعدتها علاقة احترام وتقدير وتكريم وهي مستبنة للمودة والمحبة والرحمة، والاحترام هو أساس الطاعة والتسليم للأوامر والتوجيهات، لكي تكون أوامر وتوجيهات ذات قدسية خاصة وليس مجرد أوامر صادرة من جهة فوقية حريصة على طاعتها من قبل القاعدة مهما كانت الوسيلة المتبعة في هذه الطاعة.

(١٥) سورة الحجرات: ٢.

(١٦) عوائد الأيام،

النراقي: ص ٥٣٦.

التريث في اتخاذ القرار

لما أسلم بنو المصطلق بعث رسول الله ﷺ إليهم الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فلما سمعوا به ركبوا إليه، فلما سمع بهم هابهم، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره أن القوم قد همّوا بقتله، ومنعوه ما قبلهم من صدقتهم، فأكثر المسلمون في ذكر غزوهم، فبينما هم على ذلك قدم وفدهم على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله سمعنا برسولك حين بعثته إلينا، فخرجنا إليه لنكرمّه، ونؤدي إليه ما قبلنا من الصدقة فانشمر راجعاً، فبلغنا أنه زعم لرسول الله ﷺ أنا خرجنا إليه لنقتله، والله ما جئنا لذلك^(١٧).

فأنزل الله تعالى فيه وفيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ * وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾^(١٨).

والقرآن ينهاهم عن الأخذ بخبر الفاسق ثم يقول: من حسن حظكم أن فيكم رسول الله وهو مرتبط بالوحي فلا تتوقعوا أن يطيعكم ويتعلم منكم ولا تصرّوا وتلحوا عليه، فإن ذلك فيه عنت لكم وليس من مصلحتكم^(١٩).

فيجب الثبّت من أخبار الفاسقين والمنحرفين؛ لأن بعض الأخبار تترتب عليها مواقف خطيرة قد تسفك بها الدماء، وقد تدخل المسلمين في متاهات خطيرة، ويجب على المسلمين - وخصوصاً المجاهدين - أن يكونوا أكثر حيلة وحذراً من الأخبار

(١٧) السيرة النبوية،

ابن هشام: ج ٣، ص ٣٢٤.

(١٨) سورة الحجرات:

٦-٧.

(١٩) الميزان في تفسير

القرآن، الطباطبائي:

ج ١٨، ص ٣١٢.

أو مطلق المعلومات التي تردهم، وأن يتأكدوا من صحتها قبل اتخاذ أي قرار، ويجب الرجوع إلى القيادة الميدانية فهي الأعراف بصحة الأخبار، وهي الأعراف بطرق التأكد منها.

والدرس المستفاد بعد درس التريث من الأخبار: هو الاعتراف بالحقيقة وإن كانت على حساب سمعة المعترف، فالوليد بن عقبة لو اعترف بالحقيقة من أنه قد انتابه الخوف واعتذر من تحمل المسؤولية لكان خيراً له من الكذب والبهتان وكان خيراً للجماعة الإسلامية، ولكنه لم يعترف بالحقيقة فسُمي فاسقاً في قرآن يتلى إلى أبد الآبدين، وكان بإمكانه الاعتراف أمام رسول الله ﷺ وهو الكتوم الذي لا يسرب خوفه وهلع، وكان موضع تقدير عنده.

وفي أجواء اختراق الصف الإسلامي من قبل العناصر المنحرفة والنفعية والانتهازية، يجب التريث في اتخاذ القرار وعدم التسرع استناداً إلى نَبأ غير صادق أو معلومات غير صحيحة، أو الاعتماد على معلومات ما يُسمى «بالمخبر السري»، فينبغي التأكد من الخبر - وخصوصاً في القرارات الخطيرة - وجمع المعلومات من أكثر من جهة، ومن خلال الاستطلاع الكامل، فإذا توفرت المعلومات المؤكدة يأتي الدور إلى دراسة القرار قبل اتخاذها، ثم عرضه على مقومات إصداره وهي:

١- الشرعية.

٢- الظروف العامة والخاصة.

٣- المصلحة الإسلامية العليا.

٤- المصلحة الخاصة بالجماعة.

الصلح بين الطوائف المتصارعة

قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٢٠).

المعنى: إن كلمة ﴿اقْتَتَلُوا﴾ تشمل كل أنواع النزاع وإن لم يصل إلى مرحلة القتال والمواجهة العسكرية، وإن من واجب المسلمين أن يصلحوا بين المتنازعين، ولا ينبغي أن يقنع المسلمون بالقضاء على قوة الطائفة الباغية، بل ينبغي أن يعقب ذلك الصلح، وأن يكون مقدمة لقلع جذور عوامل النزاع، وإلا فإنه بمرور الزمن ما أن يحس الظالم في نفسه القدرة حتى ينهض ثانية ويشير النزاع (٢١).

ومن المعلوم أن وحدة المسلمين ضرورة شرعية وعقلية، وهي الأصل في العلاقات بينهم، ويبقى الخلاف والنزاع والصراع حالة استثنائية يجب أن تعود إلى الأصل بأسرع وقت لكي لا يتجذر النزاع ويتحوّل إلى ممارسات سلبية وخصوصاً النزاع المسلح الذي تزهق فيه الأرواح وتتجذر فيه الأحقاد والعداوات.

والصلح مسؤولية شرعية تقع على عاتق المسلمين وفي مقدمتهم القيادة، فإذا لم يتم الصلح وأصرّت إحدى الطوائف على القتال أو البغي فيجب مقاتلتها لكي ترجع إلى الأصل، فإن رجعت ينبغي الصلح بينهما بالعدل، أي: التوصل إلى حلّ نهائي يأخذ كل ذي حق حقه لكي لا تبقى ثغرة في العلاقات يتجدّد من خلالها النزاع بين الحين والآخر.

(٢٠) سورة الحجرات ٩.

(٢١) الأمثل في كتاب

الله المنزل، الشيخ

ناصر مكارم الشيرازي:

ج ١٣، ص ١٠٥.

وقد أكدت الآية اللاحقة على الأخوة والإصلاح وتقوى الله تعالى ﷻ. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٢).

والمعنى: كما تسعون للإصلاح بين الأخوين في النسب، فينبغي أن لاتألوا جهداً في الدخول بصورة جادة للإصلاح بين المؤمنين المتخاصمين بعدالة تامة.

وحيث أنه في كثير من الأوقات تحل الروابط محل الضوابط، فإن القرآن يضيف في نهاية هذه الآية: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٣). وهكذا تتضح إحدى أهم المسؤوليات الاجتماعية على المسلمين في تحكيم العدالة الاجتماعية بجميع أبعادها.

ومن المحاور المشتركة في الأخوة الإسلامية، محور العقيدة، والمصالح الواحدة، والمصير الواحد، ووحدة المفاهيم والقيم والموازين والعادات والتقاليد، ووحدة القيادة الربانية، وكذلك وحدة العدو.

والتوجه إلى هذه المحاور وتعميقها في القلوب والنفوس والضمائر من شأنه أن يحقق التآلف والتآزر والتعاون في المواقف العملية والممارسات الميدانية، وأن ينقذ المسلمين من مخاطر النزاع والتمزق والتفرق، وهي محاور يجب الرجوع إليها في حال النزاع والخصام، لأنها تربط المسلمين.

وقد وجهت الأحاديث الشريفة الأنظار إلى الجامع المشترك بين المسلمين وهو «الحب في الله»، فهو أساس الإئتلاف والائتلاف

(٢٢) الأمل في كتاب

الله المنزل، ناصر

مكارم الشيرازي: ج ١٣،

ص ١١٠.

(٢٣) سورة الحجرات: ١٠.

والأخوة، وهو الحصن الحصين من النزاع والصراع والقتال الداخلي.

والحب في الله تعالى من أهم مقومات العلاقة بين المسلمين، وهو أهم دعائم الوحدة والاتحاد بين المسلمين، وبه يتعالون على الأطر الضيقة للعلاقات، وبه تنتفي الأنانية والتنافس اللامشروع، وبه يتحسسون لواقعهم الممزق فيجاهدون من أجل إرساء دعائم الوحدة وتحقيقها على أرض الواقع، ويكون رسول الله ﷺ وأهل بيته ﷺ قدوة لهم في حركتهم التكاملية التي تحصنهم من مخاطر التمزق والفرقة بعلاج أسبابها معالجة موضوعية وواقعية.

وقد أكد رسول الله ﷺ وأهل بيته ﷺ على مفهوم «الحب في الله والبغض في الله» مع إقرار بقية ألوان ومجالات الحب، كحب الوالدين، وحب الأسرة، وحب العشيرة، وحب القوم، وحب الوطن، فينبغي أن يكون هذا المفهوم من الحب هو الأساس في جميع ألوان العلاقات والأطر، وهو المحرك نحو العمل والنشاط في جميع مجالات الحياة الإنسانية، وكذلك البغض، فينبغي أن يكون «الحب في الله والبغض في الله» قائماً على أسس موضوعية تنبع من العقيدة والمصلحة العليا لا المصلحة الآنية أو الضيقة.

قال رسول الله ﷺ: «وَدُّ الْمُؤْمِنُ فِي اللَّهِ مِنْ أَكْثَرِ شَيْءٍ الْإِيمَانَ، أَلَا وَمَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ، وَأَعْطَى فِي اللَّهِ، وَمَنْعَ فِي اللَّهِ، فَهُوَ مِنْ أَصْفِيَاءِ اللَّهِ» (٢٤).

(٢٤) الأمل في كتاب الله
المنزل: ج ١٣، ص ١١١.

ومن الآثار الإيجابية لهذا الحب هو اللطف الإلهي والرحمة الإلهية التي تحيط المؤمن في حبه لأخيه المؤمن.

قال رسول الله ﷺ: «ما تحابَّ إثنان في الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حباً لصاحبه»^(٢٥).

ويترقى هذا الحب ليكون أساساً للدين، كما ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «كل من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له»^(٢٦).

والحب والبغض بهذا المعنى غير موجّه لذات الأشخاص، بل موجّه لسلوكهم وسيرتهم العملية، وهو يتغيّر تبعاً لها، فإذا كان المسلم في سلوكه وسيرته منسجماً مع مفاهيم وقيم الإسلام، فيكون الحب هو العلاقة الأساسية معه، فهو حب موضوعي يشجع المسلم على إصلاح وتغيير نفسه، وبالتالي إصلاح أسرته ثم إصلاح المجتمع الكبير، والعكس صحيح، فإذا خالف المسلم مفاهيم وقيم الإسلام سيكون البغض موجّهاً إلى سلوكه وسيرته. ومن هذا الحب تنطلق بقية ألوان العلاقات، وهي بدورها تعمّق هذا الحب كالتزاور والتناصر والتبادل، وبهذه العلاقات يحصل المسلمون على أعلى درجات المثوبة والفوز بمحبة الله تعالى لهم.

(٢٥) الكافي، الكليني:

ج ٢، ص ١٢٥.

(٢٦) المحجة البيضاء،

الفيض الكاشاني: ج ٣،

ص ٢٨٦.

الابتعاد عن الممارسات السلبية

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ

وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا
كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم
بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾.

حرّم الله تعالى جملة من الممارسات؛ لأنها تؤدي إلى زرع
الأحقاد والعداوات بين المؤمنين، وبالتالي إلى تنافر القلوب وتشتت
المحبة والإلفة وتمزق الصفوف. ومن هذه الممارسات:

١- السخرية.

٢- التنازب بالألقاب.

٣- الظن السيء.

٤- التجسس.

٥- الغيبة.

(٢٧) سورة الحجرات:

١١-١٢.

فهذه الممارسات تخالف التوجّه الإسلامي لتأليف القلوب وتآزر
الصفوف، لأنها تجعل الفواصل الجزئية وكأنها فواصل كلية لا تبقي
مجالاً للتآلف والتفاهم والانسجام والإخاء والإتحاد، وتخلق الاضطراب
في العقول والقلوب وفي العلاقات الاجتماعية والسياسية.

نكتفي هنا بذكر الغيبة؛ لأنها من أخطر الممارسات السلبية التي
تؤدي إلى تمزق صفوف الكيان الإسلامي، فإذا انتشرت في
مجتمع المسلمين حدثت البلبلة، واستفحل الاضطراب العقلي والنفسي
والسلوكي، وتشتت الكلمة، وتباعد الإخوان بعضهم عن البعض
الآخر بسبب التقاطع والتدابير.

والغيبة بجميع ألوانها من أخطر الممارسات، وخصوصاً الغيبة

الاجتماعية والسياسية التي تمارس من قبل الأفراد أو الطبقات أو التنظيمات والأحزاب بحق غيرها، وتكون أشد خطورة حينما تمارس باستخدام وسائل الإعلام في الصحف والمجلات والإذاعات والمنابر.

وتشتد خطورتها حينما تضخم الأخطاء والسلبيات والتفسيرات الخاطئة للآراء والأقوال والممارسات. ومن أهم أضرار الغيبة:

١- إشغال المسلمين عن أهدافهم الكبرى، وهي تحكيم الإسلام في واقع الحياة، وتقرير مفاهيمه وقيمه في العقول والقلوب والممارسات العملية، والتوجه إلى غير المسلمين لإرشادهم إلى الإسلام.

٢- انتشار الظواهر السلبية كالقلق والاضطراب والبلبلية والشك والحيرة، وإدخال اليأس في نفوس المصلحين حينما يعانون من تشويه سمعتهم من قبل الآخرين.

٣- فقدان الثقة بالعاملين للإسلام من علماء ومثقفين وتحجيم دورهم الإصلاحي.

٤- تمزيق الصف الإسلامي، إذ أن الغيبة وما يرافقها من إشاعات تؤدي إلى البغضاء والشحناء والخصومة، فينقسم الصف الإسلامي إلى كتل وتيارات متناحرة ومتشعبة، بين الناقلين لها والمكذّبين أو المدافعين.

التعارف الإيجابي

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٢٨).

التفاعل الاجتماعي هو الأصل في الحياة الإنسانية، فلا يمكن للإنسان أن يعيش لوحده، والحياة بدون تفاعل اجتماعي تتجه نحو الخمول والركود والجمود ومن ثم الموت، وقد عبّر القرآن الكريم عن التفاعل الاجتماعي «بالتعارف»، وهو حجر الأساس لجميع أشكال وأنواع التفاعل الإيجابي والسلبي.

ويتضمن التفاعل الاجتماعي التأثير المتبادل بين الأفراد أو بين الجماعات عن طريق احتكاك الآراء وتبادل المشاعر والأذواق وتفاعل الممارسات، وفي الطباع والأمزجة، وفي الاستعدادات والاهتمامات، وفي الأخلاق والمشاعر، ويتضمن أيضاً إدراك المسؤولية الاجتماعية، وتحديد السلوك في ضوء الموازين والمعايير الاجتماعية التي تحدّد لكل فرد دوره.

ومن أشكال وألوان التفاعل الاجتماعي الإيجابي: التعاون؛ لكي تتجذّر العلاقات والوشائج فلا تنفصم لأول خاطر، ولا تنفك لأول نزوة.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (٢٩).

ووسّع المنهج الإسلامي من دائرة التفاعل الاجتماعي لتتلاقح نحو المجتمع الأوسع، ابتداءً بحمل الهم الإسلامي بعيداً عن الأطر الضيقة.

(٢٨) سورة الحجرات: ١٣.

(٢٩) المائدة: ٢.

قال رسول الله ﷺ: «من أصبح لا يهتمّ بأمر المسلمين فليس بمسلم»^(٣٠).

وأكدت التعاليم والإرشادات الدينية على تنشيط التفاعل الاجتماعي وجعله مفعماً بالحياة الميدانية ونبذ الانكماش والإنزواء ليكون الإنسان في حركة دائمة وحياة متصلة في فكره وعاطفته وسلوكه، لذا الحاجة إلى الآخرين حاجة ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها.

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «عليكم بالصلاة في المساجد، وحسن الجوار للناس، وإقامة الشهادة، وحضور الجنائز، أنه لا بدّ لكم من الناس إن أحداً لا يستغني عن الناس حياته، والناس لا بدّ لبعضهم من بعض»^(٣١).

وأكدت التعاليم على الاختلاط وإن تخلّله أذى ومعاناة، لأن إيجابيات الاختلاط مقدمة على سلبياته المتوقعة في بعض الدوائر الاجتماعية.

قال رسول الله ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على آذاهم، أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على آذاهم»^(٣٢).

وشجعت التعاليم الدينية على الإقتراب من الناس لإدامة الحركة الاجتماعية وجعلها أكثر حيوية ونشاطاً.

قال رسول الله ﷺ: «أقربكم مني غداً وأوجبكم عليّ شفاعة أصدقكم لساناً، وأداكم للأمانة، وأحسنكم خلقاً، وأقربكم من الناس»^(٣٣).

(٣٠) الكافي: ج ٢،

ص ١٦٣.

(٣١) الكافي: ج ٢،

ص ٦٣٥.

(٣٢) مسند أحمد بن

حنبل: ج ٥، ص ٣٦٥.

(٣٣) مسند الإمام زيد:

ص ٣٤٨.

وتدخل الدعوة إلى الألفة والتآلف وإلى اللين في إطار التفاعل الاجتماعي لأنها مقدمة إليه وأساس من أسس تجذيره في الواقع الموضوعي. قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون هينون لينون كالجمل الأنف، إن قيد انقاد، وإن أنيخ على صخرة استناخ»^(٣٤). وجعل رسول الله ﷺ التودد للناس والتحبب لهم رأس العقل بعد مرتبة الإيمان بالله تعالى، والتودد والتحبب من أهم مقدمات التفاعل الاجتماعي. حيث قال ﷺ: «رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس»^(٣٥).

ونرى من خلال متابعة التعاليم والإرشادات الدينية أنها تؤكد على العمل بما يؤدي إلى تجذير التفاعل الاجتماعي وتهيئة مقدماته كالتواصل والتزاور واللقاءات المستمرة، والأحاديث في هذا المجال مستفيضة.

وحذرت التعاليم والإرشادات الإسلامية من التفاعل الاجتماعي السلبي، ونهت عن جميع العوامل والمقدمات المؤدية إليه والتي لا حصر لها. فقد قال رسول الله ﷺ: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»^(٣٦).

ورفعت التعاليم الدينية شعار «التنافس في المعروف» لكي يكون حاكماً على جميع ألوان الصراع والتنافس. قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «تنافسوا في المعروف لإخوانكم وكونوا من أهله»^(٣٧).

(٣٤) ربيع الأبرار،
الزمخشري: ج ٢، ص ١٣.
(٣٥) مجمع الزوائد،
الهيتمي: ج ٨، ص ٢٨.
(٣٦) صحيح مسلم،
النيسابوري: ج ٤،
ص ١٩٨٣.
(٣٧) المحجة البيضاء:
ج ٣، ص ٣٨٠.

الإنتماء بين المبدئية والسطحية

قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٣٨).

الإنتماء إلى الإسلام هو الإيمان المطلق به كعقيدة وشرعة ومنهج حياة متكاملة، وهو التقيّد والالتزام بأوامره ونواهيه والسير على ضوء مفاهيمه وقيمه، والتضحية بالمال والنفس من أجل تقرير مبادئه في واقع الحياة.

والقرآن الكريم يميّز بين لونين ومظهرين من الإنتماء، وهما:

١- الإنتماء السطحي، وهو شهادة الشهادتين حيث يصبح الناطق بهما مسلماً وينتمي إلى الكيان والوجود الإسلامي، فله ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين دون النظر إلى اعتقاده الحقيقي المستقر في العقل والقلب والضمير.

٢- الإنتماء المبدئي والواقعي، وهو ليس مجرد نطق الشهادتين أو الجهر بالإسلام، وإنما هو تجسيدها ابتداءً بالإنقياد المطلق لله تعالى ولرسوله، وإنهاءً بالعمل الإيجابي المثمر وتحكيم مفاهيم وقيم الإسلام في كل شؤون الحياة ومجالاتها، فهو إيمان بالقلب، وإعلان باللسان، وعمل بالأركان والأحكام، ومن مظاهره:

١- التبعّد لله تعالى.

٢- التوكل على الله وتفويض الأمر له والتسليم لأمره.

(٣٨) سورة الحجرات:

١٤-١٥.

٣- اتخاذ الدِّين منهجاً في الحياة في كل شؤونها.

٤- الجهاد في سبيل الله.

٥- طاعة الله والرسول.

وإلى الإيمان المبدئي أشار رسول الله ﷺ فقال: «الإيمان عقد بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان»^(٣٩).

وقد حدّدت الآيات القرآنية أهم صفات المؤمنين وهم الذين يؤمنون إيماناً مبدئياً: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾^(٤٠).

(٣٩) الكافي: ج ٢:

ص ٦٣٥.

(٤٠) سورة المؤمنون:

٩-١.

وفي جميع الأحوال فإن الإسلام عنوان للانتمائين حيث يشمل المسلم السطحي والمسلم المبدئي، والاختلاف بينهما هو الاختلاف الناشئ من القرب أو البعد عن مفاهيم وقيم وموازنين الإسلام، فالمؤمن أقرب من المسلم إليها وأقرب إلى الله تعالى. والآية الكريمة تحث الإنسان على الانتقال من الإسلام إلى الإيمان بتجسيده عملياً في كل الأفعال والممارسات والعلاقات والارتباطات.

المنّ بالإسلام علامة الانتماء السطحي
قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَلَّ لَا تُؤْمِنُوا عَلَيَّ إِسْلَامُكُمْ
بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤١).

إن الإيمان السطحي هو إعلان الشهادتين يعبر عن سطحية
العقول وسفاهتها التي تترجم بالمنّ على رسول الله ﷺ لانتماء
أصحابها للوجود الإسلامي على مستوى الظاهر ومستوى النطق،
وقد أخطأ من يمنّ على الرسول ﷺ من ناحيتين:

١- أن الانتماء إلى الإسلام هو انتماء يعود بالنفع للمتممي حيث
الشعور بالأمن والسلام داخل النفس، وفي الواقع العملي، فالمؤمن
مطمئن النفس مستقيم الحركة، لا يعيش الاضطراب والقلق ويأمن
على نفسه وأسرته وتحرّر ذاته من عبودية الآلهة المصطنعة وعبودية
الشخصيات، وفي هذه الحالة فإن المنّ هو الله تعالى، فهو أحق
بالمنّ على المسلمين بعد أن روض عقولهم وقلوبهم للهداية.

٢- أن الرسول ﷺ مجرد مرسل من الله تعالى لإبلاغ دينه
للناس، وليس له من الأمر شيء فالأمر إلى الله تعالى، فالمنّ من
قبل من أسلم على الرسول لا معنى له، والله تعالى ليس محتاجاً
للناس في إسلامهم، بل هم المحتاجون إليه في الهداية والاستقامة
والاستمرار على الإسلام والإيمان.

وهؤلاء لو كانوا مؤمنين حقيقة لما منّوا على رسول الله ﷺ
لأنهم لا يدركون الآثار الإيجابية للإيمان على نفوسهم وممارساتهم.
ولنقتد بالأئمة من أهل البيت ﷺ الذين جاهدوا في الله حق
جهاده، فتحملوا الأذى والعذاب في سبيله، فحوصروا ولاحتقتهم

(٤١) سورة الحجرات: ١٧.

الحكومات الجائرة وأحصت عليهم سكناتهم وحركاتهم، واعتقلت بعضهم وقتلتهم أما بالسيف أو السم إلا أنهم ومع تلك التضحيات الجسام نراهم يتضرعون إلى الله ويشعرون بالتقصير - ليس لأنهم كذلك - بل تربية لنا على التسليم المطلق لله وإذلال النفس أمامه، وعدم المنّ على الإنتماء للإسلام، بل لا يصح الشعور بالمنّ حتى من قبل الذين ضحّوا بأموالهم وراحتهم وأنفسهم من أجل الإسلام، بل هم مدينون لله تعالى الذي هداهم للإيمان.

المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مؤسسة البعثة، قم: ٢٠٠٠م.
- ٣ - الشريف الرضي، نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، تحقيق: الدكتور صبحي الصالح، مطبعة النهضة، قم، الناشر: دار الذخائر، قم، إيران، ط الأولى، ١٤١٢هـ.
- ٤ - المعتزلي، عز الدين بن هبة «ابن أبي الحديد»، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، الناشر: دار الكتب العلمية، بلد الناشر: بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.
- ٥ - العكبري البغدادي، أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الملقب بالشيخ المفيد، الأمالي، تحقيق: الحسين أستاذ ولي - علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة، الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤١٤ - ١٩٩٣ م.
- ٦ - المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، ط ٢، بيروت: ١٤٠٣ - ١٩٨٣.
- ٧ - الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه، من لا يحضره الفقيه، تحقيق: علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة: الثانية.
- ٨ - الكراجكي أبي الفتح محمد بن علي، كنز الفوائد، الناشر: مكتبة المصطفوي - قم، الطبعة: الثانية، المطبعة: غدير، سنة الطبع: ١٣٦٩ ش.
- ٩ - الحراني، الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة، تحف العقول، تحقيق: علي أكبر غفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط الثانية، ١٤٠٤هـ.
- ١٠ - الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، المطبعة: حيدري، الناشر: دار الكتب الإسلامية، طهران، إيران، ط الخامسة، ١٣٦٣ ش - ق.

- ١١ - الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه، كمال الدين وتمام النعمة، تحقيق: علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، سنة الطبع: محرم الحرام ١٤٠٥ - ١٣٦٣ ش.
- ١٢ - النراقي، المولى احمد، عوائد الأيام، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، الناشر: مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، المطبعة: مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٧ - ١٣٧٥ م.
- ١٣ - الحميري المعافري، عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، المحقق: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: شركة الطباعة الفنية المتحدة.
- ١٤ - الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، الناشر: منشورات مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.
- ١٥ - الإمام الشهيد زيد بن علي بن الحسين، مسند الإمام زيد، الناشر: منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - لبنان
- ١٦ - الزمخشري، أبي القاسم محمود بن عمر، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق: عبد الأمير مهنا، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٢ - ١٩٩٢ م.
- ١٧ - الهيثمي، د نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، سنة الطبع: ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م.
- ١٨ - النيسابوري، أبي الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، الناشر: دار الفكر - بيروت - لبنان.
- ١٩ - الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق وتصحيح: عبد الوهاب عبد اللطيف، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م.
- ٢٠ - المحجة البيضاء الفيض الكاشاني.

